

أناتول فرانس

الآلهة عطشى



ترجمة
مصطفى كامل خليفة

الدار المصرية اللبنانية

16

الدار المصرية اللبنانية

روايات جائزة نوبل

سلسلة تصدرها

الدار المصرية اللبنانية

المدير العام : محمد رشاد

رئيس التحرير : فتحى العشرى

الإعداد والصياغة : محمد فتحى

١٦ ش عبد الخالق ثروت - القاهرة

تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٣٦٧٤٣

فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ - برقياً : دار شادو

ص . ب : ٢٠٢٢ - القاهرة

رقم الإيداع : ١٨٧٥٣ / ٢٠٠١

التقييم الدولى : 6 - 646 - 270 - 977

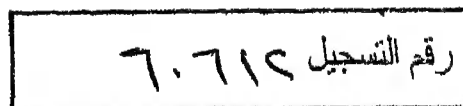
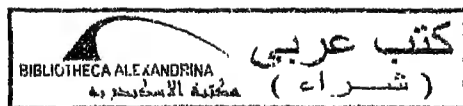
جميع حقوق الترجمة والطبع والنشر محفوظة للناشر .

الطبعة الأولى : ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م .

الآلهة عطشى

أناتول فرانس

نوبل / 1939



مصطفى، كامل خليفة

ترجمة
وتقديم



« الآلهة عطشى »

إيفاريست جاميلان، رسام، تلميذ دافيد، عضو في دائرة بونت - نوف^(١)، إقليم هنرى الرابع سابقاً، توجه في الصباح الباكر إلى كنيسة البارنابيت (٢) القديمة .



كان يشغل مقعداً في الجمعية العامة للإقليم منذ ثلاث سنوات، من تاريخ واحد وعشرين من مايو ١٧٩٠، وكانت هذه الكنيسة تقع في ميدان ضيق ومظلم، بالقرب من سياج القصر .

تتكون واجهة الكنيسة من طرازين معماريين كلاسيكيين، ومزخرفة بإفريزين معكوسين، ومسارج من الخزف، وقد أبلاها الدهر، وأهانها البشر، وبالمطارق، دُقت شعاراتها الدينية، وسُجِّلَ عليها الشعار الجمهورى بالحروف السوداء : « الحرية والمساواة، الإخاء أو الموت ».

دلف «إيفاريست جاميلان» إلى داخل جناح الكنيسة.. عقود القباب التى كانت تستمع إلى كهنة جمعية «سان بول» عندما كانوا يترنمون

(١) لوبونت - نوف : دوائر اختصاص انتخابية .

(٢) لوبار نابيت قديس ميلانو أصلاً (عام ١٥١٧)

بِالْقُدَّاسِ الْإِلَهِيِّ وَهُمْ يَرْتَدُّونَ قِمَصَانَهُمُ الْخَاصَّةَ، الْآنَ تَرَى الْمَوَاطِنِينَ
بِغَطَاءٍ رَأْسٍ أَحْمَرَ اللَّوْنِ، وَقَدْ تَجَمَّعُوا لِيَتَخَبَّوْا أَعْضَاءَ الْمَجْلِسِ الْبَلَدِيِّ
وَيَتَدَاوِلُوا بِصَدَدِ شَيْئُونِ الدَّائِرَةِ .

سُحِبَت تماثيل القديسين من مواضعها، وحلت محلها التماثيل النصفية لبروطس، وجان جاك، ولوبيلتييه^(١)، ولوحة حقوق الإنسان تنتصب على المذبح العادي.

في هذا الحناح من الكنيسة، تنعقد الجمعيات العمومية، مرتين في الأسبوع، من الساعة الخامسة وحتى الساعة الحادية عشرة. المنبر في الكنيسة يُزيّنه علَمُ الأُمّةِ بألوانها، ويُستخدم كمنصة لإلقاء المواظ. وفي الحائِ الأيمن من المذبح توجد منصة من السُّقالات الضخمة مرتفعة، مخصصة لاستقبال النساء والأطفال الذين كانوا يتوافدون بأعداد كبيرة إلى حدِّ ما لحضور هذه الاجتماعات

وفي هذا الصباح - أمام أحد المكاتب عند سفح المبر - يقف نَجَّارٌ
سيدار تيويغيل الوطني دييوز اينييه مرتديا غطاء رأس أحمر
ويكرميوناً * وهو أحد الاعضاء الاتنا عشر للحبة المراقبة

كان يوحى على المكتبة فاروق واقفادح. وعجيرة وأدوات كتابة، ودفتر
يحتوي خرصر العريضة التي دعت الجمعية إلى أن تستعد من هيكلا

[illegible]

١٧٩٢

الأعضاء غير الجديرين بالعضوية، وعددهم اثنان وعشرون.. إيفاريست جاميلان تناول القلم وَوَقَّع .

قال القاضي المهني : « كُنْتُ على يقينٍ أَنَّكَ سوف تعطى صوتك أيها الوطني «جاميلان». إِنَّكَ متحمس، ولكن الدائرة ليست متحمسة، تنقصها الفضيلة. وقد اقترحتُ على لجنة المراقبة ألاَّ تعطى شهادة المواطنين لأى فرد لا يوقَّع على العريضة». قال جاميلان : إننى على استعداد أن أوقع بدمائى على حظر دخول الخونة الفيدراليين. لقد أرادوا قَتْلَ مرات (١)، فَلْيَهْلِكُوا .

أجاب ديبون إينيه : هذا ما يُحيرنا، عدم الاكتراث واللامبالاة فى دائرة تحتوى لى تسعمائة مواطن لهم الحق فى التصويت، لم يحضر منهم إلى الجمعية غير خمسين. بالأمس كان عددنا ثمانية وعشرين .

جاميلان : حسنًا يجب إجبار المواطنين على الحضور وإلاَّ تُفَرَضَ عليهم غرامات .

النجار عابسًا : ما هذا ؟ إنهم إذا حضروا جميعهم فسوف يكون المواطنون أقلية... أيها الوطنى جاميلان، هل لك فى قدح من النبيذ فى صحة السان كولوت (٢) ؟.....

(١) مارات حان بول ثائر شعبى فرنسى مشهور.. ولد سنة ١٧٤٣ وكان طبيبًا، وأنشأ صحيفة «لامى دى بيبيل» سنة ١٧٨٩ . وله مسئولية كبيرة فى وقوع مذبحة سبتمبر الشهيرة، واغتالته شارلوت كوردائى فى الثالث عشر من شهر يوليو سنة ١٧٩٣ .

(٢) اسم أطلقه الأرستقراطيون على الثوريين سنة ١٧٨٩

وعلى حائط الكنيسة، من ناحية الإنجيل، تقرأ هذه الكلمات مصحوبة
بيد سوداء تشير بالسبابة إلى الممر الذى يؤدى إلى رواق الدير : لجنة
مدنية، لجنة المراقبة، لجنة خيرية.

وبعد بضع خطوات إلى الأمام نصل إلى باب مخزن الأمتعة الذى
تعلوه عبارة : «لجنة عسكرية». ودفع «جاميلان» الباب، فوجد سكرتير
اللجنة يكتب على منضدة كبيرة مزدحمة بالكتب والأوراق، وسبائك من
الصلب، وخراطيش، وعينات من الطين، ولفائف البارود.

— تحياتى إليك أيها الوطنى «تروبير».. كيف حالك ؟

— أنا ؟.... فى أروع حال !

سكرتير اللجنة العسكرية «فورتونيه تروبير» يرد دائماً بهذه الإجابة
بدون تغيير على كل من يريد أن يطمئن على صحته، وكان يفعل ذلك ليس
ليطمئنهم على صحته فحسب، بل لكى يختصر أى محادثة فى هذا الصدد .
كان مصاباً بجفاف الجلد منذ أن كان فى الثامنة والعشرين من عمره،
وسقوط شعره إلا النادر منه. وكان أحمر الوجنتين، مقوس الظهر،
متخصصاً فى البصريات بحى الصاغة. وكان يمتلك منزلاً عتيقاً، والذى
تنازل عنه فى عام ألف وسبعمائة وواحد وتسعين لأحد الأبناء، ليتفرغ
لأعماله بالمجلس .

كانت والدته جميلة، وقد توفيت وهى فى العشرين من عمرها.
ويحتفظ بعض سكان الحى من المتقدمين فى السن بذكرياتها الطيبة.

وكان يرث عنها عينيها الجميلتين والمؤثرتين، كما ورث عنها شحوبها،
وحياةها .

وأما والده فكان مهندس بصريات ، وكان متعهد الملك، وقد أصيب
بنفس المرض قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره، وكان يتمتع بفكر سديد
ومُرَكَّز .

ويقول دون أن يتوقف عن الكتابة .

- وأنت أيها المواطن ، كيف حالك ؟

- حسنٌ . هل من جديد ؟

- لا شيء ، لا شيء كما ترى . كل الأمور هادئة هنا .

- والموقف ؟

- الموقف كما هو دائماً .

كان الموقف مخيفاً . وأفضل جيوش الجمهورية حوصر في
«مايانس»^(١)، كذلك حوصرت «فالنسيان»^(٢)، واستولى «الفانديون»^(٣)
على «فونتناي»^(٤)، وثار «ليون»، وتمرد «السيفينيون»^(٥)، والجهة

(١) ماياس من المدن الألمانية

(٢) فالنسيان من المدن الفرنسية .

(٣) الفانديون نسبة إلى «فاندة» وهي مديرية فرنسية كانت تؤيد النظام الملكي وكانت شديدة
المقاومة للثورة الفرنسية

(٤) فونتناي . مدينة تابعة لمديرية « فادة »

(٥) السيفينيون نسبة إلى «سفين» من جبال فرنسا الوسطى .

مفتوحة أمام الإسبان. وثلاثاً عدد المقاطعات إمّا تم غزوّه، وإمّا ثائرون. وباريس تحت وطأة المدافع النمساوية بدون مال وبدون خبز .

كان «فورتونيه تروبير» يكتب في هدوء حين كانت الدوائر مكلفة بقرار رسمي من مجلس العموم بتجنيد اثني عشر ألف رجل من أجل «فائدة»، فكتب تعليمات بالنسبة إلى تجنيد وتسليح الفيلق الذي يجب على «بونت - نوف» أو ، «هنري الرابع» سابقاً أن تُعده .

لابد من تسليم البنادق والذخائر إلى الذين يتم استدعاؤهم . وسوف يُسلّح الحرس الوطني بالبنادق والأسلحة البيضاء في كل دائرة .

قال جاميلان : سأحضر إليك كشفًا بالأجراس التي يجب أن تُرسل إلى لوكسمبورج لِتُحوّل إلى مدافع .

ومع أن «إيفاريسست جاميلان» لا يملك مليماً واحداً، إلا أنه كان مُسجّلاً بين أعضاء الدائرة المتحمسين. إنَّ القانون لا يمنح هذا الامتياز إلا للمواطنين القادرين على دَفْع نسبةٍ تُعَدُّ قيمةً ثلاثة أيام عمل، وقد كان القانون يشترط دفع ضريبة تعادل عمل عشرة أيام حتى يصبح الناخب مؤهلاً للانتخاب . ولكن دائرة «بونت - نوف» كانت مأخوذة بمبدأ المساواة، وغيورة على استقلالها ، فقد كانت تتمسك بالنسبة إلى الناخب وإلى أهلية الانتخاب بكل مواطن دَفَعَ من ماله الخاص ثمنَ زِيّ الحرس الوطني الخاص به. تلك كانت حالة «جاميلان» الذي كان مواطناً نشيطاً في دائرته، وعضواً في اللجنة العسكرية .

ويضع فورتونيه تروبير القلم ويقول :

– أيها المواطن «إيفاريست»، اذهب إلى الجمعية واطلب منهم أن يرسلوا إلينا تعليمات بتقليب أرض الكهوف، وغسيل الأرض والأحجار للحصول على ملح البارود. فليست المسألة فقط هي الحصول على مدافع، بل أيضًا لابد من البارود .

يدخل أحدب قصير مخزن الأمتعة واضعًا القلم خلف أذنه، والأوراق بين يديه.. كان ذلك هو المواطن «بوفيزاج»، من لجنة المراقبة :

– أيها المواطنون – قال ذلك واستطرد : لقد تلقينا أنباء سيئة ، فقد «كوستين»^(١) عن «لاندو»^(٢) .

جاميلان صارخًا : كوستين خائن !

– قال بوفيزاج : سوف يُعدم بالمقصلة .

تروبير بنفسه اللاهث قليلاً ، يتحدث بصوته الهادئ كالمعتاد :

– إن الجمعية لم تُشكل لجنة الخلاص الشعبي عبثًا ، وفيها سوف يُدرس سلوك كوستين ، فيرى أهو خائن أم لا ؟ وسوف يُستبدل به جنرالًا موطد العزم على الانتصار، وذلك حتمًا سيكون !^١

ثم تصفح بعض الأوراق ، وألقى عليها نظرة شاملة بعينه المرهقتين ، واستطرد :

(١) كوت دي كوستين قائد فرنسي ، ولد سنة ١٧٤٠ ، وقَاتَلَ في أمريكا في حرب الاستقلال وعُيِّن قائدًا عامًا لجيوش الشمال – وحُكِمَ عليه بالإعدام بالمقصلة في الثامن والعشرين من أغسطس عام ١٧٩٢ للاشتباه فيه
(٢) لاندو من مُدُن « بغيريه » .

- وحتى يقوم جنودنا بواجبهم على الوجه الأكمل بدون أدنى تقصير، يجب أن يعرفوا أن ذويهم الذين سيخلفونهم في موطنهم سوف يكونون في أمان . وإذا كنت على هذا الرأي أيها المواطن «جاميلان» فسوف تطالب معى في المجلس القصادم، بأن تُجْمَعَ اللجنة الخيرية واللجنة العسكرية أمرهما على مساعدة الأسرِ المُعْصِرةِ التى لها عائل في الحرب .. ثم ابتسم وقال مُدْنِدُنَا :

- ستكون الأحوال مرضية !.

إن أمين هذه اللجنة يعمل يومياً اثنتى عشرة ساعة ، أو أربع عشرة ساعة أمام منصدته المصنوعة من الخشب الأبيض، لينقذ الوطن من الخطر . هذا السكرتير المتواضع لإحدى لجان الدائرة، لا يرى مطلقاً أى تباين بين ضخامة المهمة وتدنى الوسائل، فهو يشعر بأنه مشترك في مجهود عام لجميع المواطنين ، وأنه يتكاتف مع الأمة ، كما يشعر بأن حياته تمتزج مع حياة شعب عظيم .

إنه من هؤلاء الذين يَتَذَرَّعون بالحماس والصبر عند كل هزيمة ، ويعدون العُدَّةَ لانتصار المستحيل والأكيد، ولا بد لهم من الانتصار. هؤلاء الرجال المُسْتَحْقَرُونَ الذين هدموا المَلَكِيَّةَ ، وقلبوا العالم القديم، وهذا «التروبير» مهندس البصريات القصير، وهذا «الإيفاريست جاميلان» الرسام المغفور، لا ينتظرون مطلقاً الخلاص من أعدائهم، ولم يكن لهم خيار سوى الموت أو النصر، ومن هنا كانت حميتهم وصفاء نفوسهم .

* * *

في لحظة خروج البرنابى، توجه «إيفاريست جاميلان» إلى ميدان «دوفين»، والذي أصبح ميدان «تيونفيل»^(١) تشریفًا لهذه المدينة الحصينة .

هذا الميدان الذى يقع فى أكثر الأحياء ارتيادًا فى باريس فقدَ نظامه ومظهره الجميلين منذ حوالى قرن : فالفنادق التى كانت مشيدة على الواجهات الثلاثة فى عهد «هنرى الرابع» على نمط واحد من القرميد الأحمر، مع سلاسل من الحجر الأبيض، وذلك من أجل قضاة عظام ، تغيرت الآن سقوفها العالية من الإردواز إلى طابق أو طابقين بائسين من الجص ، أو أنها هُدمت وسُوِّيت بالأرض ، وأقيمت بدلا منها منازل محرومة من الجمال، وطُلِّيت بالجبس بطريقة سيئة، ولا تعرض سوى واجهات مشوهة حقيرة قذرة ، تخترقها نوافذ غير متساوية، ضيقة، لا حصر لها، تزينها أُلصُصٌ من الزهور، وأقفاص الطيور، وغسيل منشور .

هناك ، يقيم خليط من الحرفيين : الجواهريّة ، والنقاشين، والساعاتيّة ، ومتخصصى البصريات، والطبّاعين، وتاجرات البَزِّ والقبعات، والغسّالات أو الكوّاءات، وبعض رجال القانون كبار السن الذين لم ينجرّفوا قط فى اضطرابات مع الحكم المَلَكِيّ .

كان ذلك فى صباح يومٍ من أيام الربيع ، مع أول خيوط من أشعة الشمس التى تُثْمِلُ كما يُثْمِلُ النُبَيْذُ المُسَكَّر.. تبتسم على الأسوار،

(١) تيونفيل من مدن هرسا المبيعة

وتناسب في بهجة على الأسقف . وكانت أسقف نوافذ المقصلة مرفوعة،
وتظهر من تحتها الرؤوس الشَّعْبَةُ للخدمات .

كاتب محكمة الثورة خارج من منزله، مُتَوَجِّهٌ إلى عمله، يداعب حدود
الأطفال الذين كانوا يلعبون، وهو مارٌّ في طريقه تحت الأشجار . وَسَمِعَ
صوتٌ يصيح على « لوبونت - نوف »، قائلاً: خيانة الدُّنْيَا
«ديمورييه»^(١).

وكان «إيفاريست جاميلان» يُقيم في جانب ساحة «الهورلوج»، في
منزل قديم يرجع تاريخه إلى هنري الرابع، وكان المنزل أيضًا يظهر
بمظهر لائق لولا وجود مخزن صغير مُغطًى بالقرميد، والذي تم تعليته
في عهد الطاغية الأسبق، لتخصيص إحدى شقق أحد قدامى البرلمانيين
لغرض معين لتتلاءم مع العائلات البورجوازية والحرفية، الذين كانوا
يقيمون فيها، فقد ضوعف عدد القواطع، وعدد حجرات السُّلَم.. وهكذا
كان البَوَّاب الخياط الوطني «رِيمَاكَل» يسكن في طابق أَرْضِيٍّ ضِيقٍ في
المساحة والارتفاع والعرض بحيث كان يُرَى من خلال الباب الزجاجي
متربِّعًا على منضدة العمل، ورقبته على القاطع، يحيك زى الحرس
الوطني.

هذا ولم يكن لموقد زوجته المواطنة ريماكل الذي تطهو فيه سوى

(١) ديمورييه . نقيب في الرابعة والعشرين من عمره، وصل إلى قيادة جيش الشمال، وأحرز
انتصارات، وعرا بلجيكا وهولندا . هزمه النمساويون . دَنَزَ حَيَاةَ وانضم للأعداء في الخامس
من أبريل سنة ١٧٩٣ .

السُّلَم كمدخنة تُسَمُّ بها أنوف المستأجرين بدخان محمراتها ومقلياتها. وعلى عتبة الباب تجلس طفلتهم الجميلة «جوزفين» ملطخه بميلاس قصب السكر، وهى تبدو جميلة كضوء النهار، تلعب مع الكلب مُوتُون، كلب النَّجَّار.

كانت المواطنة «ريماكل» طيبة القلب، ممتلئة الصدر والحقو، وكانت دائماً تمر لتعرض خدماتها على جارها المواطن «دييون لينيه»، أحد أعضاء لجنة الرقابة الاثنى عشر. وكان زوجها شديد الارتياب، وكان الزوجان «ريماكل» يملأن المنزل بالصياح المتبادل بسبب مشاجراتهما ومصالحاتهما. وكان يشغل الطوابق العليا للمنزل كل من المواطن «شابايرون»، وهو صائغ، ومحلّه يقع فى ساحة «الهورلوج»، وضابط صحة، وأحد رجال القانون، وطَرَّاقٌ للذهب، وكثير من موظفى القصر.

صعد «إيفاريسست جاميلان» الدَّرَج القديم حتى الطابق الرابع والأخير، حيث توجد ورشته، مع غرفة لوالدته. وهنا ينتهى الدرج الخشبى المُزَيَّن بالتربيعات التى أعقبت السلم الحجرى الكبير من الطوابق الأولى. ويوجد سلم معلق على الحائط، يؤدى إلى مخزن حيث كان ينزل أنثى رجل ضخم، كبير فى السن، له وجه جميل وردى ومضىء، ويحمل بصعوبة بالةً ضخمة، ومع ذلك كان يُرَدِّدُ: فقدت خادمى .. ثم توقف عما كان يردده وأوماً إلى «جاميلان» بطريقه كورتوازية فحيّاه «جاميلان» بطريقة أخوية، وساعده فى إنزال الطُرْد الذى يحمله، والذى شكره كثيراً على مساعدته فى حَمَله.

قال له وهو يمسك بحمله . أتعرف ما هذا ؟ هذه لعب، ودُمى متحركة،
وزاهب لأسلمها إلى أحد تجار اللعب في شارع «لالوا» حيث يوجد كثير من
الزبائن.. إنها من مبتكراتي وصُنعي، وقد أنهكني صنْعها وَصَبَّأ وألأ،
ولكني لم أَبَالِ بذلك ما دُمْتُ رَبًّا صَالِحًا .

وهذا هو المواطن «موريس بروتو» الذي كان جابيًا للضرائب، وكان
فيما مضى من النبلاء . أمَّا والده فقد اغتنى في الزمن الغابر من انضمامه
إلى الأحزاب. كان «موريس بروتو»، يُسمَّى السيد «ديزلييت»، ويُقدَّم في
فندقه (أوتيل دي لارى دو لاشيز) طعامَ عَشاءٍ لذيذًا وشهيًّا، وأن السيدة
الجميلة «دى روشيمور»، الزوجة الحسنة لأحد النواب، مضيئة بعينيها
وهى سيدة متكاملة، لم يُنكَرَ وفاؤها وأمانتها الشريفة ما دامت الثورة قد
تركت إلى «موريس بروتو ديزلييتو مَكَاتِبُهُ وإيراداته، وفندقه، وأراضيه،
واسمه .

لقد انتزعت الثورة منه كل شيء، وصار يكسب عيشه عن طريق
رسم لوحات تحت أبواب العربات. ويصنع فطائرَ مُحَلَّلَةٍ وأخرى
محشوة باللحم أو بالخضار أو الفاكهة في شارع «ميجيسيرى». ويؤلف
خُطَبًا لمثلى الشعب، ومن إعطاء دروس في الرقص للشابات الوطنيات ..
إنه حاليًّا في بيته الذى يشبه المخزن ، حى-ث يذف إليه عن طريق سلم ،
ولا يمكن أن نظل واقفين فيه. إن «موريس بروتو» غنى بأدواته : إناء به
مادة لاصقة، ولفة من الخيط، وعُلبَة ألوان ماء.. يصنع الدُمى المتحركة،
والتي يبيعها إلى كبار تجار اللعب، وهم بدورهم يبيعونها إلى التجَّار

الجائلين الذين يطوفون بها في شارع «الشانزليزيه»، مُعلقة على طرف عصا طويلة، وأشياء لامعة تجذب أنظار ورغبات الأطفال .

وفي خضم الاضطرابات الشعبية، وفي وقت النكبة الكبرى التي تأثرت بها هو شخصياً، في هذا الوقت العصيب يحتفظ بنفس صافية.. ويقرأ «لوكريس» لِيَتَسَلَّى، ويحمل كتابه دائماً في جيب «الريدينجوت» الأكلف اللون (١)، والمفتوح دائماً .

ويدفع «إيفاريسست جاميلان» باب مسكنه الذي قُتِحَ في الحال . إن فقره يوفر عليه استعمال المزاليج (٢)، وعندما تسحب والدته المزلج كعادتها لتغلق الباب ، يقول لها : « ما الفائدة؟ إن نسيج العنكبوت لا يُسَرَّقُ.... ونسيجنا لا يقل قيمة عنه .» .

وفي رoshته تتكدس - تحت طبقة سميكة من التراب، أو على الحائط - لوحاته التي في بدايتها . وكان يختار مناظر غزلية، يُلاطف بريشته الناعمة الخجولة جعبات فارغة، وطيورًا محلقة، ولعبًا خطيرة، وأحلامًا بالسعادة، وتجمعًا لحارسات الإوز، وَيُزَيِّنُ بالورود صَدْرَ الراعيات .

ولكن هذه الطريقة لا توافق ميوله مطلقًا. هذه اللوحات التي تم اختيارها بدون أى حماس تشهد على طهارة نفس الكاتب، والتي لا يمكن تعويضها. ولم ينخدع الهواة فيه . وجاميلان لن يتحول إلى فنان غَزَلِيٍّ مطلقًا . واليوم - مع أنه لم يبلغ الثلاثين من عمره بعد - فإن موضوعاته

(١) الأكلف اللون أى الذى بين اللونين ، الأحمر الأسود .

(٢) المزاليج جمع مزلاج ، وهو المعلاق « القفل »

تبدو له كأنها من زمن سحيق . ويعرف فيها الفساد الملكى، والتأثير المُخجل لانحلال البلاد . ويعترف بأنه أخطأ فى الانخراط فى هذا النوع الحقيقى، ودلّ على عبقرية محقرة بالعبودية. والآن هو مواطن فى شَعْب حر، يرسم بالفحم بخطوط قوية حريات حقوق الانسان، والدساتير الفرنسية، وفضائل جُمهورية، وهراقلة شَعْبِيّين، يصرعون أفعوان الطغيان، ويصب فى جميع هذه الموضوعات كل حماس الوطنية. وللأسف ! لم يكسب منها عيشه .

كان الوقت عصيباً بالنسبة إلى الفنانين، ولا رَيْب أن ذلك لم يكن خطأ الجمعية التى تُطلق فى جميع الأنحاء جيوشاً ضد الملوك، والتى - وهى متغطسة - لا تتأثر بشيء، فهى صامدة أمام أوروبا المتآمرة، وهى غادرة بطبعها، وقاسية مع نفسها.. كانت تمزق نفسها بيديها، وكانت تدرج الإرهاب فى جدول الأعمال، وأنشأت محكمة لا ترحم لمعاقبة المتآمرين، وإليها سوف يُقدم - فيما بعد - أعضاءها لكى تفترسهم، وهى فى نفس الوقت هادئة، متفكرة، صديقة للعلم وللجمال.. أعادت ترتيب التقويم، وأنشأت مدارس خاصة، وأصدرت قراراً بإجراء مسابقات فى الرسم والنحت، ورصدت جوائز لتشجيع الفنانين، ونظّمت صالونات سنوية، وفتحت المتحف، واقتداءً بأثينا وروما أضفت طابعاً رفيعاً فى الاحتفال بالأعياد، وبالحداد الشعبى .

ولكن الفن الفرنسى المنتشر قديماً فى إنجلترا وألمانيا وروسيا وبولندا لم يكن له أسواق فى الخارج .. هواة الرسم، والمعجبون بالفن، وكبار السادة، والماليون، حلّ بهم الخراب، وقد هاجروا واختفوا . والناس

الذين أثرتهم الثورة فلاحون يمتلكون أراضي وطنية، ومضاربون بالأسهم المالية، وممولون للجيش، ومديرو صالات الميسر في القصر الملكي، لم يجروا بعد على إظهار ثرائهم ، وعلاوة على ذلك لا يهتمون بالرسم .

كان الفنان لابد أن تكون له شهرة «رينيو»^(١)، ومهارة «جيرارد»^(٢) الصغير من أجل أن يبيع لوحة .

واستبد بكل من «جروز»^(٣)، و «هوين»، و «فراجونار»^(٤)، فقر مدقع، وكان «برودون»^(٥) ينفق بصعوبة على زوجته وأطفاله، فكان يرسم مناظر، وكان «كوبيا» ينقشها بالتنقيط .

وَكَا بَدَ الرِّسَّامُونَ الوطنيون : « هينيكان »^(٦)، و « فيكار »، و « توبينو لوبران »^(٧)، الجُوعَ كثيرًا . وكان «جاميلان» لا يجد تكاليف لوحاته ، ولا يستطيع دفع أجر «الموديل»، ولا يستطيع شراء ألوان، وكان يحتفظ بلوحة كبيرة تكاد تكون خطوطها الأولى مرسومة، تمثل الطاغية تطارده

(١) رينيو هو جان بابتيست رينيو، مصوّر فرنسي (١٧٥٤ - ١٨٢٩) من أشهر لوحاته الإلهات الثلاث، ورمزية كونية والحرية أو الموت وقد أقام معرضًا في سنة ١٧٩٥ في الصالون (٢) جيرارد هو فرانسوا جيرارد، مصوّر فرس (١٧٧٠ - ١٨٣٧). وهو تلميذ دافيد وقد أصبح محلفًا في محكمة الثورة.

(٣) جروز مصوّر فرنسي (١٧٢٥ - ١٨٠٥) .

(٤) فراجونار رسام ونحات فرنسي (١٧٣٢ - ١٨٠٦).

(٥) برودون هو بيير بول برودون (١٧٥٨ - ١٨٢٣) رسام فرسي من مدرسة دافيد، أشهر لوحاته «العدالة وانتقام الإله» رمزية .

(٦) هينيكان . رسام وحات فرنسي (١٧٧٣ - ١٨٦٣) .

(٧) هو فرانسوا توبيو لوبران، رسام ، ومن تلاميذ دافيد، صار محلفًا في محكمة الثورة، وأعدم بالمقصلة سنة ١٨٠١ لاتهامه بالتآمر ضد بوناپرت .

الجنّيات في جهنم.. كانت تغطّي نصف الرسم بوجوه غير مكتملة ومخيفة، أكبر من الحجم الطبيعي، وخليط من الأفاعى الخضراء، لكل أفعى منهن لسانان حادّان معقوقان تقذف بهما. ومن أول وهلة، نُميز على اليسار في اللوحة (كارونّا) نوتياً نحيفاً وشرساً في قاربه.. قطعة مؤثرة برسم جميل، ولكنها جديرة بالمدرسة .

وكانت توجد لوحة بأقل المساحات ولم تكتمل بعد، ولكنها بحق تتسم بالعبقريّة والطبيعية، وكانت مُعلّقة في أكثر الأماكن إضاءة في الرسم . كانت تمثل أوريست، وأخته إليكترا ممددة على فراشها، فراش الألم، وترى الفتاة في حركة مؤثرة، تبعد شعرها المتشابك، والذي كان يحجب عيون أخيها . وكانت رأس أوريست حزينة جميلة ، وبينها وبين وجه الرسام شبه كبير.

كان «جاميلان» ينظر دائماً إلى هذه الصورة بنظرة حزينة، أحياناً ذراعه ترتعدان رغبة في التصوير، تمتدّان إلى وجه إليكترا المرسوم بغير دقة، ثم تهبطان إلى جواره واهنتين . كان الفنان ممثلاً بالحماس، وتتطلع نفسه إلى أشياء كبيرة. ولكن كان لزاماً عليه أن يبذل قصارى جهده في أعمال مطلوبة نفّذها بدرجة دون المتوسط، لأنه مضطر أن يُرضى ذوق العامّة ، ولأنه لا يعرف أيضاً أن يطبع تلك الأعمال البسيطة بطابع العبقريّة

كان يرسم مناظر رمزية صغيرة، والتي كان يخطّها صديقه «ديماهيس» بمهارة كافية باللون الأسود والألوان المختلفة، والتي يأخذها بثمان بخس أحد تجار الرّشْم بشارع هونوريه المواطن «بليز» .

« إِنَّ تِجَارَةَ الرَّشْمِ، تَسِيرُ مِنْ سَيِّئٍ إِلَى أَسْوَأَ » .. هَكَذَا قَالَ «بَلِيز»،
الذى لم يكن يريد أن يشتري شيئاً منذ زمن .

وهذه المرة بالذات ، دفعت الضرورة «جاميلان» إلى أن يكون ماهراً ،
فقد أدرك اكتشافاً هائلاً وجديداً يحقق ثروة لتاجر الرسم ، وللحفار ،
وله هو شخصياً : « لعبة ورق وطنية » .

وفي هذه اللعبة ، استبدل الملوك بالجن ، والسيدات بالحُرِّيَّات، وخدم
الحُكْم القديم بالمساواة . وكان قد صمم جميع صورهِ، وأنجز منها
الكثير، وكان متعجلاً ليسلم إلى «ديماهيس» تلك التى كانت توجد فى حالة
حفر جاهزة .

والصورة التى تبدو له موفقة هى التى تمثل أحد المتطوعين يرتدى
على رأسه قُبْعة ثلاثية القرون، ويرتدى ملابسَ زرقاء اللون بزركشة
حمراء ، وسروالاً أصفرَ ، ولُفَافَاتٍ سَاقَيْنِ سوداء ، يجلس على صندوق ،
وقدماه على كومة من الرصاص ، وبندقية بين ساقيه .. ذلك كان «المواطن
المُفَضَّل» ، الذى يحل محل الخادم المفضل . ومنذ أكثر من ستة أشهر كان
«جاميلان» يرسم متطوعين، ودائماً يرسمهم بمودَّة، وباع بعض
لوحاتهم فى أيام الفرح - والكثير منها مُعلَّق على حائط المرسَم - وهناك
خمسَ رسوم - أو ستة - بألوان الماء ، وألوان الجواش ، وبأقلام
رصاص، مبعثرة على المنضدة، وعلى المقاعد .

وفي شهر يوليو ٩٢ ، عندما نُصِبَتْ فى جميع ميادين باريس منصَّات
من أجل المتطوعين، عندما كانت جميع المقاهى الفنية مزدانة بأوراق
وفروع الشجر ، ترن فيها الصيحات قائلة : «تحيا الأمة ، نعيش أحراراً
أو نموت !» .

لم يستطع «جاميلان» المرور فوق «لوبونت - نوف» أو أمام دار البلدية بدون أن يخفق قلبه فرحاً ، نحو الخيمة المزدانة بالأعلام ، حيث يوجد القضاة ينتحون جانباً يسجلون أسماء المتطوعين، ولكنَّ التحاقَّة بالجيش يترك والدته بدون خبز .

وتدخل المواطنة «أرملة جاميلان» في الرسم مسبوقة بصوت أنفاسها اللاهثة ، يسيل عرقها ، ومكفهرة الوجه ، والشارة الوطنية مُعلَّقة بإهمال في غطاء رأسها ، وعلى وشك السقوط .

وضعتُ سلتها جانباً على أحد المقاعد ، وظلت واقفة لتتنفس بطريقة أفضل ، وتثن من غلاء المعيشة ، بائعة سكاكين في شارع «جرينيل سان جيرمان» بعلامة مميزة على المحل «لا فيل دي شاتيلرو»^(١)، طالما عاش زوجها، والآن مدبرة منزل، المواطنة «جاميلان» تعيش منزوية عند ابنها الرسام . وهو أكبر من ابنها الآخر (أى : البكرى)، وبالنسبة إلى ابنتها «جولى»، فمُنذ عهد قريب كانت فتاة في محل بيع ملابس بشارع «هونورية»، ومن الأفضل عدم معرفة ما آلت إليه، لأنه لا يطيب القول بأنها رحلت مع أحد الأرستقراطيين .

يا إلهى !.. قالتها المواطنة وهى تتنهد ، وهى تُرى ابنها رغيف خبز، سَمِيكَ العجينة، وأسمر اللون، الخبز باهظ الثمن، وهيئات أن يُصنع من الجِنطة الخالصة. وليس في السوق لا بيض ، ولا خضروات، ولا جبن، ومن الإفراط في أكل القَسْطَل، سوف تتحول إلى قسطل^(٢).

(١) شاتيلرو مدينة فرنسية

(٢) القسطل شجر من الفصيلة البُلوطية له ثَمَرٌ كثير النُّشا ، يؤكل مشويًا ، ويُعرف في مصر «بابى مَزْوَة» .

وبعد فترة صمت طويلة استطردت تقول :

- رأيت في الطريق سيدات لا يجدن ما يسد رَمَق أطفالهن . البؤس عظيم بالنسبة إلى الناس المساكين . وستظل الحال على ما هي عليه إذا لم تنتظم الأمور .

قال «جاميلان» وهو يَقْطُبُ حَاجِبِيهِ: أُمِّي، إِنَّ المجاعة التي نعاني منها، ترجع أسبابها إلى تحكم المتحكرين والمضاربين بالأسهم المالية في أقوات الشعب لِجُيْعُوهُ، بالاتفاق مع الأعداء من الخارج، حتى يشوهوا صورة الجمهورية ويجعلوها مخيفة بالنسبة إلى المواطنين، ويدمروا الحرية .

هذا ما انتهت إليه مؤامرات البريسوتان^(١) وخيانات بيتيون^(٢) وعائلة رولاند^(٣) ونكون موفقين إذا لم يحضر الفيدراليون مُدْجَجِينَ بالسلاح إلى باريس ليزبحوا المواطنين الذين لم تقض عليهم المجاعة سريعاً ! يَجِبُ أَلَّا نضيع الوقت : يجب تحديد سعر الدقيق ، والإعدام بالمقصلة لكل من يحاول أن يُزايِدَ بأقوات الشعب ، ويُثيرَ الفتن ، أو يتواطأ مع الأجانب .

قامت الجمعية بإنشاء محكمة فوق العادة لمحاكمة المتآمرين، تتكون من المواطنين، ولكن هل أعضاؤها لديهم القوة الكافية للدفاع عن الوطن ضد هؤلاء الأعداء جميعهم ؟

(١) بريسو نائب في المجلس التشريعي وفي الجمعية.. عدو روبيسير .. تم اتهامه وإعدامه بالمقصلة في الثلاثين من أكتوبر ١٧٩٣ م .

(٢) جيروم بيتيون ، حطيط بليغ ، صديق روبيسير ، وعمدة باريس سنة ١٧٩١ ، ١٧٩٢ ، تم اتهامه بالفيدرالية ، وانتحر في يونيو ١٧٩٤ م .

(٣) مانون رولاند زوجة رولاند الشهيرة، تم إعدامها بتهمة الفيدرالية في الثامن من نوفمبر ١٧٩٣ وهي صاحبة العبارة الشهيرة « أيتها الحرية ، كم من جرائم تُرتكب باسمك »^١

فلنعتمد على «روبيسير»، فهو رجل فاضل.. ولنعتمد خاصة على «مارات»، فهذا الرجل يحب الشعب، ويدرك مصالحه الحقيقية ويقوم بها، وكان دائماً أَوَّلَ من يُمِيط اللثام عن الخَونة، ويحبط المؤامرات، وهو رجل نزيه، لا يرتشى، ولا يخاف أحداً، وهو الوحيد الذى يستطيع أن ينقذ الجمهورية المعرضة للخطر. هزت المواطنة «جاميلان» رأسها، وأسقطت شارة الوطنية المهمة، وقالت :

— دعك من هذا يَا «إيفاريست»! «مارات» هذا الذى تُعْجَب به رجل مثل بقية الرجال، وليس أفضل من الآخرين. إنك مازلت صغيراً، وما عندك إلا أوهام. إن ما تقوله اليوم عن «مارات»، سبق أن قلته عن «ميرابو»^(١)، وعن «لافاييت»، وعن «بيتيون»، وعن «بريسو».

صاح «جاميلان» قائلاً: بصراحة، نسى إلى الأبد!

وعندما سحب طرف المنضدة المصنوعة من الخشب الأبيض، المكس عليها الأوراق، والكتب، وفرش الرسم، وأقلام الرصاص، قامت المواطنة بِوَضْعِ إناءٍ مصنوع من الخزف وبه حساء، وحفنتين من القصدير، وشوكتين من الحديد، ورغيف الخبز الأسمر، وإناء به عصير عنب مخلوط بالماء.

الابن والأم يتناولان الحساء فى صمت، وانتهيا من عَشَائهما بقطعة من وَدَكِ الخنزير، وضعت الأم طعامها غير المتقن على خبزها لتضعه فى

(١) ميرابو. أعظم خطباء الثورة الفرنسية، ولد سنة ١٧٤٩ وتوفى سنة ١٧٩١، ويذكر أن جثمانه اختفى مِنْ مداخل العظماء بعد اكتشاف مراسلاته مع لويس السادس عشر.

وقار، على طرف مديتها، ثم إلى فمها الأذرد^(١) وتمضغها برصانة، احتراماً لهذا الطعام الذى يساوى الكثير، وكانت قد تركت لابنها فى صحنها أفضل ممّا أكلت، وهو لا يظل حالمًا ومشتتًا .

قالت له على فترات متساوية : كُلْ يا «إيفاريست» كُلْ . واتخذت هذه العبارة على شفتيها وقار حكمة دينية . وعادوت شكواها من غلاء المعيشة . ومرة أخرى طالب «جاميلان» بالضريبة ، كأنها العلاج الوحيد للألامه .

ولكنها قالت :

– لا توجد نقود ، والمهاجرون حملوا معهم كل شىء ، وانعدمت الثقة.. إنْ ذلك يدعو إلى اليأس !

صاح «جاميلان» فى والدته صارخًا : أُسْكِنِي ، يا أمى ، اسكِنِي ! مهما تكن حالة الحرمان التى نعيشها . والآمنا فهى لحظة قصيرة ! والثورة ستعمل من أجل إسعاد النوع البشرى قرونًا طويلة .

وغمست السيدة الطيبة خبزها فى النبيذ ، وصفت نفسها ، وفكرت – وهى تبتسم – فى أيام شبابها، عندما كانت ترقص على النجيلة فى الاحتفال بعيد الملك، وتذكر أيضًا يوم أن تقدم «جوزيف جاميلان» لخطبتها للزواج ، وسردت ما حدث بالتفصيل الدقيق . وقد قالت لها والدتها : «هيا ارتدى ملابسك، سوف نذهب إلى «لابلاس دى جريف»،

(١) الأذرد الأثرم، الخالى من الأسنان

إلى محل م. بياناسى الجواهرجى، ولنرى تنفيذ العقوبة في «دميان»^(١).

وقد وَاجَهَتُهُمَا صَعُوبَةً بِالْغَةِ لَيْسَلْكَ طَرِيقًا وَسَطَ الْجَمْعِ الْغَفِيرِ مِنْ الْفَضُولِيِّينَ.. وَفِي مَحَلِّ بِيَانَسَى وَجَدْتُ الْفَتَاةَ «جُوزَيْفَ جَامِيلَانَ» يَرْتَدِي مَلَابِسَهُ الْأَنْيَقَةَ الْوَرْدِيَّةَ، وَهِيَ قَدْ أَدْرَكَتْ فِي الْحَالِ مَاذَا كَانَ يَحْدُثُ. وَطَوَالَ الْوَقْتِ كَانَتْ تَلَاظِمُ النَّافِذَةَ لِتَرَى قَاتِلَ الْمَلِكِ وَهُوَ يُعَذَّبُ، وَيُرَّشُ بِالرَّصَاصِ الْمَنْصُورِ، وَتَسْحَبُهُ أَرْبَعَةُ جِيَادٍ لِيُلْقُوا بِهِ فِي النَّارِ.. كَانَ السَّيِّدُ «جُوزَيْفَ جَامِيلَانَ» وَاقِفًا خَلْفَ الْفَتَاةِ لَا يَنْقُطِعُ عَنْ مَجَامِلَتِهَا وَإِطْرَائِهَا، فَكَانَ يَمْدَحُ بَشَرَتَهَا، وَتَسْرِیْحَتَهَا، وَقَوَامَهَا .

أَفْرَغْتُ الْمَوَاطِنَةَ «جَامِيلَانَ» كُوبِهَا عَنْ آخِرِهِ، وَاسْتَمَرَّتْ فِي إِحْيَاءِ ذَكَرِيَّاتِ حَيَاتِهَا :

— ثُمَّ أَخْرَجْتُكَ إِلَى الدُّنْيَا يَا «إِفَارِيست» مُبَكِّرًا عَنِ الْمَوْعَدِ الَّذِي كُنْتُ أَنْتَظِرُهُ، بَعْدَ مَا تَعَرَّضْتُ لِلْفَزَعِ وَأَنَا حَامِلٌ، عِنْدَمَا صَدَمْتَنِي وَأَوْقَعْتَنِي مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْقَضُولِيِّينَ الْمَهْرُولِينَ لِيَشَاهِدُوا إِعْدَامَ السَّيِّدِ «لَالِي»^(٢)، كَانَ ذَلِكَ عَلَى «لُوبُونْت — نُوْف» .

وَعِنْدَمَا وُلِدْتُ، كُنْتُ صَغِيرًا جَدًّا، حَتَّى أَنْ الْجِرَاحَ كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّكَ لَنْ تَعِيشَ، وَلَكِنِّي كُنْتُ عَلَى يَقِينٍ بِأَنْ اللَّهُ سَيُوفِ يَنْعِمَ عَلَيَّ وَيَحْفَظْكَ لِي . وَتَوَلَّيْتُ تَرْبِيَّتَكَ بِكُلِّ كِيَانِي، لَا أُدْخِرُ وَسْعًا فِي الْعَنَاءَةِ بِكَ، وَلَا فِي الْإِنْفَاقِ

(١) دميان - مرتكب محاولة قتل لويس الخامس عشر في الخامس من يناير ١٧٥٧ تم إعدامه في الثامن والعشرين من مارس ١٧٥٧ بعد التعذيب .

(٢) لالي - توليانداي «ايرلندي مخيف» استمر في الصراع ضد الإمبراطور اضطر إلى الاستسلام إثنان حرب السبع (١٧٥٦ - ١٧٦٢)، وتم اعتقاله وإدانته، وأعدم في التاسع من مايو ١٧٦٦

عليك : أصدقك القول يا صغيرى «إيفاريست»، أنك تبرهن لى على عرفانك بالجميل، ومنذ الطفولة وأنت تحاول دائماً مكافأتى بطريقتك، كانت طبيعتك ودودة وحلوة. وأختك لم تكن قاسية القلب، ولكنها كانت أنانية وعنيفة، وأنت تشفق على البؤساء أكثر منها . عندما كان الأولاد السوقية ينزعون أعشاش الطيور من الأشجار، كنت تحاول أن تنتزعها من أيديهم لتأخذ أفراخ الطيور لتعيدها إلى أمهاتها، وما كنت تكفُّ عن ذلك إلا بعد أن يوجهون إليك إهانات ويضربونك بوحشية .

وفى سن السابعة، بدلاً من أن تتشاجر مع الأولاد المشردين فى الطريق، كنت تذهب فى هدوء إلى الشارع ، وتنشد الترانيم الدينية، وجميع المساكين الذين تقابلهم، كنت تصطحبهم إلى المنزل لتساعدهم، وكم كنت مضطرة لضربك حتى تقلع عن هذه العادة .

وكنْتُ إذا رأيت أى أحد يتألم، لا يسعك إلا أن تشاركه فى آلامه، وتذرف الدمع من أجله. وعندما اكتمل نموك، أصبحت وسيماً جميلاً . وما كان يدهشنى كثيراً أنه كان يبدو عليك أنك لا تعرف ذلك، وتختلف اختلافاً كبيراً فى هذا الصدد عن هؤلاء الصبيان الذين يشعرون بجمالهم ويتدللون بوجوههم التافهة

الأم العجوز كانت تقول الحقيقة، فعندما كان «إيفاريست» فى العشرين من عمره، كان له وجه وقور وجميل، جَمَالُهُ جمالٌ خشن، وأنشوى فى آنٍ واحد.. قسماته كقسمات الإلهة «مينرفا»^(١)، أما الآن، فنظراته القاتمة ووجهه الشاحب يدلان على حزن عميق وقاسٍ. ولكنه

(١) مينرما إلهة الدكاء والحكمة والعون كما جاء فى الأساطير

عندما يوجه نظراته نحو أمه تظل لمدة وجيزة تعبر عن عذوبة الشباب .

واستطردت حديثها قائلة :

– كان في استطاعتك أن تستغل مزاياك في معاكسة الفتيات، ولكنك كنت تفضل أن تبقى بالقرب منى، في «البوتيك»، وفي بعض الأحيان كنت أقول لك : هيا، لا تلتصق بى هكذا، اذهب لتتنشط قليلاً مع أصدقائك .

وسأظل يا «إيفاريست» – حتى وأنا على فراش الموت – أشهد لك بذلك، بأنك ابنٌ بارٌّ، وبعد أن تُوفى والدك تحملت عبئى وكفلتنى، بالرغم من أن حالتك لم تكن تسمح بذلك، وجعلتنى أشعر أنني لا ينقصنى أى شىء، وإذا كنا اليوم – نحن الاثنين – مُحْرُومَيْن وبائِسَيْن فلا ألومك أنت على ذلك، ولكن الخطأ يرجع إلى الثورة .

وبدرت منه حركة عتاب، ولكنها هزت كتفيها واستطردت :

– أنا لستُ أرسقراطية، ولكننى عرفتُ العظماء في أوج سُلطتهم، وأستطيع أن أقول إنهم أساءوا استخدام امتيازاتهم . لقد رأيتُ والدك وهو يُضْرَبُ بالعصا بأيدي خَدَم «الدوق دى كانالاي» لأنه لم يفسح الطريق بسرعة عندما مرَّ سيدهم . إننى أمقتُ النمساوية^(١)، كانت متعجرفة، وتنفق ببذخ، أما بالنسبة إلى الملك فاعتقدت أنه طيب، وكان لابد من اتهامه وإدانتته لأغْيَرُ فكرتى. وأخيراً، أنا غيرُ أسِفَةٍ على النظام القديم، نظرًا إلى أنى قضيتُ فيه بعض الأوقات المناسبة، ولكن لا تَقُلْ لى

(١) تعنى ملكة فرنسا «مارى أنطوانيت» .

إن الثورة ستحقق المساواة، لأن الناس لن يكونوا متساويين أبداً، لأن ذلك مستحيل، ولكن البلد ستنقلب رأساً على عقب : ستجد دائما الكبار والصغار ، والعجاف والسَّمان .

وكانت وهى تتحدث ترتب أدوات الطعام. الرسام لم يكن يُصغى إليها ، كان يبحث عن إحدى اللُّعب، «اللامتسول»^(١) بغطاء رأس أحمر، وترتدى «الكرمنيولا» والتي يجب أن تكون في لعب الورق، تحل محل الأعرج «البيستوني» المذموم .

طُرِق الباب، وظهرت فتاة ريفية بدينة أكثر منها طويلة، صهباء، عرجاء، وتختفى عيناها اليسرى خلف عدسة مكبرة، ولون عيناها اليمنى أزرق باهت، حتى يبدو كالأبيض، وشفاتها ضخمتان، وأسنانها بارزة على شفتيها .

سألت «جاميلان» عما إذا كان هو الرسام، وعما إذا كان يوسعه أن يرسم لها صورة خطيبها فيران (جول)، متطوع في جيش الأردنيين^(٢). فأجابها «جاميلان» أنه سوف يرسم هذه الصورة تطوعاً منه عندما يعود هذا المحارب الشجاع .

تحدثت الفتاة في هدوء تستوجب التعجيل بالصورة في الحال. ابتسم الرسام رغماً عنه ، واعترض بأنه لا يستطيع أن يفعل أى شىء بدون «الموديل».. المخلوقة المسكينة لم تنبت بِبَنْتِ شَفَةِ، لم تكن تتوقع هذا

(١) اللامتسول : في عهد الجمعية الوطنية، كان اسم يطلق على الثوريين الذين ينتمون إلى أغلب الطبقات الشعبية .

(٢) الاردنيين : من ولايات فرنسا .

العائق. انثنى رأسها على كتفها الأيسر، وعقدت يديها على بطنها، وظلت صامتة بلا حركة، وبدت كأنها مُفعمة بالحزن. تأثر الرسام بهذه البساطة، ولكي يلهم العاشقة المسكينة قَدَم لها صورة أحد المتطوعين من الذين رسمهم بألوان الماء، وسألها إن كان يشبه خطيبها المتطوع في الأردن.

نظرت إلى الصورة بعينها الكثيبة، التي امتلأت حيوية شيئاً فشيئاً، ثم لمعت وأشرقت، وازدهر وجهها العريض، وانفجر ثغرها عن ابتسامة مشعة.

وأخيراً قالت: إنه يشبهه تماماً، هذا هو فيران (جول) على الطبيعة.. إنه شديد الشبه به.

وقبل أن يفكر الرسام في استرداد الصورة منها، طوتها بعناية بأصابعها الحمراء الضخمة على هيئة مربع صغير ومررت به على قلبها، بين الصلابة والقميص، ودفعت للرسام حوالة بمبلغ خمسة جنيهات، وتمنت له أمسية سعيدة والصحة الطيبة، وانصرفت بخفة وهي تعرج.

وفي عصر نفس اليوم، توجه «إيفاريس» إلى المواطن «جان بليز» تاجر «الصُور»، والذي يبيع أيضاً العُلب وأشغال الكارتون وجميع أنواع اللُّعب، بشارع هونوريه، بالقرب من مكاتب السفريات، «الميساجيري»، في مواجهة الكنيسة الصغيرة «الأوراتور»، ومتجر «لاموربانتر» (مصور الغرام).

المتجر مفتوح في بدروم أحد المنازل القديمة الذي أُقيم منذ ستين عاماً،

بَعْدَ بَارِزٍ، وَعَلَى قَبْتِهِ عِنْدَ الْمَدْخَلِ قَنَاعٌ سَاخِرٌ مُقَرَّنٌ . وَتَشْغُلُ مَسَاحَةُ هَذَا الْعَقْدِ صُورَةُ زَيْتِيَّةٍ تُمَثِّلُ «الصَّقْلَى»، أَوْ «لَامُور بَانْتِر»، كَانَتْ مِنْ تَنْفِيذِ «بُوشِيه»، وَكَانَ وَالِدُ «جَان بَلِيْز» قَدْ وَضَعَهَا سَنَةَ ١٧٧٠، وَقَدْ أَثَرَتْ فِيهَا الشَّمْسُ وَالْأَمْطَارُ مِنْذُ ذَلِكَ الْوَقْتِ مِمَّا أَدَّى إِلَى مُحْوَاهَا .

وَعَلَى جَانِبِي الْبَابِ تَوْجِدُ فَتْحَةٍ مِشَابَهَةٍ، بِرَأْسِ حُورِيَّةٍ عِنْدَ مَدْخَلِ الْقُبَّةِ، مَزِينَةٌ بِالْأَوَاحِ زَجَاجٍ كَبِيرَةٍ تَقْدُمُ إِلَى الْمَشَاهِدِ صُورًا حَسَبِ الْمَوْضِعِ، وَأَخْرَ تَجْدِيدَاتٍ لِلْحَفْرِ بِالْأَلْوَانِ .

فِي هَذَا الْيَوْمِ ، كَانَ يَشَاهِدُ فِيهَا لُوحَاتٍ غَزَلِيَّةٍ اخْتَارَهَا «بُوَالِي»^(١) بِرَعَايَةِ فَاتِرَةٍ قَلِيلًا ، وَ «دُرُوس فِي الْحُبِّ الزَّوْجِي»، وَ «مَقَاوِمَاتُ حُلُوة»، تَكْثُرُ مِنْهَا الْيَعْقُوبِيُّونَ، وَالتِّي وَشَى بِهَا الْمُتَزِمَتُونَ إِلَى «مَجْتَمَعِ الْفَنُونِ»، «النَّزْهَةُ الشَّعْبِيَّة» لَدَى بُوكُور^(٢) مَعَ شَابٍ مَعْجَبٍ بِذَاتِهِ بِسُرُوَالٍ تَافَهُهَ مَنْشُورٌ عَلَى ثَلَاثَةِ مَقَاعِدَ، وَجِيَادُ كَارْلُ فِيرِنِي^(٣) الصَّغِيرُ .

مِنْ بَيْنِ الْمَوَاطِنِينَ الَّذِي كَانَ يَتَدَفَّقُ سَيْلُهُمْ أَمَامَ الْمَحَلِّ، كَانَ أَكْثَرُهُمْ ثِيَابُهُمْ رَثَّةً، وَكَانُوا يَتَوَقَّفُونَ أَمَامَ «الْفِيْتَرِيْنَتَيْنِ الْجَمِيلَتَيْنِ» مُتَعَجِّلِينَ لِلتَّسْلِيَةِ، مُتَلَهِّفِينَ إِلَى الصُّورِ، وَمُتَحَمِّسِينَ لِأَن يَأْخُذُوا نَصِيْبَهُمْ - حَتَّى وَلَوْ بَعِيُونَهُمْ - مِنْ ثُرَوَاتِ هَذَا الْعَالَمِ .. كَانُوا يَنْظُرُونَ بِإِعْجَابٍ فَاغْرَى

(١) مَصُورٌ فَرَنْسِي

(٢) دِي بُوكُور ، فِيلِيْبَر رَسَامٌ أَكَادِمِي ، تَلْمِيْذٌ «فِيُو» .

(٣) كَارْلُ فِيرِنِي : رَسَامٌ عَادَاتٌ بَارِيْسَ ، وَالْمَنَاظِرُ الطَّبِيعِيَّةُ الرُّومَانِيَّةُ ، وَمَوَائِيءُ فَرَنْسَا، وَوَالِدُ «هُورَاس» :

أفواههم، والأرستقراطيون يلقون نظرة ثم يقطبون حواجبهم،
وينصرفون .

وإلى مسافة بعيدة يستطيع أن يُرى «إيفاريست» يرفع عينيه نحو
إحدى النوافذ التي تطل على المحل، تلك التي على اليسار حيث يوجد
أصيصٌ من زهر القرنفل^(١) الأحمر، خلف شرفة ذات الحديد المزخرف ،
هذه النافذة تضيء غرفة «إيلودي» ابنة «جان بليز»، تاجر الصور يقطن
هو وابنته الوحيدة في الطابق الأول من المنزل وكان «إيفاريست» قد
توقف أمام محل «لامور بانتر»، وكأنه يلتقط أنفاسه، وأدار مقبض
الباب. وجد المواطنة «إيلودي» وقد باعت قطعتين محفورتين
«لفراجونار» الابن^(٢)، ونيجون^(٣)، اختارتهما بعناية من بين قطع كثيرة
أخرى . قبل أن تضع الحوالات التي تسلمتها في الخزانة تفحصتهم
الواحدة تلو الأخرى بعينيهما الجميلتين في ضوء النهار، لتتأكد من دمغة
الاسلاك المعدنية والعلامة المائية وآثار السلك النحاس، حيث إنه في ذلك
الوقت كانت تسرى موجة ترويج أوراق نقد مزيفة تُماثل الأوراق
الحقيقية، وذلك كان يدعو إلى القلق. ويضر بالتجارة، كما كان فيما مضى
هؤلاء الذين يقلدون توقيع الملك مزيفو النقد الوطني، كانت عقوبتهم
الموت. وكانت توجد لوحات الحوالات النقدية في جميع الكهوف، كان
السويسريون يُدخلون حوالات مزيفة بالملايين، وكانت تُلقى في الفنادق

(١) رسم القرة والحد الانثري

(٢) فراخومار الاس رسام بيو كلاسيكي، واسمه الاول إيفاريست

(٣) نيجون اديب فريسى

بالرزم، وكان الإنجليز يشحنون منها إلى شواطئنا يومياً «بالات» صغيرة، ليجعلوا الجمهورية تفقد سمعتها وتندعم فيها الثقة، ويدفعوا بالمواطنين إلى البؤس .

فكانت «إيلودي» تخشى أن تسلم أو تسلم أوراقاً نقدية مزيفة، كما كانت تخشى كذلك أن تُعامل كأنها متواطئة مع «بيت ويليام»^(١)، ومع ذلك، كانت في كل مرة تعتمد على حظها، وعلى ثقة أنها ستنجو بنفسها من هذا العمل في كل مواجهة .

شاهدها «إيفاريسست» بهذا المظهر الكئيب الذي كان أفضل فيه الابتسامات التي تعبر عن الحب. ونظرت إليه بامتعاضة ممتزجة بقليل من السخرية، ورفعت عيونها السوداء، وهذا التعبير صدر عنها لأنها تعرف أنها محبوبة، وذلك لا يُغضبها، وأن هذا الوجه يضايق أيَّ عاشق، ويحضه على الشكوى، ويحثه على أن يصرح بذلك إذا لم يكن قد حدث بعد، تلك هي حالة «إيفاريسست» .

وبعد أن وضعت الأوراق النقدية في الخزينة، أخرجت من سلة حاجاتها إيشارباً أبيض كانت قد بدأت في تطريزه، وشرعت في الشغل فيه. كانت مدللةً ومتكلفة بالفطرة، وتستعمل الإبرة لتتال الإعجاب، وفي نفس الوقت لتصنع لنفسها حلية، كانت تطرز بطريقة مختلفة، تبعاً

(١) بيت ويليام رئيس الوزراء الإنجليزي من ١٧٨٤ إلى ١٨٠١ بعد احتلال بلجيكا أصبح عدواً لفرنسا، وحارب الجمعية الوطنية وأطلقت عليه «عدو النوع الإنساني»، رمز للحزب المفسوخ الذي ساند «الذهب الإنجليزي» في حقيقة الأمر

لهؤلاء الذين كانوا ينظرون إليها : كانت تطرز بلا مبالاة من أجل هؤلاء الذين تريد أن تبين لهم كآبة حالة، وكانت تطرز لتبينَ لهؤلاء بأنها يائسة تتسلى قليلاً . وشرعت تطرز بعناية من أجل « إيفاريسست » الذى كانت تتعشم أن تجد فيه عاطفة حقيقية .

لم تكن « إيلودى » تتمتع بقدر كبير من الجمال، وكذلك لم تكن صغيرة فى السن، وقد تلاحظ من أول وهلة أنها دميمة، فهى سمراء، زيتونية البشرة، وتحت المنديل الأبيض الكبير المعقود فى إهمال حول رأسها تنفلت بعض خصلات شعرها اللازوردى اللون، وقد سودت جفون عينيها الناريتين .

وفى وجهها المستدير ذى الوجنتين البارزتين، الباسم، المفلطح، الريفى المظهر، والشهوانى، وجد فيه الرسام رأس إله الريف عند الرومان « بورغيز »، الذى يُعجبه - على أحد القوالب - قَرَاهُتُهُ المقدسة. ويبرز ملامح شفتيها الملتهبتين سَبَلَاتٍ من الشعر الخفيف النابت فوقها. وصدُرُها الذى يبدو كأنه منتفخ من التدليل يرفعُ الخمارَ المعقود حسب موضحة العام. لينة القامة، خفيفة حركة الساقين. تتحرك بكامل جسدها القوى فى سهولة بدائية ورقيقة .

نظرتها، ونَفْسُها، ورعشات جسدها، كل ما فيها ينادى القلب، ويعد بالحب وخلف مكتب صرافة التاجر، تعطى فكرة عن إحدى حوريات الرقص، أو كاهنة باكوس^(١) للأوبرا، متجردة من جلد القطة المتوحشة،

(١) باكوس إله الخمر

ومن صولجان باكوس، ومن أكاليله من اللبلاب، ومن كبتها، ومستترة بسهولة في غلاف متواضع لمديرة منزل للرسم «شادران».

قالت للرسم: أبى ليس هنا، انتظره لحظة، لن يتأخر طويلاً. كانت يداها الصغيرتان السمرراوان تحركان الإبرة خلال القماش الذى تطرزه.

— هل يعجبك هذا الرسم يا سيد «جاميلان» ؟

«جاميلان» لم تكن لديه القدرة على التظاهر، ولما كان الحب قد ألهب شجاعته فبالتالى حمس صراحته.

قال: أيتها المواطنة، إنكِ تطرزين بمهارة، ولكن إذا أردتِ أن أجيئك على ذلك، فإن الرسم الذى رَسَمْتِه ليس سهلاً، ولا مُجَرِّداً، ويعطى إحساساً بالذوق المتأثر الذى استمر زمناً طويلاً في فرنسا في فن زخرفة الأقمشة، والأثاث والتلبيسات، وهذه العقد، وهذه الشرائط المزخرفة تذكرنا بالأسلوب التافه المسكين الذى كان مفضلاً في عهد الطاغية. الذوق يُبعث. يا للأسف! لقد رجعنا إلى بعيد، إلى عهد الدنىء لويس الخامس عشر، كانت الزخرفة بها شىء غريب غير مفهوم (شينوا) (١).

كانت خزانات الملابس تُصنع بجوفٍ كبير، ومقابض ملتوية مظهرها يثير الضحك، لم تكن تصلح إلا لتُحرق ويستدفئ بها المواطنون. فلا يوجد أجمل من البساطة. يجب أن نعود إلى القديم. فهذا هو ذا «دافيد»

(١) أى: يبطوى على شىء من الزخرفة الصينية

يرسم أسِرَّةً ومقاعدَ بمسندين، بعد أن كان يرسم المزهريات الإترورية،
وصور مدينة هيرقلانوم (١).

- قالت إيلودي : لقد رأيتُ هذه المقاعد، إنها جميلة ! وقریباً لن تكون
هناك حاجة إليها ، فأنا مثلك ، مولعة بالقدم .

- أجاب «إيفاريست» : حسناً أيتها المواطنة ! إذا زَحَرَفْتِ هذا
«الإيشارب» بإحدى اليونانيات، أو أوراق اللبلاب، أو بالثعابين، أو
بالأسهم المتقاطعة، لكانت جديرة بإحدى الإسبرطيات... وبكِ أنتِ. عندئذ
سيكون في وسعك أن تحتفظي بهذا «النموذج» بعد تبسيطه وتوجيهه إلى
الطريق المستقيم .

سألته عَمَّا يجب أن تحذفه .

فأنحني على الإيشارب ، عندئذ لامست خدوده خصلات شعر
«إيلودي»، وتلاقت أيديهما على القماش، واختلطت أنفاسهما، وفي هذه
اللحظة، أحس «جاميلان» ببهجة لا حدود لها، ولكن ، عندما شعر بأن
شفتيه اقتربتا من شفتي «إيلودي» خَشِيَ أن يسيء إلى الفتاة، فارتدَّ عنها
في الحال .

كانت المواطنة «بليز» تحب «إيفاريست جاميلان»، فهي تأثرت بطلعته
البهية، وبعينيه الواسعتين الברاقنتين، وبوجهه البيضأوى الجميل
الشاحب، وشعره الأسود الغزير المنسدل على جبهته، والذي يتدلى

(١) إترويه وهيرقلانوم مدينتان قديمتان بإيطاليا

متموجًا على كتفيه، وبمظهره الوقور الفاتر، ومع أنه أنيس وبسيط فهو جاد الحديث، لا يُدهن أبدًا .

ولما كانت تُكنُّ له حُبًّا كبيرًا فهي ترى فيه عبقرية فنان، وسوف تتمخض يومًا عن عمل فنى، يجعل اسمه ذائع الصيت، وسوف يزداد حبها له. إن المواطنة زبلين» ليست لديها أى فكرة عن حياة الرجل. ولم ينجرح كبرياؤها إذا ما اتبع رجل أهواءه وميوله ورغباته. كانت تحب «إيفاريست» لحياثه، فهي لا تحبه لأنه كان خجولًا، ولكن لأنها وجدت فيه الميزة التى لا تَعَى غيرة ولا شكوكًا، ولا تخشى مطلقًا أية متنافسات . ومع ذلك فهي فى هذه اللحظة حكمت عليه بأنه شديد التحفظ إلى حدٍّ ما . وإذا كانت «أريسي»، (إحدى بطلات الكاتب راسين)، كانت تحب «هيبوليت»، مُعجبة بالفضيلة للبطل الشاب، ذلك كان بأمل أن تتغلب عليه، وأنها سرعان ما تأملت من قسوة التقاليد، والتى لم يتهاون فيها من أجلها. وبمجرد أن سنحت لها الفرصة، اعترفت اعترافًا شبه كامل، حتى تدفعه هو نفسه إلى الاعتراف.

اقتداء «بأريسي» الرقيقة لم تكن المواطنة «بليز» بعيدة عن اعتقاد بأن المرأة مُلزمة بأن تتخذ بعض المبادرات فى حالة الحب، فكانت تقول فى نفسها : «إن أكثر المحبين هم الأكثر حياء، يحتاجون دائمًا إلى المساعدة والتشجيع. تلك هى - باختصار - طهارتهم، وأن المرأة تستطيع أن تقطع نصف الطريق - دون أن يرونها ، وأن تدبر لهم مظاهر هجوم بمهارة، وتُهيئ لهم مجد الغزو». وما كان يُسَكِّن روعها فى نهاية الامر أنها تات.

على يقين (وأيضاً لم يكن هناك أى شك في هذا الموضوع) أن «إيفاريست» - قبل أن تجعل الثورة منه، بطلاً - كان يُحب امرأ بكل إخلاص، مخلوقة - متواضعة، أَحَبَّ بوابة الأكاديمية «إيلودي»، التى لم تكن ساذجة قط، فقد أدركت أنواعاً مختلفة من الحب. أما «إيفاريست»، فقد ألهمها بشعور عميق جداً، حتى أنها فكرت في أن تهيه حياتها. نعم، كانت على أتم استعداد لأن تتزوجه، ولكنها كانت تتوقع أن والدها لا يوافق على زواج ابنته الوحيدة من فنان مغمور وفقير .

إن «جاميلان» كان على فيض الكريم، لا يمتلك شيئاً، وتاجر الصور المطبوعة كان يحقق أرباحاً هائلة. وكان متجره «لامور بانتر» يُدْرُ عليه الكثير، وكذلك فوارق سعر العملة، وكان مشتركاً مع أحد الممولين الذى كان يسلم إلى سلاح الفرسان في الجمهورية أحزمة من «الأسل»، وكذلك يسلم «الشوفان»^(١) المطحون .

وأخيراً، ابن سكاكيني شارع سان دومنيك - أى جاميلان - كان شخصاً رقيق الحال، بالنسبة إلى ناشر الصُور المعروف في جميع أنحاء أوروبا، ويمت بصلة إلى كل من عائلة «بليزُو»، وعائلة «بازان»، وعائلة «ديدو»، وكان يتردد على المواطنين «سان - بيير» وفلوريان^(٢).

لم تكن «إيلودي» إلا ابنة مطبعة، تريد أن تحصل على موافقة والدها كضرورة لاستقرارها . تَرَمَّل الأب في وقت مبكر، وكان ذا مزاج طموح

(١) الأسل والشوفان نوعان من النباتات

(٢) فلوريان قصاص فرنسى .

وطائش، وزيرَ نساءٍ، وصاحبَ أعمالٍ كثيرة، لم يهتم بها يوماً ما، كبرت وترعرعت دون أى عناية أو رقابة منه، بدون نصائحه، أو صداقته، لم يكن مهتماً برعايتها، بل كان يجهل سلوكها، سلوك فتاة كان يُقدِّره بوصفه خبيراً أو عارفاً بالمزاج الحاد ووسائل الإغراء التى تعتبر بوجه آخر أقوى من أى وجه جميل. فلديها الشجاعة بحيث تصون نفسها، ومن الذكاء بحيث لا تضل، عاقلة فى تصرفاتها مهما كانت، فنزعة الحب لم تُنسِّها قط تقاليد المجتمع، وكان والدها مُمتناً لها غاية الامتنان لما تتمتع به من حذر، ولما كانت تراث عنه حاسة التجارة والميل إلى العمليات التجارية فهو لم يساوره أى قلق بصدد الأسباب التى تُثنى فتاة صالحة للزواج، واحتفظ بها فى المنزل، حيث إنها تُعادل أربعة موظفين تجاريين، وحاكمة.

كانت فى السابعة والعشرين من عمرها، فهى تشعر بأنها فى سن الخبرة، لتهتم بتنظيم حياتها بنفسها، ولا تحتاج إلى أية نصائح أو إرشادات، أو لتخضع لإرادة أب لا يزال محتفظاً بشبابه، فهو متهاون وطائش. ولكن لكى تتزوج من «جاميلان» كان ينبغى على السيد «بليز» أن يعلن عن هذا الصهر الفقير، وأن يعمل على توفير وتأمين السكن والعمل له بطريقة أو بأخرى، وأن يوجد له مصادر، كما فعل مع العديد من الفنانين، وهى ترى أن ذلك مستحيل، فلا بد أن يعرضه أحد ليقبله الآخر، طالما أنه يوجد بين الرجلين نوع من المودة.

هذه العراقيل تضايق «إيلودى» العاقلة الرقيقة. لقد وابتها فكرة

الاقتران بصديقها في السرّ وبدون أى خوف، وتُشهدُ الخالق على ثقتهم المتبادلة. إن فلسفتها لا تجد في مثل هذا الزواج ما يدينها، حيث إن حالة الاستقلال التي تعيشها جعلت ذلك في وسعها، بالإضافة إلى أن «إيفاريست» يتمتع بطابع الفضيلة والشرف، مما أضفى على هذه الفكرة قوة مُطمئنة، ولكن «جاميلان» يجد معاناة كبيرة في بقاء مساندته لأُمّه العجوز لكي تعيش ولا يبدو أن هناك وجود مكان - ولو في حدود ضيقة - لحب يرجع إلى بساطة الطبيعة. وبالإضافة إلى ذلك فإن «إيفاريست» - يعلن بعد عن عواطفه، ولم يُقدّر أهدافه بعد. والمواطنة «بليز» كانت تتعشم أن تدفعه إلى ذلك .

توقفت فجأة عن تأملاتها، وعن إبرتها، وقالت مخاطبة «إيفاريست» - أيها المواطن «إيفاريست»، هذا الإشارب لا يعجبني طالما أنه لا يعجبك أنت. أرجوك، ارسم لى «نموذجاً» وسوف أفعل مثلما فعلتُ «بينيلوب»^(١)، سأفك الشغل الذي تم أثناء فترة غيابك .

أجاب بحماس مبهم

- أيتها المواطنة ، أتعهد بذلك، سوف أرسم لك سيف «هارموديوس» سيف في إكليل من الزهور. ثم أخرج قلمه الرصاص ورسّم سيوفاً وزهوراً بهذا الأسلوب الفريد والعادى الذى يحبه، وفي نفس الوقت يعرض مذهبه ويقول .

(١) بينيلوب في الميثولوجيا الإغريقية، زوجة «أوليس» النطل الأسطورى، وأم «نيليماك» رمز الوفاء الزوجى

- ينبغي على الفرنسيين المتجددين أن يلفظوا كل ميراث العبودية : كل ما هو ردىء ذوقًا ، وشكلًا ، ورسمًا .. إنَّ « فاتو » ، و « بوشيه » ، و«فراجونارد» ، كانوا يعملون من أجل طغاة وعبيد. ولا نجد في أعمالهم الفنية أى إحساس بالأسلوب الجيد، ولا بالخطوط السليمة، ولا حَظَّ عندهم للطبيعة أو الحقيقة. بل نجد أقنعة، ودُمى، وأشياء صغيرة، ومحاكاة خرقاء. الأجيال القادمة سوف تزدري أعمالهم العابثة. وفي غضون مائة عام جميع لوحات «فاتو» سوف تُحطَّم وتُحتَقَر في كل مكان، وفي سنة ١٨٩٣ سوف يقوم الطلبة الذين يدرسون التصوير بتغطية لوحات «بوشيه» برسوماتهم .

وقد فتح «دافيد»^(١) الباب وتقرَّب إلى القديم، ولكن لم يكن بعد أكثر سهولة أو عظمة، أو أكثر تجريدًا. ولا تزال هناك أسرار على فنانينا أن يتعلموها عن إفريزات مدينة هيرقيلانوم^(٢) والنحوتات الرومانية البارزة، والأواني الأترورية.

ثم تحدث طويلًا عن جمال الزمن القديم، ثم عاد إلى «فراجونارد» ثانية، وتحدَّث عنه بحقدٍ لا تنطفئ جذوته قائلًا :

- هل تعرفينه أيتها المواطنة ؟

(١) دافيد ، جاك لويس رسام متائق، حصل على جائزة روما - أكاديمية الفنون الجميلة باعتباره من المحصلين لرويسبير، قضى مدة في السجن، بعد الثيرميدور التاسع، وفيما بعد رسام «بونابرت» والإمبراطورية

(٢) مدينة هيرقيلانوم مدينة قديمة في إيطاليا، دُفنت تحت رماد بركان فيزوف عام ٧٩ وفي عام ١٧٠٩ تم اكتشاف الموقع، وفي عام ١٩٢٧ بدأت دراستها علميًا .

أشارت « إيلودى » بالإيجاب ..

- هل تعرفين كذلك الرجل الطيب «جروز»، الذى يرتدى ملابس أرجوانية اللون ويتمنطق بسيف؟ بكل تأكيد شكله يثير الضحك، ولكن له مظهر أحد حكماء اليونان، بالقرب من «فراجونارد». لقد قابلته منذ زمن قصير، هذا العجوز البائس كان يجرى كأنه يتدحرج فى أروقة لويلاليه - إيجاليتيه (قصر المساواة)، مُعَفَّرًا، رقيقَ الحاشية، مختلجًا، شديدَ المرح، قبيحًا، ولهذا المنظر تمنيت لو لم تكن «أبولو»^(١) موجودة، وأن يقوم أحد أصدقاء الفنون - ويكون قاسيًا - بشنقه على شجرة، وأن يسلخه مثل «مارسياس»، ليكون عبرةً أزلية للرسمين السيئين .

تَبَيَّنَتْ « إيلودى » عليه نظراتها المبتهجة ، الشهوانية قائلة :

- هل تعرف الكراهية يا سيد «جاميلان» ؟ وهل المفروض أن أُصدق أنك تعرف أيضًا ... فقاطعهما صوتٌ :

- أهذا أنت يا «جاميلان» ؟ .. هكذا صاح المواطن «بليز» بصوتٍ رنانٍ ودخل فى خَانه يدق الأرض بحذائه، وبرنين الحلية التى يعلقها على صدره بسلسلة، وتتطاير أذيال سترته، مرتديًا على رأسه قُبعة ضخمة، سوداء اللون، تتدلى قرونها على كتفيه.

وتحمل « إيلودى » سلتها وتصعد إلى غرفتها .

ويسأل المواطنُ «بليزُ» :

(١) من آلهة اليونان .

- حسنًا « جاميلان »! هل أحضرت لى أى شىء جديد ؟

- ربما (قالها الرسام) .

وعرض فكرته قائلاً :

- إن أوراق اللعب الخاصة بنا تمثل تناقضًا مُكدرًا مع التقاليد، أسماء الخادم والمك فيها إهانة لأذن المواطن، لذلك أدركتُ ونفذتُ لعبة ورق ثورية جديدة، ووفقًا لهذه اللعبة نستبدل الملوك والدامات (السيدات)، والخدم، بالحریات، والمساواة، والإخاء، والآسات^(١)، محاطة بزَم، تسمى القوانين ... فتعلنوا حرية السَّبَاتى، ومساواة البِسْتُونى، وأخاء الكاريهات، شروط اللون وأعتقد أن هذا الورق رُسم بكل فخر، وعزمت على أن أطلب من « ديماهيس » أن يحفره بمقاس مناسب، وأن يحصل على إجازة. وأخرج من حقييته بعض الصور المرسومة بألوان الماء، وعرضها الفنان على تاجر «الرشم»^(٢) .

رفضها المواطن «بليز» وأشاح بوجهه ، وقال لإيفاريست :

- يا صغيرى ، اذهب بورقك هذا إلى الجمعية الوطنية، وهى سوف تمنحك شرف الجلسة، ولكن لا تتعشم فى أن تحصل على ملیم واحد عن اختراعك هذا الذى لم يكن جديدًا . لقد استيقظت متأخرًا جدًا ، فأنت ثالث مَنْ أحضر لى هذه اللعبة . صديقك «ديجور» فى الأسبوع الماضى قدَّم لى

(١) الآسات : من ورق اللعب

(٢) الرشم . الصور المطبوعة .

لعبة ورق «بيكية» بأربعة من الجن، وأربعة حُرَّيات، وأربعة مُساويات. وعُرضت على لعبة أخرى، حيث كان يوجد حكماء وشجعان، مثل كاتون، وروسو، وهانيبال، وغيرهم أيضاً....

وهذه الأوراق يا صديقي لها الأفضلية على أوراقك، لأنها رُسمت بوضوح، وحُفرت على خشب بالمحفار. كما أن معرفتك بالناس محدودة، إذ تعتقد أن لاعبي الورق سيستعملون ورقاً مرسوماً وفقاً لذوق «دافيد»، ومحفوراً وفقاً لطريقة «بارتولوتزي»^(١)، ومن الوهم الغريب أيضاً تصديق أنه يجب توفيق الكثير من الطرق لتطابق الألعاب القديمة بالأفكار الحالية. نجد قدامى الجنود الطيبين يُصححون اللاوطنية بإشارتهم إلى «الطاغية!» أو ببساطة : إلى «الخنزير الضخم»، وهم يستخدمون ورقهم القديم ولم يشترُوا قط بدلاً منه. إن أكبر استهلاك للعب كان يحدث في دار قمار قصر - المساواة (باليه - إيجاليتيه)، أنصحك بأن تذهب إليه، وأن تقدم حُرَّياتك هذه ومساواتك، إلى مديري القمار والمقامرين ، و....، ماذا قلت؟ و.... وشروطك... للألوان.... ثم تعود إلى وتخبرني كيف استقبلوك !

كان المواطن «بليز» جالساً على مكتبه ينقض عن سرواله ذرات التبغ بنقرات من أصابعه، وينظر إلى «جاميلان» بشفقة ويقول :

- واسمح لي أن أنصحك أيها المواطن الرسّام : إذا كنت تريد أن تكسب عيشك اترك هنا ورقك الوطني، اترك هنا رمزياتك الثورية،

(١) نحات إيطالي

والهرقليات، والهيدرات، وجنّياتك الباحثة عن الجريمة، وجنّياتك، جنّيات الحرية، والأفضل أن ترسم لى صور فتيات جميلات حميّة المواطنين فى أن يتجددوا بالدفء مع الزمن، وسيظل الرجال يحبون النساء. ارسـم لى نساء حسانا فى عمر الورد، أقدامهن وأيديهن دقيقة، وَضَعُ دائما نُصب عينيك أنه لن يوجد أى فرد سيولى الثورة أى اهتمام، ولن يتطرق أحد فى الحديث عنها .

وفجأة، استشاط « إيفاريست جاميلان » غضباً وقال

– ماذا ؟! لن يتكلم أحد عن الثورة، ولكن تأسيس الحرية، وانتصارات جيوشنا، ومعاقبة الطغاة.. كل ذلك أحداث سوف تبهر الأجيال القادمة ! كيف لا يمكن أن يشيد بها أحد ؟!....

ماذا ! طائفة الثورى اللامتسـرول « عيسى » دامت ثمانية عشر قرنا تقريبا، وإجلال الحرية سوف يُلغى بعد أربعة سنوات بالكاد من الوجود!

ولكن جان بليز يبدو بمظهر المتسامى

– أنت تعيش فى الخيال ، أمّا أنا فأعيش فى الواقع صدقنى يا صديفى، إنَّ الثورة همّ ، فهى تستمر أكثر من اللازم، خمس سنوات من الحماس ، وخمس سنوات من الأحضان ، ومذابح ، وخُطب ، وسلام وطنى، ونواقيس الخطر ، وأرستقراطيون على حبل الممشقة، ورعوس محمولة على الأسنّة، ونساء راكبات على مدافع، وأشجار الحرية تضع غطاء رأس أحمر، وفتيات وعجائز تجرهن عربات الزهور بأنوابهن البيضا،،

وسجون، ومَقْصَلَة، وإعلانات، وشارات وطنية، وقبعات مزينة بالريش، وسيوف، وسُترات قصيرة، كل ذلك لا آخر له ! ثم تكون البداية لعدم فهم أى شىء فى ذلك . نحن قرييون جدًّا منهم، مِنْ هؤلاء المواطنين الكبار الذين لا يُساقون إلى «الكابيتول» إلا لِيُرْحَلُوا إلى «لاروش تاربيين» (مكان فى أقصى جنوب غرب الكابيتول حيث يُرْحَلُ إليه جميعُ المحكوم عليهم بالإعدام)، مثل نيكير^(١)، وميرابو، ولافاييت، وبايى^(٢)، وبيتيون، ومانويل^(٣)، وآخرين كثيرين. وَمَنْ يعلم أنك لا تخصص نفس المصير لأبطالك الجدد؟..... لا ندرى .

– قال جاميلان : أَذْكُرُ لى أسماءهم، أيها الوطنى «بليز»، أَذْكُرُ هؤلاء الأبطال الذين تستعد للتضحية بهم ! قال ذلك بلهجة جعلت تاجر الرشم يتذكر أن يكون حذرًا .

أجاب «بليز» واضعًا يده على قلبه :

أنا جمهورى مثلك، ووطنى مثلك أيها المواطن «إيفاريست جاميلان»، وأنا لا أشك فى وطنيتك، ولا أتهمك مطلقًا بالتقلب. ولكن أعلم أن وطنيتى

(١) نيكير، جاك : من رجال البنوك من جنيف . فى ١٧٧٧ استدعاه لويس السادس عشر إلى الإدارة المالية. وفى ١٧٨٨ يقنع الملك بدموية المجالس العامة لإعادة الثقة. ومن هنا كان عزله فى الحادى عشر من يوليو ١٧٨٩، والذي كان سببًا مباشرًا فى ثورة الرابع عشر . تم استدعاؤه ثانيًا، ولم يستطع أن يقيم الأحداث، فاستقال فى سبتمبر ١٧٩٠. أصبحت ابنته مدام دى ستيل .

(٢) بايى، جان . فلنكى شهير، عميد الطبقة الشعبية فى المجالس العامة، وأول رئيس للجمعية التأسيسية، وأول عمدة لباريس فى ١٧٨٩. أعلن الأحكام العرفية التى تتبع إطلاق النار فى السابع عشر من يوليو ١٧٩١ . تم إعدامه فى نوفمبر ١٧٩٢

(٣) مانويل، لويس بيير . نائب البلدية، لعب دورًا مهمًا فى العاشر من أغسطس ١٧٩٢ . وكان يعادى حكم الإعدام، ولم يَصُوتْ على حكم إعدام الملك اتهموه بالخيانة، تم إعدامه بالمقصلة فى نوفمبر

١٧٩٢

وإخلاصى للقضية العامة، تشهد عليهما أعمالٌ عديدة. ها هي ذى مبادئى : أُمْنَحُ ثقتى لكل فرد قادر على أن يخدم الأُمَّة. وَأُنْحِزى أمام الرجال الذين يشير صوتهم إلى الشرف المحفوف بالمخاطر للسلطة التشريعية، مثل «مارات»، ومثل «روبيسير»، وأنا على استعداد أن أقدم لهم العون فى حدود إمكانياتى المتواضعة، وأن أحمل إليهم المؤازرة المتواضعة من مواطن صالح.. وفى وسع اللجان أن تشهد على حماسى وعلى إخلاصى. ومن الناحية الاجتماعية كنتُ عضوًا مع مواطنين حقيقيين، زودتُ فرساننا البواسل بالشعير والعَلَف، وجهزتُ جنودنا بالأحذية، وحتى فى هذا اليوم أَوْصَيْتُ بإرسال ستين عجلًا من «فيرنون»^(١) إلى جيش الجنوب، من خلال بلد أغارت عليه اللصوص، وهزمه رسل «بيت» و «كونديه»^(٢) أنا لا أتكلم، بل أفعل .

وفى هدوء أعاد «جاميلان» لوحاته المائتة إلى كارتونته وعقد ربطتها، وحملها تحت إبطه، وقال وهو يصرُّ على أسنانه :

— يا لها من مفارقات ! أن نساعد جنودنا على أن يحملوا — فى أنحاء العالم — هذه الحرية التى يخونونها فى أوطانها، بأن يبدروا بذور القلاقل والقلق فى نفوس المدافعين عنها... سلامًا أيها الوطنى « بليز ».

وقبل أن يدلف إلى الحارة التى تحاذى «الأورتوار» (أى: الكنيسة

(١) فيرنون . مدينة فرنسية

(٢) كوندية . مهاجر من ١٧٨٩ ، نظم جيشًا من الفرنسيين استخدمه المتحالفون استخدامًا سيئًا لم ينتشر إلا فى عام ١٨٠١ بمعاهدة السلام فى أميانس

الصغيرة) كان «جاميلان» قلبه مفعما بالحب وبالغضب، التفت ليلقى نظرة على زهرات القرنفل الحمراء المزدهرة على حافة إحدى النواخذ .

«جاميلان» لا ييأس مطلقا من سلامة الوطن . وفي مقابل الكلمات غير الوطنية التي تفوّه بها «جان بليز» قاوم عقبدته الثورية. وكان لابد له أيضًا أن يعترف بأن هذا التاجر لم يكن يزعم - بدون مظهر من مظاهر العقل - أنه من الآن قصادًا لن يهتم شعب باريس بالأحداث.. والاسفاه! كان من المؤكد جدًا أنه بعد الحماس الذي كان يسود الساعات الأولى جاءت اللامبالاة العامة، ولن نرى الجموع الغفيرة المجتمعة على أمر واحد في سنة ١٧٨٩، وأننا لن نرى كذلك ملايين الأنفس المنسجمة التي كانت تتسابق في سنة ١٧٩ حول كنيسة الفيدراليين .

آه ! المواطنون الصالحون يخضاعفون حماس ومهارة الشعب، ويوقظونه من سباته، ويخيرونه بين الحرية أو الموت. هكذا كان «جاميلان» يفكر، وكان فكر «إيلودي» يساند شجاعته . وعندما وصل «جاميلان» إلى الطريق العمومي رأى الشمس تغرب في الأفق تحت سحب ثقيلة، تشبه جبالات جبال من الجِعم المتوهجة، وكانت أسقف المدينة تسبح في ضوء ذهبي، وزجاج النوافذ يقذف سهامًا مضيئة .

وكان «جاميلان» يتخيل أنّ جبابرة يقيمون مع الأطلال المتقدمة للأزمنة الغابرة مدينة «ديسية» النحاسية. ولما لم يكن عنده كسرة خبز من أجل أمه ولا من أجله هو نفسه ، كان يحلم بأن يجلس إلى مائدة لا نهاية لها. والتي كان سيُدعى إليها الكونُ بأسره، وحيث الإنسانية التي

بُعِثَتْ ستجد لها مكانًا بالانتظار. كان يُقنع نفسه بأن الوطن بمثابة أمٍ صالحة ستغذي طفلها الأمين .

«جاميلان» كان يبدو متماسكًا في مواجهة استخفافات تاجر «الرشم»، لكنه احتدم على اعتبار أن فكرته عن أوراق اللعب الثورية كانت جديدة وجيدة، وأنه برسوماته بالألوان المائية الناجحة بحق سوف يضع يده على ثروة .

«ديماهيس سوف يحفرها، كان يعتقد ذلك . سوف ننشر نحن بأنفسنا اللعبة الوطنية الجديدة ، ونحن على يقين أننا سوف نبيع منها عشرة آلاف ، كل لعبة بعشرين سول ، في شهر واحد .»

وفي غمرة يأسه من تحقيق هذا المشروع حَثَّ خطاه وتوجه إلى ساحة لافيراي، حيث يقيم «ديماهيس»، فوق أحد بائعي الزجاج، وعندما دخل «البوتيك» أخبرته البائعة أن المواطن «ديماهيس» ليس موجودًا. لم يندهش الرسام، لأنه يعرف أن صديقه مُشَتَّتٌ وتائه المزاج، والذي كان يندهش من أننا نستطيع أن نحفر مثله أو أفضل ما يفعله هو مع قليل من المهارة والمثابرة .

قرر «جاميلان» أن ينتظره، فقدمت له زوجة بائع الزجاج مقعدًا . كانت نكدة المزاج ، وتشكو من سوء الحال ، وإن قيل : إن الثورة بتحطيمها للنواقد قد أثَّرتْ بائعي الزجاج .

أسدل الليل ستائره، ويَعْدِلُ «جاميلان» عن مواصلة انتظار صديقه، فاستأذن من زوجته في الانصراف . وحينما كان يعبر «البونت - نوف»

رأى أفراداً من الحرس الوطني يظهرون من شارع مورفوندى على صهوات جيادهم يدفعون المارة، وكانوا يحملون المشاعل، مع صوت صلبة السيوف ، يحرسون عربة تَسَحَّبُ ببطء إلى المقصلة رجلاً لا يعرف اسمه أحدٌ من قبل، وهو أول مَنْ حكمت عليهم محكمة الثورة (١) الجديدة . كان يظهر من خلف قبعات الحرس جالساً، وكانت يداه مقيدتين خلف ظهره، ورأسه عارياً، مُترَجِّح الهامة، مُحَوَّلاً إلى مؤخرة العربة . والجلاد يقف إلى جانبه متكئاً على حافة العربة .

المارة متوقفون، يتبادلون الحديث فيما بينهم عن هذا الشخص، ويقولون إنه ربما يكون أحد مُجَوِّعى الشعب ، وينظرون بلا مبالاة .

وعندما اقترب «جاميلان» تعرف على «ديماهيس» من بين المتفرجين، يجتهد في اختراق الجَمْع الغفير والوصول للموكن، فناده، ووضع يده على كتفه.. التفت إليه «ديماهيس». كان شاباً جميلاً وقوياً. كان يُقال عنه دائماً في الأكاديمية : إن له رأساً كرأس «باكوس»، وجسداً كجسد «هرقل»، وأصدقائه يسمونه «باربارو» (٢) بسبب التشابه بينه وبين ممثل هذا الشعب .

(١) محكمة الثورة أسستها الجمعية الوطنية في العاشر من مارس سنة ١٧٩٢. مقرها محكمة العدل ، وتضم أربع قضاة، واثني عشر محلفاً، يتقاصون ١٨ فرنكاً يومياً تصدر أحكاماً بدور استئناف، وتنفيذية مباشرة. صدر أول حكم بالإعدام في السادس من أبريل ١٧٩٢ ، علاوة على خمسة آلاف حكم، نصفهم كان أحكاماً بالإعدام تم إلغاء نشاطها في الحادي والثلاثين من مايو ١٧٩٥ .

(٢) باربارو مجام من مرسيليا ، كان يقود كتيبة من مواطنيه في العاشر من أغسطس سنة ١٧٩٢ . مخلص للسيدة رولان . هرب إلى نورمانديا وتعرف على شارلوت كورادى . أُسِر في بوردو . حاول الانتحار . أُعِدَّ بالمقصلة في الخامس والعشرين من يونيو ١٧٩٤

- قال له « جاميلان » هَلُمَّ ، أريد أن أتحدث معك في أمر مهم .

- أجاب « ديماهيس » بحدّة : دَعْنِي !

وتلفظ بعدّة كلمات غير مفهومة، منتظرًا اللحظة التي ينطلق فيها :

- كنت أتعبّ سيدة جميلة بقبعة من القش، صانعة قبعات، وشعرها

الأشقر يتدلى على ظهرها.. هذه العربة الملعونة قد حالت بيني وبينها ...

لقد مرت في المقدمة، وهي الآن في نهاية الكوبرى !

حاول « جاميلان » أن يمسك به من ملابسه ، ويقسم له أن الأمر في

غاية الأهمية ، ولكن « ديماهيس » كان قد تسرب بين الخيول والحرس

والسيوف والمشاعل، وظل يطارد الفتاة صانعة القبعات .



2

كانت الساعة العاشرة صباحًا، وكانت شمس شهر أبريل
تُنْعَشُ بضوئها أوراقَ الأشجار الرقيقة. وكان النسيم
عليلاً بعد أن خَفَّتْ عاصفة المساء. وعلى فترات متقطعة كان
يمر أحد الفرسان، على «لاليه دى فوف» (ممر الأرامل)، يكسر هدوء
وصمت الوحدة. وعلى حافة الممر الوارف الظلال عند كوخ «لابيل
ليلوان»، وعلى مقعد من الخشب، كان «إيفاريست» ينتظر «إيلودى»..
ومنذ أن التقت أصابعهما على قماش الإيشارب حيث اختلطت أنفاسهما،
لم يأتِ إلى متجر «لامور بانتر» (مصور الغرام) طوال مدة أسبوع،
كهرباؤه ورباطة جأشه، وحيأؤه الذى يجعله دائماً أكثر رصانة، قد
أبعدوه عن «إيلودى». وكان قد كتب إليها رسالة هامة ومبهمة وحادة،
يعرض فيها شكواه وهمومه التى حَمَلَهَا له المواطن «بليز»، وأخرس
حبه، وأخفى آلامه، وأعلن قراره بعدم العودة إلى المحل، وأوضح بأنه
سيتبع هذا القرار بإصرار شديد، لا تستطيع محبوبته أن تؤيده فى
ذلك.

وبفطرة عكسية كانت «إيلودى» مجبولة على أن تدافع عن مالها فى أى

مناسبة، فكرت في الحال أن تستعيد صديقها. بداية ذى بدء، فكرت في أن تذهب إليه في مرسوم ميدان «ثيونفيل»، ولكنها عرفت أن مزاجه متكرر، وحكمت عليه من خلال رسالته بأنه متفجر نفسيًا، وخوفًا من أن يضع الابنة والأب في غلاف واحد من الضغينة، وألا يجتهد في رؤيتها ثانية فكرت في شيء أفضل، وهو أن تُحدد له موعدًا لقاءً عاطفيًا ورومانسيًا، لا يسعه أن يرفضه أو يتملص منه، حيث سيكون لديها الوقت الكافي لكي تُقنع وتنال الإعجاب، وحيث الوحدة ستتواطأ معها لتفتنه وتتغلب عليه.

كان يوجد في ذلك الوقت في جميع الحداثق الإنجليزية، وفي جميع المتنزهات العصرية أكواخٌ بناها معماريون علماء، والتي تجتذب الميول الريفية للحضرين.

وكان كوخ «لابيل ليلواز» (ليلواز الجميلة) يشغله أحد بائعي صير الليمون يسند فقره المصطنع على أطلال مقلدة بفن لأحد البروج القديمة، حتى يجمع بين سحر القرى وكآبة الأطلال.. ولما لم يكتف بالتأثير على ذوى النفوس الحساسة بكوخ وبرج مهدم، أقام بائع الليمونادة مقبرة تحت شجرة صفصاف، وعمودًا في أعلاه جرّة جنازية (مرمدة) وعليها هذا النقش: «من قليونيس إلى المخلص أزور».. أكواخ، وأطلال، ومقابر وفي اليوم السابق لهلاكها أقامت الأرستقراطية في الحداثق المورثة، هذه الرموز التي تعبر عن الفقر، والإلغاء، والموت.

والآن يميل الحضرىون الوطنىون إلى الشرب، والرقص، فى أكواخ صناعية. وفى ظلال أطلال أروقة مزيفة، وبين مقابر مزيفة، لأن بعضهم

كان مثل البعض الآخر ، عاشقاً للطبيعة، وكتلاميذ جان جاك . وكذلك كانت لهم قلوب حساسة ومملوءة بالفلسفة .

وصل «إيفاريست» إلى مكان اللقاء قبل الساعة المحددة، وجلس ينتظر^١، وكان مثل بندول الساعة، يحسب الوقت بخفقات قلبه .

ومرت دورية تقود بعض المساجين، وبعد عشر دقائق ، وصلت امرأة كل ما ترتديه يتميز باللون الوردى ، وتحمل في يدها صحبة من الزهور، يصحبها فارس يرتدى قبعة مثلثة القرون، وزياً أحمر اللون، وسترة^٢ وسِرْواً مخططاً . دلفوا إلى الكوخ، والاثنان كانا في أناقة أهل الحكم القديم، حيث يجب أن تصدق مع اعتقاد المواطن « بليز»، بأن للناس طباعاً لا تغيرها الثورات مطلقاً .

وبعد بضع دقائق جاءت من «رويل» أو من «سان كلود»^(١) امرأة عجوز، تحمل علبة أسطوانية، ألوانها صارخة، جلست على المقعد الذى يجلس عليه «جاميلان» ينتظر . وضعت علبتها أمامها، وغطاؤها به إبرة (مؤشر) للعبة الحظ. هذه المرأة المسكينة تقدم الحظ للأطفال فى الحداثق. كانت بائعة حلوى تسمى (اللذيذة) تباع حلوى باسم جديد، لأنه مهما كانت التسمية عريقة فى القدم للحلوى التى كانت تسمى المَقْمعة (حلوى على شكل قُمع)، أوحى بالفكرة الملحقة عن الضحية والضرية، والتى سببت التضجر من التقلبات، فتبدل اسمها من «المَقْمعة» إلى «اللذيذة» .

(١) «رويل» و «سان كلود» ضاحيتان من ضواحي باريس

بعد أن جلست البائعة العجوز على المقعد جفت عرقها بطرف المريلة التي ترتديها، وبثت إلى السماء تذرهما، وقد شكت إلى الله بأنه من الظلم أن تعيش مخلوقاته في هذه الحياة القاسية . كان زوجها يجلس على شاطئ النهر في «سان كلود» ممسكاً بصنّارته، وهي تذهب يومياً إلى «الشانزيلييزيه»، تنادي على الحلوى : « ها هي ذى حلوى اللذيذة ، سيداتي!»، ومن كل هذا العمل لا تجنى شيئاً يُساند شيخوختهم .

ولما أدركت أن جليستها الشاب مستعدٌ لسماع شكواها عرضت بإسهاب سبب آلامها : إنها «الجمهوية» التي سلبت أموال الأغنياء، وانتزعت لقمة الخبز من فم الفقراء، وليس هناك بادرة أمل في تحسين الأحوال. فهي تعلم - وفقاً لدلائل كثيرة - أن الأمور تتفاقم وتزداد سوءاً، ففي «نانتر» وضعت امرأة طفلاً برأس أفعى، وفي «رويل» سقطت صاعقة على برج الكنيسة، فشقت صليب برج الأجراس، وفي غابة «شافى» ظهر غول ذئبي، وهناك رجال مقنعون يسمّمون المنابع، ويذرون في الهواء مساحيق تسبب الأمراض...

ويَزي «إيفاريسست» «إيلودي» تقفز من العريّة، فيجرى نحوها. كانت عيون الشابة تتألق في ظل قبعتها الشفافة، وشفاتها الحمراء كانتا في لون القرنفل الذي تحمله معها، كانا يبتسمان. كانت تضع إيشارباتاً حريريّاً أسود اللون على صدرها وتعقده على ظهرها، وثوبها الأصفر كان يكشف عن حركة ركبتيها السريعتين، وكانت تغطي قدميها بحذاء مسطح بدون كعب، وكانت الثورة حررت القامة بالنسبة إلى المواطنات،

لذلك كانت التنورة (الجيب) منتفخة عند الخاصرة، تخفى الأشكال مع المبالغة فيها، وتحجب الحقيقة تحت صورتها المكبرة .

وحين أراد أن يتكلم هربت منه الكلمات، ووجّه اللوم بهذا الحرج إلى «إيلودي» تفضل استقبالا أحلى من هذا. وهى لاحظت أيضًا أنه يعبر عن ذلك برباط عنق، يعقد ربطته بطريقة فنية غير عادية .
مدت يدها إليه ، وقالت .

- كنت أريد رؤيتك لأتجاذب مع أطراف الحديث . لم أرد على رسالتك، لأنها لم تعجبني ، لم أعثر عليك بين سطورها . كان من الممكن أن تكون أكثر توددًا لو أنها كانت أكثر واقعية ، وليس من شيمتك أو طبعك أن تعتقد أنك لن تعود إلى المتجر (لامور بانتر) لمجرد أنك خضت مُشادةً حادةً قليلًا في السياسة مع رجل يكبرك سنًا . كُنْ على يقين أنك لن تُلْقَى من والدى إلا الترحيب بك عندما تعود إلينا ، فأنت لا تعرفه ، وهو لا يتذكر ماذا قال لك، ولا بماذا أنت أجبتّه . أنا لا أؤكد أنه يوجد استلطاف كبير بينكما، ولكنكما بدون ضغائن . أقول لك ذلك بصراحة، فهو لا يهتم كثيرًا ، لا بك ، ولا بى أنا أيضًا ، ولا يفكر إلا في أعماله وفي ملذاته .

اتجهت نحو أَيْكَة الكوخ، واتبعها وعلى مَضَضٍ، لأنه كان يعرف أن هذا اللقاء، هو لقاء الحب المأجور ، وعبارات الهوى العابر . ووقع اختيارها على إحدى الطاولات البعيدة عن الأنظار .

- كم من أشياء أريد أن أقولها لك يا «إيفاريست» ! إنَّ للصداقة حقوقًا

علينا. هل تسمح لي بأن استخدم هذه الحقوق ؟ سأحدثك عن نفسك كثيراً وقليلًا عني، إذا وافقتَ على ذلك .

جاء بائع عصير الليمون يحمل دروَقًا وأكوابًا، أفرغت بنفسها لتشرب، كربةً بيت جيدة، ثم قصت عليه عن طفولتها، حديثه عن أمها وجمالها، والتي كانت تقخر به، وبالبرِّ البَنَوِيّ، ذلك أنه أصل جمالها، كانت تمدح جدها وجدتها لقوتهما، وكانت تقخر بدمائها البورجوانية .

وقصت عليه كيف أنها فقدت هذه الأمّ الحنون وهي في السادسة عشرة من عمرها، وأمضت حياتها بعد وفاتها بدون حنانٍ أو سندٍ، ووصفت نفسها كما هي : نشيطة، حساسة، شجاعة، وأضافت .

— أى «إيفاريست»، لقد أمضيتُ شبابًا كثيرًا، وفي وحشة، من أجل ألا أعرف قيمة قلب مثل قلبك، ولم أنكر نفسي - وبدون جهد - صارحتك، بطريقة ودية والتي أستطيع أن أعتمد عليها، وهي عزيزة لَدَيّ .

كان « إيفاريست » ينظر إليها بحنان ، وقال :

— هل يمكن يا «إيلودي» ألا أبالي بك ؟ أيمكنني أن أصدُق ؟ توقف عن الكلام خوفًا من أن يتحدث كثيرًا، ويفسد بذلك صداقة حميمة .

مدتُ إليه يدًا صغيرة وشريفة، تخرج حتى منتصفها من أكمام طويلة وضيقة مزينة بالدانتيل، ويرتفع صدرها في تهديدات طويلة .

— امنحني يا «إيفاريست»، جميع الإحساسات التي تريد أن أحسها نحوك، ولن تنخدع أبدًا فيما يشعر به قلبي نحوك.

- إيلودي ، إيلودي ، كل ما قُلْتِه الآن سوف تكررينه أيضًا عندما تعرفين... ثم تَرَدَّدْ .

وتخفض هي عينيها مُطْرِقَةً .

أما هو فقال بصوت خافت :

- « ... إني أحبك ! » .

وعندما سمعت هذه الكلمات الأخيرة احمرّ وجهها سرورًا.. وبينما كانت عيناها تعبران عن شعور بلذة رقيقة رغما عنها، ارتسمت ابتسامة هزلية على جانب شفيتها ، وقالت في نفسها : « ويعتقد أنه هو الذي صرّح أولا ! وربما يخشى أن يكون قد ضايقني !...» .

وقالت له برفق :

- ألم تفهم إذن أنني كنتُ أحبك يا صديقي ؟

لم يكونا يشعران بأحد ممن حولهما وكانا يظنان أنهما بمفردهما في العالم . «إيفاريست» في أوج نشوته يرفع عينيه نحو السماء المتاللة بالزرقة اللازوردية ويقول :

- انظري ! السماء تشاهدنا ! إنها فاتنة وعطوفة متلك ، مثلك انت يا حبيبتي الغالية، إن لها إشراقتك، ورقتك، وابتسامتك .

كان يشعر بأنه هو والطبيعة شخص واحد، وأشركها في بهجته، وفي مجده. ويرى بعينه للاحتفال بهذه الخطوبة زهور أشجار القسطل تضيء كأنها شمعدانات ، وشملات الصفصاف الضخمة تشتعل

كان متمتعاً بقوته وبعظمته . وهى أكثر حناناً، وأكثر رقة، وأكثر مرونة، وليئة العريكة. كانت تتظاهر بالضعف، وفي الحال بعد أن انتصرت عليه، خضعت له، والآن، وقد وضعت تحت هيمنتها، فعرفت فيه السيد، والبطل، والرَّبَّ ، تُغْدِقُ في الطاعة، والإعجاب ، وعَرَضَ نفسها. وفي ظلال الخميلة قَبَّلَهَا قبله ملتبهة طويلة ، أدارت برأسها، وفي أحضان «إيفاريست» شعرت بأن جسدها يذوب كالشمع.. تناولا حديثاً طويلاً عن نَفْسَيْهِمَا، ونَسَبِ الكون من حولهما. «إيفاريست» عبّر عن أفكار صافية وفضفاضة ألقت بإيلودي في أعماق النشوة . و«إيلودي» تحدثت عن أشياء حلوة نافعة، وخصوصية. وبعد ذلك عندما لاحظت أنها لا تستطيع أن تتأخر أكثر من ذلك، نهضت وقد قررت الانصراف، وأعطت إلى صاحبها القرنفلات الثلاث الحمراء المفتحة على نافذتها، وقفزت بخفة ورشاقة في العربة التي كانت قد اصطحبتها. كانت عبارة عن عربة بمقعد واحد، صفراء اللون، عالية العجلتين، ولا يوجد بها شيء غير عادى سوى الحوذى . ولكن «جاميلان» لم يستقل عربة، ولم يفكر مطلقاً في أن يقترب منها. وعندما يراها بعجلتيها المرتفعتين والسريعتين يشعر بانقباض قلبه، ويشعر بأن إحساساً أليماً سوف يصيبه. نوع من الوهم الذهني، كان يبدو له أن جوادَ الكُرَّاء يحمل «إيلودي» إلى ما وراء الأحداث الحالية والزمن الحاضر، إلى مدينة ثرية ومبهجة، إلى مقدرات الرفاهية والملاذات حيث لن يطأها أبداً .

اختفت العربة، وتبددت مخاوف «إيفاريست»، ولكن بقي له قلق

غامض، وكان يشعر بأن أوقات الحنان والنسيان التي عاشها لَتَوَّه لن يعيشها ثانية أبدًا .

وفي عودته ، مرَّ على «الشانزليزيه» ، حيث كانت توجد نساء بملابس فاتحة اللون، جالسات على مقاعد من الخشب، يُحَكَّنَ أو يُطَرَزْنَ، في حين يلعب أطفالهن تحت الأشجار. وبائعة حلوى «اللاذية» تحمل صندوقها على شكل طبله، ذَكَرَتْهُ ببائعة الحلوى نفسها عند «لاليه دى فوف»، وبدأ له كَأَنَّ عمرًا قد انصرم من حياته بين هذين اللقائين. عبر ميدان «لاريفوليسيون»، وفي حديقة «التويليرى» سمع من بعيد ضوضاء هائلة لأيام الأعياد، هذه الأصوات المجمعمة التي يزعم أعداء الثورة أنها صممت للأبد. حتَّ «إيفاريسست» خطاه نحو الجلبة التي تتزايد، وصل إلى شارع «هونورية»، وجده مُعْطًى بجمع غفير من الناس، من الرجال والنساء، يهتفون : «تحيا الجمهورية ! تحيا الحرية !».

كانت أسوار الحدائق والنوافذ والشرفات والأسطح مملوءة جميعها بالمتفرجين، يلوحون بالقبعات والمناديل، وكان المركب مسبوقًا بأحد النقَّابين، والذي كان يفسح الطريق للموكب، ومحاطًا بضباط المجلس البلدى، والحرس الوطنى، والمدفعيين، وشُرطة الدَّرَك، وَحَمَلَة الأعلام . وكان يتقدم ببطء - على رأس المواطنين - رَجُلٌ شاحب البشرة، يُنَوِّج جبهته تاجٌ من البلوط، وجسده ملفوف فى ثوب لاويَّة قديم أخضر اللون، وياقته من فَرَّو حيوان «القاقم». كانت النساء تقذفه بالزهور، وكان يجول بنظره فى كل ما حوله ، بنظرات ثاقبة من عينيه الصفراوين، كما لو

كان يبحث في هذا الجمع الغفير عن المزيد من أعداء الشعب ليبلغ عنهم، أو عن خونة ليعاقبهم .

وفي طريقه كان «جاميلان» عَارِيَّ الرأس، واختلطَ صوته مع ألف صوت هاتفاً :

– يعيش «مارات» !

دخل المنتصر إلى قاعة الجمعية الوطنية كالقدر ، في حين الجَمْعُ الغفير يزحف ببطء . جَلَسَ «جاميلان» على حافة الطريق (طريق هونورية) واضعاً يده على قلبه ليحسب دقاته . إِنَّ ما رآه الآن قد أثلج صدره وملاه بشعور عظيم، وحماس مُتَّقِد .

«إيفاريست» يحترم «مارات»، ويَكُنُّ له شعوراً بالمَعَزَّة، و«مارات» مريض، النار تسرى في وَتِينِهِ، والتقرحات تنهشه، استنفذ مِمَّا تَبَقَّى من قواه في خدمة الجمهورية، وفي منزله الفقير – المفتوح للجميع – يستقبل من يقصده وهو مفتوح الذراعين مُرَحِّباً به، وأحياناً يسأله عن مخططات الفاسقين الأشرار .

إنه معجب بأن أعداء الحق – وهم يتآمرون على هلاكه – قد أعدوا انتصاره، وكان يبارك محكمة الثورة التي برأتَ صديق الشعب، وقدمت إلى الجمعية الوطنية أكثر المشرعين حماساً ونقاءً .

كانت عيناه تشاهدان هذا الرأس الذي تُلهبه الحُمَّى مُكَلَّلًا بتاج الوطنية، وهذا الوجه الذي تعلوه سماتُ الكبرياءِ وحُبُّ لا يرحم، وهذا

الوجه المشوه الذى يفتك به المرض كان يراه قوياً .. وهذا الفم المتقلص، وهذا الصدر العريض ، وهذا المحتضر العيد الذى يلوح من فوق العربة بانتصاره، كأنه يقول إلى مواطنيه «كونوا مثلى ، واحذوا حذوى أيها الوطنيون حتى الموت » .

أصبح الطريق موحشاً ، وغشيه الليل بظلامه ، وجاء مُشْعِلُ الشموع بفانوسه و « جاميلان » يتمتم :

- حتى الموت !

* * *

في الساعة التاسعة صباحاً وجد «إيفاريست» «إيلودى» في انتظاره على أحد المقاعد في حديقة لوكسمبورج. مضى على تبادلهما اعترافات حبهما شَهْرٌ، كانا يتقابلان يومياً في متجر «لامور بانتر» أو في مرسوم ميدان «تيونفيل» بكل وُدٍّ، وبتحفظ تُضيفه على علاقتهما الوثيقة أخلاقُ حبيبٍ جاد وفاصل، مُوَحَّدٌ بالله، ومواطن صالح، وهو على أتم استعداد أن يتزوج عشيقته أمام القانون أو أمام الله وحده، حسب الظروف، ولا يريد أن يفعل ذلك إلا في وضوح النهار ، وأمام الجميع .

وتعترف «إيلودى» بأن ذلك هو الحل الأشرف، ولكن يأساً من زواج يجعل كل شىء مستحيلاً، وترفض مخالفة التقاليد الاجتماعية، فهي تواجه بداخلها، في نفسها، ارتباطاً يجعله الكتمان آثماً، إلى أن تجعله الاستمرارية محترماً . كانت تعتقد أنها في يوم من الأيام ستتغلب على

وساوس عاشق مجبول على الاحترام، ولم تكن تريد أن تؤجل توضيح بعض الأمور الهامة، لذلك طلبت منه ساعة لتتحدث معه في الحقيقة الخالية من الزوار ، بالقرب من دير «الشارترو».

نظرت إليه بحنان وإخلاص، وأخذت يده بين يديها، ثم أجلسته إلى جانبها ، وحدثته بخشوع :

- «إيفاريسست»، لا أريد أن أخفى عنك شيئاً، لأنى أقدرك تقديرًا عظيمًا، وأعتقد أننى جديرة بك، ولن أكون كذلك إن لم أقل لك كل شيء. اسمعنى واحكم عني، فأنا لا أوجه اللوم إلى نفس لعملٍ حقيرٍ أو دنىء، أو حتى مهم فقط ... لا تصرف النظر يا صديقى عن الظروف الصعبة التى نشأت فيها، أنت تعرف ذلك، لا أمُّ لى، وأبى لا يزال صغيرًا ولا يفكر إلا فى مسرَّاته، ولا يهتم بى. كنت حساسة، وهبتنى الطبيعة قلبًا حنونًا ونفسًا كريمة، ومع أنها لم ترفض لى حكمًا حاسمًا وصحيحًا، فإن العاطفة غلبته عندى على العقل .

والأسفاه ! فلسوف تغلبه اليوم أيضًا، إذا لم يتفقد الاثنان ، يا «إيفاريسست» على أن يزوجانى لك ، وللأبد !

هكذا عبَّرتُ بما يجيش فى نفسها بحزم وفطنة . كانت كلماتها مرتبة ومعدَّة، ومنذ وقت طويل قررت أن تعترف، لأنها كانت صريحة، ولأنها كانت تحب أن تقلد «جان جاك»، ولأنها كانت تقول فى نفسها بتعقل :

«إيفاريسست سيعرف يومًا ما أسرارًا، لست أنا الوحيدة المؤتمنة عليها،

فمن الأفضل أن أقدمَ اعترافًا تكون صراحته مديكًا لي، وإخباره بما لو عَرَفَه ذات يوم يكون عرفانه لي خزيًا».

كانت حنونة ووديعة بالطبيعة، لذا لم تكن تشعر بأنها ارتكبت ذنبًا كبيرًا، وأن اعترافها كان أقل مشقة، بالإضافة إلى أنها اهتمت بالأقول إلا الضروري.

— آه.. (قالتها وهي تتنهد) : لِمَ لَمْ تَأْتِ إِلَيَّ يَا «إيفاريست» العزيز وأنا وحيدة ومُهْمَلَةٌ؟..

«جاميلان» اعتبر طلبها بأن يكون قاضيًا لها طلبًا صريحًا، ولمَّا كان تكوينه الطبيعي وتعليمه الأدبي في ممارسته للعدالة الاجتماعية يهيئانه لذلك فقد استعد لسماع اعترافات «إيلودي». ولمَّا رآها مترددة، أوماً إليها أن تتكلم.

فقالت بلا تَصْنَعُ :

— كان هناك شاب، كانت له من بين صفاته السيئة صفات حميدة، ولم يكن يبدي إلَّاهَا. لَأَحَظُّ عِنْدِي بعض الجاذبية، وأبدي نحوى اهتمامًا ملحوظًا يثير الدهشة بالنسبة إليه .. كان في ريعان شبابه، وتبدو عليه مظاهر النعمة، وعلى علاقة بسيدات ساحرات، لا يُنكرن أبدًا أنهن يعبدنه. ولم يكن اهتمامى به لجمالهِ أو لروحهِ ... لقد استطاع أن يُؤَثِّرَ فيَّ عندما أبدى لي حبه، وصدقتُ أنه كان يحبني فعلاً .. كان حنونًا، مُلَاطِفًا. لم أطلب منه أى ارتباطات إلَّا بقلبه، وكان قلبه متقلبًا ... ولا ألوم إلَّا

نفسى.. هذا هو اعترافى وليس اعترافه، أنا لا أشكو منه ما دام قد أصبح غريباً عنى. آه ! أقسم لك يا «إيفاريست» إنه الآن بالنسبة لى كأنه لم يكن! وصمتت.. أمّا «جاميلان» فإنه لم يُحر جواباً، وعقد ذراعيه، وكانت نظراته ثابتة وغامضة. وكان يفكر فى آنٍ واحد فى معشوقته وفى شقيقته «جولى».. و«جولى» هى أيضاً كانت قد صدقت عاشقاً، ولكنه يعتقد أن شقيقته كانت تختلف عن البائسة «إيلودى»، كانت قد انتبذت بنفسها، ليس لخطئٍ فى قلب حساس، ولكن لكى تجد - بعيداً عن ذويها - الرفاهية والمتعة .

ومن قسوته أَدان شقيقته ، وينزع إلى إدانة معشوقته . وأستطردت «إيلودى» بصوت كله حلاوة :

- «كنت متشربة بالفلسفة، وكنت أعتقد أن الرجال أشراف بالطبيعة، وكان من سوء حظى أن أقابل حبيباً لم يكن قد تلقى تكوينه فى مدرسة الطبيعة والأخلاق، وأن المعتقدات الاجتماعية والطموح والكبرياء ونخوة مزيفة صنعتُ أناانياً ونذلاً» .

وقد أسفرت هذه الكلمات المحسوبة عن النتيجة المطلوبة .

هدأت نظرات «جاميلان» وسأل :

- من كان خادعك هذا ؟ هل أعرفه ؟

- أنت لا تعرفه .

- اذكرى لى اسمه .

كانت «إيلودي» تتوقع هذا السؤال ، وكانت قد عقدت العزم على عدم الاستجابة لرغبته ، فقالت :

ـ اعفنى أرجوك، فإننى بالنسبة إليك وبالنسبة لى قد قلت عنه الكثير.

ولما كان « إيفاريست » يصر على طلبه قالت :

ـ من أجل صالح حبنا المقدس لن أخبرك بشيء يطبع فى خاطرك هذا... الغريب، لا أريد أن ألقى بشبحٍ إلى غَيْرَتِكَ، ولا أريد أن ألقى بظلال مزعجة بينى وبينك، لقد نسيْتُ هذا الرجل ولا أريد أن أعْرِفَكَ عليه .

ضغط عليها «جاميلان» بأن تذكر له اسم هذا المخادع، وكان يستعمل هذا المصطلح بإصرار ، لأنه لا يشك فى أن «إيلودي» أُغْوِيَتْ وخُدِعَتْ وُغَرَّرَ بها ، . لم يكن يدرك أن يكون الأمر بوجه آخر، وأنها قد تكون لبَّت الرغبة، الرغبة التى لا تُقاوَم، واستمعت إلى النصائح الحميمة الجميلة، قد قَدِّمَتْ نفسها، كان مقتنعاً أن إنسانة فى ذكائها وعبقريتها تُؤخذ عُنوة أو بالحيلة ، أى تُغتصب، وتهوى فى شركٍ منصوبة تحت قدميها .. وقد وجه إليها أسئلة بحساب فى العلاقات، ولكنها موجزة ومقتضبة، ومُكْدِّرة .. سألها كيف تكونت هذه العلاقة، وعمّا إذا كانت مدتها طويلة أو قصيرة، هادئة أو مضطربة، وبأى طريقة انفصمت.. وكان يعود دائماً إلى الوسائل التى استخدمها هذا الرجل لِيُغَرَّرَ بها، وعمّا إذا كان استخدم منها ما هو غريب أو خارق للعادة.. كل هذه الأسئلة جعلها هباءً .

وبإصرار رقيق التزمّت الصَّمْتُ، وأطبقت فَمَها، وعيناها مغرورتان

بالدموع.. ومع ذلك، فعندما سألها «إيفاريست» : أين الآن هذا الرجل ؟
أجابت :

- لقد غادر المملكة .

واستطردت بحماس :

- ... فرنسا .

صاح « جاميلان » :

- مهاجر !

فتنظر إليه صامتة وآسفة في آن واحد، كانت مطمئنة وحزينة لأن تراه هو نفسه يخلق حقيقة مطابقة لعواطفه السياسية، ويضفي على غيرته لوناً يعقوبياً بدون داع .

في الواقع كان عاشق «إيلودي» كاتباً صغيراً للنائب العام، وكان غلاماً وسيماً جداً، وكانت «إيلودي» تعبده ، حتى أن ذكرها بعد ثلاث سنوات قد ألهمت الحرارة في صدرها، كان يبحث عن السيدات الثريات والمُسِنَّات، فترك «إيلودي» من أجل امرأة متمرسنة تكافئه حسب قدراته، بعد أن ألغيت الإدارات، ودخل بلدية باريس، والآن أصبح جنديّ خيال لا متسول، وعاشقاً لامرأة من صواحب الألقاب في العهد السابق.

ويقول « جاميلان » مكرّراً :

- أحد النبلاء! وقد هَجَرَ بكُلّ نذالة!... فلتحترس جيداً، إنها لا تتمنى أبداً أن يعرف كل الحقيقة .

وتحنى رأسها .. وَيَضُمُّهَا إِلَى صدره ويقول :

- عزيزتى ضحية الفساد الملكى ، إِنَّ حبى سينتقم لك من هذا الوقح ،
والسماة قادرة على أن تلاقينى به ! وسوف أتمكن من معرفته !

أدارت رأسها مغتمة ومبتسمة ومخدوعة ، كل ذلك معا . كانت تريده
أكثر ذكاءً فى أمور الحب ، وأكثر طبيعة ، وأكثر قسوة .

شعرت أنه لم يسامح سريعاَ إلا لأن خياله فاتر ، وأن الثقة التى أولته
إياها الآن لم توقظ فيه أى صورة من هذه الصور التى تُعَذِّبُ محبى
اللذات ، وأنه أخيراَ لم يجد فى هذا التعبير إلا حَدَثًا أخلاقياَ واجتماعياَ .

نهضا من جلستهما وساراَ فى الممرات الخضراء فى الحديقة . وقال لها
إنه يُقَدِّرُ تآلم المرء . و«إيلودى» لم تسأله أكثر ، ولكن أحبته كما هو ،
وأعجبت بعبقريته الفنية التى رأتها تتألق فيه . وعند خروجهما من
«لوكسمبورج» قابَلاَ جمهرة صاخبة فى شارع «الإيجاليتية» (المساواة)
وحول مسرح الأمة ، ولم يكن ذلك ليثير دهشتهم ، فمنذ بضعة أيام
سادت موجة من الهياج فى أكثر القطاعات وطنية ، تندد بحزب «أورليانز»
وشركاء «بريسو» ، الذين - كما يقال عنهم - يُدَبِّرُونَ لتخريب باريس ،
وذبح الجمهوريين . وكان «جاميلان» قد صَدَّقَ من قبل على عريضة
مجلس العموم التى كانت تطالب باستبعاد الواحد والعشرين .

وبالقرب من المرور تحت البواكى التى تربط المسرح بالمنزل المجاور
كان عليهما أن يَمُرَّاَ بمجموعة من المواطنين يرتدون «الكارمنبولات» ،

وكان أحد الجنود يخطب ويعظ فيهم من أعلى الممر، جندى جميل وسيم، مثل «حب براكسيتيل»^(١) بخوذته المصنوعة من جلد الفهد .

هذا الجندى الوسيم يتهم صديق الشعب باللامبالاة، وكان يقول .

- أنت نائم يا «مارات» والفيديراليون يُكبلوننا بالحديد ! ولم تك «إيلودي» تتجه بنظرها إليه حتى قالت بِجِدَّة :

- هَلُمَّ إِيَّايَ «إيفاريست» !

إِنَّ الْجَمْعَ الْغَفِيرَ هَذَا يَخِيفُهَا، وَتَخْشَى أَنْ تَسْقُطَ فَاقْدَةُ الْوَعَى وَسُطَ الزَّحَامِ . وَافْتَرَقَا فِي مِيدَانِ «لَانَاسِيُون»، وَقَدْ تَعَهَّدَا بِحُبِّ أَزْلَى .

وَفِي سَاعَةِ مَبَكْرَةٍ مِنْ هَذَا الصَّبَاحِ، قَدَّمَ الْمَوَاطِنُ «بِرُوتُو» إِلَى الْمَوَاطِنَةِ «جَامِيلَانَ» هَدِيَّةً جَمِيلَةً، عِبَارَةٌ عَنْ طَائِرٍ مُسَمَّنٍّ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ نَاحِيَّتِهِ حَذَرًا، بَأَنْ صَرَحَ لَهَا كَيْفَ حَصَلَ عَلَيْهِ، لِأَنَّهُ أَخَذَهَا مِنْ سَيِّدَةٍ مِنْ سَيِّدَاتِ السُّوقِ الْكَبِيرِ، أحيانًا كَانَ يَعْمَلُ سَكْرَتِيرًا لَهَا، وَالْمَعْرُوفُ أَنَّ سَيِّدَاتِ السُّوقِ الْكَبِيرِ كُنَّ ذَوَاتَ مَشَاعِرٍ مُلْكِيَّةٍ، وَيُرَاسِلْنَ الْمَهَاجِرِينَ. وَتَأْخُذُ الْمَوَاطِنَةُ «جَامِيلَانَ» الطَّائِرَ الْمُسَمَّنَّ بِقَلْبٍ رَاضٍ. وَمِنْ الصَّعْبِ الْحَصُولُ عَلَى مِثْلِهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، فَقَدْ كَانَ غَلَاءُ الْمَوَادِّ الْغِذَائِيَّةِ فِي زِيَادَةٍ مُسْتَمِرَّةٍ، وَكَانَ الشَّعْبُ يَخْشَى الْمَجَاعَةَ، وَيُقَالُ إِنَّ الْأَرَاثِقْرَاطِيِّينَ كَانُوا يَتَمَنُّونَهَا، وَالْمُحْتَكِرُونَ يُجَهِّزُونَ لَهَا .

كَانَ الْمَوَاطِنُ «بِرُوتُو» مَدْعُوًّا عَلَى تَنَاوُلِ نَصِيْبِهِ مِنَ الطَّائِرِ الْمُسَمَّنِّ عَلَى

(١) دِراكِسِيْتِيل نَحَاتْ يُونَايْ مَشْهُور . وَلَدَ حَوَالِي سَنَةِ ٣٦٠ ق . م .

وجبة الظهر، وتوجّه مُلبّيًا هذه الدعوة، وهنا مضيفته على رائحة الطعام المنبعثة شهية من مطبخها. وفي الحقيقة شَمَّ الرسام رائحة الحساء الشهية. فأجابته السيدة الطيبة قائلة .

- إنك كريم بالفعل يا سيدي، وقد أردتُ إعداد معدتنا لاستقبال لحم طائر الذي أهديته لنا، فقد صنعتُ حساءً بالأعشاب، مع شريحة دهن الخنزير، مع عظمة عجل ضخمة. فما من شيء له طعم ونكهة جميلة للحساء مثل قطعة عظم بالنخاع .

أجاب « بروتو » :

- هذه الحكمة تستحق المديح أيتها المواطنة ، ويكون من الأفضل أن تضيفي غداً - وبعد غد ، وبقية الأسبوع كله - قطعة العظم الثمينة هذه في إناء الطهي، فهي لن تتوقف أبدًا عن إضافة الرائحة الجميلة للطعام .
وقديمًا كانت عرّافة «بانزوست» لها طريقة هكذا : كانت تعد حساء الكرنب الأخضر مع شريحة من شحم الخنزير الأصفر، وعظمه نخاعية تسمى «سافورا دوس» وكانت لذينة الطعم، طيبة المذاق والرائحة، وذات عَصارة كثيرة .

قالت المواطنة «جاميلان» :

- هذه السيدة التي تتحدث عنها يا سيدي ألم تكن حريصة أو شحيحة قليلًا حتى تستخدم لفترة طويلة نفس العظمة ؟
أجاب بروتو .

- كانت تحيا حياة صعبة ، وكانت فقيرة، مع أنها رسولية .

في هذه اللحظة، عاد «إيفاريست جاميلان» متأثراً بالاعترافات التي سمعها لتوّه، وقطع على نفسه عهداً بأن يعرف الذي غَرَّرَ بإيلودي، لينتقم في نفس الوقت للجمهورية ولحبه .. وبعد المقدمات اللطيفة العادية، بدأ المواطن «بروتو» الحديث :

- من النادر أن هؤلاء الذين يحترفون الكهانة بأنهم سوف يغتنون مستقبلاً، فسرعان ما يظهر غشهم، وهذا الغش يجعل الجميع يُبغضونهم. ولكن لا بد من مقتهم أكثر إذا تَبَيَّنُوا حقيقة المستقبل، لأن حياة المرء سوف تصبح غير محتملة إذا كان يعرف ما سوف يحدث له، سوف يكتشف آلاماً مستقبلية يتألم منها مقدماً، ولن يتمتع - علاوة على ذلك - بالمنافع القائمة، والتي قد يرى نهايتها. والجهل هو الشرط الأساسي لسعادة الناس، ويجب الاعتراف بأنهم يضطلعون به في معظم الأحيان، فنحن نجهل كل شيء تقريباً عن أنفسنا، وعن الغير، كل شيء. الجهل يصنع هدوءنا، والكذب لنا به هناء وسعادة.

وضعت المواطنة «جاميلان» الحساء على المائدة وهي تتلو صلاة المائدة، وأجلست ابنها وضيئفا، وبدأت تَأْكُل وهي واقفة، رافضة المقعد الذي قدمه لها «بروتو» بالقرب منه، لأنها تعرف - كما تقول - ماذا تتطلَّبُ منها اللياقة والإكرام.

* * *

الساعة العاشرة صباحًا ، الجو ثقيل ولا توجد به نسمة هواء . كان شهر يوليو من أشد الشهور التي عرفناها حرارة، وفي شارع أورشليم الضيق، حوالى مائة مواطن من القطاع يقفون طابورًا أمام المخبز، ويُراقبهم أربعة من الحرس الوطنى الذين يدخلون «الغليون»، راكزين سلاحهم فى الأرض .

وكانت الجمعية الوطنية أصدرت مرسومًا ببالحد الأقصى للأسعار، وفى الحال اختفت الحبوب واختفى الدقيق . فصار الفرنسيون ينهضون مبكرين قبل بزوغ النهار إذا أرادوا الحصول على طعام، وكما كان بنو إسرائيل يصنعون فى التيه. وكان كل هؤلاء الناس، يتزاحمون ويدفع بعضهم البعض الآخر من رجال ونساء وأطفال فى جو شديد الحرارة مثل الرصاص المنصهر، يجفف بعض الجداول، ويثير روائح العرق والقذارة. الناس يتدافعون بشدة ويتنادون، وينظر بعضهم إلى بعض بجميع الإحساسات التى يستطيع بنو الإنسان أن يُعبروا بها عن أنفسهم للآخرين، مثل النفور والاشمئزاز، والرغبة، وعدم الاكتراث واللامبالاة . وكان معروفًا أنه لا يوجد خبز لكل الناس، وذلك بالخبرة المؤلمة، حتى الذين يصلون متأخرين يحاولون أن يتسربوا فى المقدمة، وهؤلاء الذين يفقدون أماكنهم فى الصف يتشاكون ويغتاظون، ويطالبون بحقهم الذى لا يحترمه الآخرون ، ولكن بدون جدوى. والنساء يحاولن بكل وسيلة، بمرافقهن وظهورهن ليُحافظن على أماكنهن، أو ليحصلن على مكان أفضل. وإذا زاد التزاحم إلى درجة الاختناق تتصاعد الصيحات : «لاتتدافعوا ! » وكل شخص يُعَرَّضُ يَحْتَجُّ بأنه دُفِعَ .

ومن أجل تجنيب هذه الفوضى اليومية رَأَى المفتشون الذين أوفدهم القطاع، أن يربطوا حبلاً على باب المخبز، ليقف كل شخص في مكانه في الصف بأن يمسك به، ولكن الأيادى القريبة جداً من بعضها تتلاقى على الحبل وتدخل في صراع، ومن يترك الحبل لا يستطيع أن يمسكه مرة أخرى، والراقضون والساخرون كانوا يقطعونه، فكان لابد أن يَعْدِلُوا عن هذه الفكرة .

في هذا «الطابور» يعتقد المرء أنه سيختق وسيموت، وتُطلق النكات، وتُطلق كلمات فاحشة، وشتائم قذائف من السباب موجهة للأرستقراطيين وإلى الفيدراليين الذين صنعوا كل هذا الشر . وإذا مر كلب، يطلق عليه بعض الساخرين اسم «بيت»، وأحياناً تسمع فرقعة صفعه قوية من يد مواطنة على وجه أحد الأنزال، في حين تتنهّد خادمة شابة يدفعها جارها، وعيناها شبه مقفولتين، وثغرها شبه منفرج، وتتنفس بليونة واسترخاء. كانت كل كلمة وكل حركة لكل موقف خاص كقيلة بإيقاظ المزاج الفاجر عند المحيين الفرنسيين. وبدأت مجموعة من الشباب الفاسق ينشدون: «لا ضَيْرَ، ستتحسن الأحوال»، بالرغم من اعتراضات أحد اليعقوبيين المُسِنَّين، كان ناقماً على مايشين من مراوغات قذرة .. كان هذا النشيد عبارة تتردد تُعبّر عن العقيدة الجمهورية في مستقبل يتسم بالعدل والسعادة .

وجاء أحد عمال لصق الإعلانات يحمل سُلْمَه تحت إبطه ليلصق إعلاناً على الحائط في مواجهة المخبز، من مجلس العموم يُقَنَّ لحوم

الجزارة. توقف بعض المارة لقراءة الإعلان الذى لا يزال مبللاً بالصمغ. إحدى بائعات الكرب تحمل سلتها على ظهرها، وأخذت تقول بصوتها الخشن المرتعش

– لقد ذهب العجول السمينة ! فعلينا بالمصارين. وفجأة تصاعدت رائحة كريهة من إحدى مواسير المجارى، حيث تأثر الكثيرون من الرائحة التى تسد الأنوف. إحدى السيدات ساءت حالتها وأغمى عليها، وحملها اثنان من الحرس الوطنى بضع خطوات بعيداً تحت إحدى المضخات .

كان الجميع يسدون أنوفهم، وانطلقت الإشاعات، وتبادل الجميع الأحاديث التى يملؤها القلق والخوف .. كانوا يتساءلون فيما بينهم عما إذا كان حيوان مدفون هناك، أو وُضِعَ سُمٌّ فيها بسوء نية، أو أن أحد قَتَلَ سبتمبر – نبياً كان أو كاهناً – قد نُسِيَ فى كهف أو سرداب مجاور .

– إذن وُضِعَ شىء من ذلك هناك ؟

● لقد وضعوا شيئاً من ذلك فى كل مكان !

– لا بد أن يكون أحد هؤلاء من شاتيليه (١) . وقد رأيتُ فى الثانى من سبتمبر ثلاثمائة منهم مُكَدَّسين على « الكوبرى » عند التغيير .

كان الفرنسيون يخشون انتقام هؤلاء الأعداء أنصار العهد السابق من أن يكونوا قد سَمَّوهم.

(١) مدينة فرنسية .

وصل «إيفاريست جاميلان» واتخذ مكانه من الصف، كان يريد أن يُجَنَّب والدته آلام الوقفة الطويلة . وكان يرافقه جاره المواطن «بروتو» هادئًا مبتسمًا، ويحمل معه كتاب «لوكريس» في جيب معطفه الأسود اللون والمائل إلى الحمرة . وقد مدح العجوز الطيب هذا المشهد، كأنه لوحة مضحكة للرسام الإيطالي «بامبوكيو» أو بريشة تينيه^(١) العصري . قال «بروتو» :

— هؤلاء العتالون، وهؤلاء الثرثارات، ألطف من اليونانيين والرومان الذين يعتز بهم رسامونا في هذه الأيام. أما عن نفسي ، فقد تذوقت الطريقة الفلمنكية .

والذي لا يذكره أبدًا بحكمة وذوق سليم، أنه كان لديه معرض للوحات هولندية، لا يعد له غير ديوان السيد «شوازيل» بالنسبة إلى عدد واختيار الصور.

يجيب الرسام :

— لا يوجد أجمل من القديم وما يُستلهم منه. ولكني أتفق معك على أن اللوحات المضحكة لكل من «تينيه»، و«ستين»^(٢)، أو «أوستاد»^(٣) أفضل من الزخارف النسائية لفاتو، و«بوشيه»، و«فان لو»^(٤)، لقد

(١) تينيه رسام فلمنكى ت ١٦٤٩ .

(٢) رسام هولندى ت ١٦٧٩

(٣) رسام هولندى ت ١٦٨٥

(٤) رسام فرنسى ت ١٧٦٥ .

تشوهت فيها الإنسانية، ولكنها لم تُحَقَّر ، على سبيل المثال عند «بودوان»
أو «فراجونارد» .

ويمرُّ أحد المُنادين ، يصيح :

- نشرة محكمة الثورة !..... قائمة المذنبين !

قال « جاميلان » : إن محكمة ثورية واحدة لا تكفى ، لابد أن توجد
واحدة في كل مدينة ... ماذا أقول ؟ بل في كل دائرة، وفي كل ناحية.. لابد
من أن يلجأ كل رب أسرة، وكل المواطنين عليهم أن يلجئوا إلى القضاء .

عندما تجد الأمة نفسها مهددة بمدافع الأعداء، أو خناجر الخونة،
يُغتال الغفران. ماذا ؟! ليون، ومرسيليا، وبرودو، متمردون، وكورسيكا
ثائرة، ولافانديه تضطرم، ومايانس وفالانسيان هَوَّتَا تحت سلطة
الحزب، الخيانة في الأرياف وفي المدن ، وفي المعسكرات ، الخيانة جالسة
على مقاعد الجمعية الوطنية ، الخيانة جالسة وبطاقة في يدها في مجالس
حرب قادتنا... فَلْتَنْقِذِ الْمَقْصَلَةَ وطننا !

أجاب «بروتو» العجوز : ليس عندي اعتراض جوهرى على المقصلة.
الطبيعة هي مُعَلِّمَتِي الوحيدة وخليلتى الوحيدة، في الحقيقة لم تعلمنى
بأى طريقة أن حياة أى إنسان لها بعض القيمة ، بل على العكس، فهي
تعلم بشتى الطرق أنها ليس لها أى قيمة. يبدو أن الغاية الوحيدة من
المخلوقات، هى أن يُصبحوا غذاءً لمخلوقات أخرى، مُكْرَّسين للغاية ذاتها.
والقتل من القانون الطبيعى، وبناء عليه فالْحُكْم بالإعدام شرعى، بشرط
ألا تمارسه عن فضيلة، أو عن عدلٍ، ولكن عن ضرورة أو من أجل

الحصول من ورائه على انتفاع أو كسب، لذلك يجب أن تكون عندي غرائز شديدة، لأنى أكره أن أرى الدماء تسيل، وذلك يُعدُّ انحلالاً، لم تتوصل فلسفتى بَعْدُ إلى إصلاحه

واستطرد «إيفاريست» : الجمهوريون رُحَماء وحساسون، ولا يوجد سوى الطغاة الذين يؤكدون أن عقوبة الإعدام شعار ضرورى للسلطة. والشعب ذو السيادة سوف يلغيها ذات يوم، و «روبسبير» كافحها، ومعه جميع الوطنيين، والقانون الذى يُلغيها لم يسعه أن يُنشر مبكراً، ولكن لا يجب أن يُطبق مستقبلاً إلا عندما يهلك آخر أعداء الجمهورية بموجب قوة القانون .

والآن يوجد خَلَفٌ «جاميلان» و «بروتو» مَنْ وصلوا متأخرين، ومن بين هؤلاء كثيرات من نساء الدائرة، ومن بين أخريات حائكة جميلة، واطعة على رأسها منديلاً ، ولابسة حُفّاً ، ومتقلدة بسيف، ومن هؤلاء فتاة جميلة شقراء، شعثة الشعر، خمارها مُجَعَّد، وَأُمٌّ، شابة صغيرة، نحيفة وشاحبة ، تعطى ثديها إلى طفلها الهزيل النحيل . والطفل الذى لا يجد لبناً فى ثديها يصيح، ولكنَّ صيحاته كانت ضعيفة، ويكاد يختنق من نحيبه. صغيرٌ يُثير الشفقة، فهو ممتقع البشرة، ووجهه أصفر يميل إلى السواد ، عيناه مُنْقَدَتَان، وأمه تنظر إليه نظرة تُثير الألم .

قال «جاميلان» وهو يلتفت إلى الرضيع البائس ، الذى يتألم خلفه ويئن تحت ضغط الذين يصلون متأخرين : إنه صغير جدًّا !!

- عمره ستة أشهر ، حبي المسكين!.... والده في الجيش : وهو من بين هؤلاء الذين صَدُّوا النمساويين في كوندية .

اسمه ديمونتاى (ميشيل)، موظف تجارى، يحترف صناعة الجوخ، وقد تطوع في المسرح الذى أقيم أمام مبنى دار البلدية. رفيقى المسكين كان يريد أن يدافع عن وطنه، وسافر.... وكتب إلّى، وطلب منى أن أتذرع بالصبر. ولكن كيف تريدنى أن أُطعم «بول» - (هذا هو اسمه) - وأنا لا أستطيع أن أُطعمَ نفسى ؟

صاحت الفتاة الشقراء الجميلة : آه ! أمامنا ساعة أخرى من الانتظار حتى نحصل عليه، ولا بد في هذا المساء من تكرار نفس الانتظار أمام باب البقالة، ونعرض لمخاطر قاتلة من أجل الحصول على ثلاث بيضات، وربع رطل زبدة.

فتنهدت المواطنة «ديمونتاى» قائلة : زبدة، لم أرَها منذ ثلاثة أشهر !
وجميع النسوة اشْتَكَيْنَ من نُدرَة وغلاء المواد الغذائية، ويقذفن باللعنات على المهاجرين، وينذرُن المصلحة لمفتشى الدوائر الذين يعطون نساء ماجنات دجاجاتٍ مُسمَّنةً وخبزاً بسعر فيه محاباة مشينة .

وتنتشر القصص التى تنذر بالخطر عن غرق عَجُولٍ ففى نهر السين، وجوالات من الدقيق تُفرَّغ في المجارى، وخبز يُلقَى في المراحيض... ويُقال إن المجوِّعين الملكيين ، والرولانديين، والبريسوتانيين هم الذين يتابعون القضاء على شعب باريس .

وفجأة تصرخ الفتاة الشقراء الجميلة ، ذات الوشاح المجعد ، وكأن النيران اشتعلت في تنورتها، وتهتز بعنف، وقد قلبت جيوبها وقالت إن كيس نقودها قد سُرق .

وإنَّ عملية النشل هذه سَرَتْ موجة من السخط من هذا الشعب الرقيق الذى سبق أن نهب الفنادق فى ضاحية «سان جيرمان»، وغزا «التويلورى» بدون أن يستولى على أى شىء. هؤلاء حرفيون وأهالى ، وهم الذين أحرقوا - عن حسن نية - قصر «فيرساي»، ولكنهم كانوا يعتقدون أنهم يكونون غير أشرف إذا سرقوا دبوسًا واحدًا منه .

والشباب الفاسق جازف على مغامرة الطفلة الجميلة ببعض الدعابات سيئة القصد ، وسرعان ما اختنقت بما شاع من رأى الجمهور . وكان الكلام يدور عن تعليق اللص على حبل المشنقة. وجرى تحقيق صاحب ومتحيز، وأشارت المرأة الحائكة الكبيرة بأصبعها إلى شخص متقدم فى السن، ويبدو أنه كان راهبًا سابقًا، تُقسم على أنه الراهب «الكابوتش» الذى ضرب ضربته.

وفى الحال اقتنع الحشد ، وأطلق صيحات الويل والثبور . أما العجوز فقد وقع تحت طائلة عقاب المجرم باسم الجماعة، ومَثَّل أمام المواطن بروتو فى منتهى التواضع، ويبدو عليه مظهر حقيقى لرجل دين سابق، ويوحى مظهره بالاحترام، فى حين تسبب اضطرابُ هذا الحشد فى إظهار هذا الرجل المسكين بمظهر فاسد ، وأيضًا بسبب أيام سبتمبر القاسية . كما أن الخوف الذى ارتسم على وجهه جعله مشبوهًا عند هذا الجمهور

الذى يعتقد - عن طيب خاطر - أن المذنبين فقط هم الذين يخشون هذه الأحكام، كأن هذا التهور وعدم التروى في حكمهم لابد أن يخيف حتى الأبرياء، وليس المذنبين فقط .

«بروتو» كان يميل إلى القانون بألاً يُعارض الشعور الشعبى مطلقاً، خاصة إذا كان يبدو لا معقولاً وقاسياً، « كان يقول آنئذ : «صوت الشعب هو صوت الرب » . ولكن «بروتو» كان غير منطقي ، فقد صرح بأن هذا الرجل - سواء كان راهباً كبوشيياً أو لم يكن - فإنه لا يمكن أن يسرق هذه المواطنة التى لم يقترب منها فى أى لحظة .

استنتج الجمهور أن الذى يدافع عن اللص يكون متواطئاً معه، والآن تناقل الحديث بينهم عن معاقبة المذنبين، وعندما تعهد «جاميلان» بأن يضمن «بروتو» تحدث الأكثر حكمة فى الجمهور بأن يرسلوه مع الاثنين الآخرين إلى الدائرة .

ولكن الفتاة الجميلة صاحت فجأة وبفرحة أنها عثرت على كيس نقودها . وفى الحال انطلقت عليها صيحات الاستنكار والسخرية، وهُدَّتْ بأن تُضرب على أردافها على الملأ كراهبة .

قال رجل الدين لـ «بروتو» : أشكرك على أنك دافعتُ عنى يا سيدى، واسمى لا يههم ، ولكن لابد أن أذكره لك : (اسمى لويس دى لونجمار)، وفى الواقع أنا راهب قانونى واست راهباً كابوشيياً، كما قالت هؤلاء النسوة، والأمر يحتاج إلى أكثر من ذلك، فأنا أكليركى قانونى من النظام

البارنايبتي الذي خَرَجَ للكنيسة أقواجا من الأطباء والقديسين، ولا يكفي مطلقاً أن تُرجع أصله إلى القديس «شارل بورومي»^(١)، بل لابد من اعتبار أن مؤسسه الأصل هو القديس بول (بولس) المبشر، والذي يحمل المُشَبَّكة في شعار النبالة. كان لابد أن أغادر الدير الذي كنت فيه، حيث أصبح مقر دائرة لوبون - نوف ، وأن أرتدى زي راهب علماني .

قال «بروتو» وهو يتفحص عباءة السيد «لونجمار» : أبى، إن ملابسك تدل بما فيه الكفاية على أنك لم تنكر طريقتك، ومنْ ينظر إليك يعتقد أنك أصلحت نظامك بدلا من أن تتركه، وعرضت نفسك في هذه الظواهر القاسية لشتائم شعبية وقحة بهذا المظهر الزاهد .

أجاب الراهب : ومع ذلك، فلم أستطع أن أرتدى الزي الأزرق كما يرتدى الراقص .

قال «بروتو» : يا أبى، إن ما قلته عن ملابسك، قلته لكى أحيى فيك أخلاقك، وأحذرك من الأخطار المحدقة بك .

قال الراهب : سيدى ، من اللائق ، أو على العكس تماماً، يجب أن تُشجعنى على إشهار عقيدتى ، ذلك لأننى لستُ إلا مجبولاً على الخوف من الهلاك. لقد تركتُ الزيَّ الرهبانىَّ يا سيدى، وما ذلك إلا نوع من الارتداد، إن أقل شىء إلا أغادر البيت الذى أنعم عليَّ الله فيه طوال سنين عدة بحياة هادئة ومنعزلة، وحصلتُ على الموافقة بالإقامة فيه ، ولزمتُ

(١) أصبح أسقف ميلانو في القرن السادس عشر قائد أتباع برنايبتي، ولد سنة ١٥٣٨ ، وتوفى سنة

فيه صومعتي، في حين تحولت الكنيسة والدير إلى نوعٍ من دار البلدية الصغيرة، والذين سموها «الدائرة». وقد رأيتُ يا سيدى شعارات الحقيقة المقدسة تُدقُّ بالمطرقة، ورأيتُ اسم البشر (بول) يُستبدل بِقَلَنْسُوة أحد المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة. أحياناً كنت أحضر اجتماعات الدائرة غير القانونية، وسمعتُ فيها تعبيرات خاطئة تثير الدهشة. وأخيراً غادرت هذا المقر المُتَمَتِّه، وذهبتُ لأعيش في إحدى الحظائر التي صُودرت خيولها لخدمة الجيوش، بمعاشٍ حددته لى الجمعية، وهناك أقمتُ القُدَّاسُ أمام بعض المؤمنين الذين جاءوا ليشاهدوا خلود كنيسة المسيح.

قال «بروتو»: أمّا أنا يا أبى فإذا كُنْتُ راعباً معرفة اسمى فإننى أدعى «بروتو»، وقد كنت قديماً جابى ضرائب.

أجاب الأب «لونجمار». كنتُ أعرف من موعظة للقديس «متّى» أنه في الإمكان الاستماع إلى حديث طيبٍ من أحد جُباة الضرائب.

قال «بروتو»: أبى إنك مهذب أكثر من اللازم.

قال «جاميلان» للمواطن «بروتو»: قَدَّرُوا هذا الشعب الجائع للحرية أكثر من الخبز.. كل واحد هنا كان مستعداً أن يترك مكانه ليعاقب اللص. هؤلاء الرجال وهؤلاء النسوة في فقر مدقع، وبرغم أنهم مطحونون بالحرمان، فإنهم يتمتعون بنزاهة شديدة، ولا يسعهم أن يتسامحوا بصدد أى عمل مشين

أجاب «بروتو» يجب أن نعترف أن هؤلاء القوم قد اتخذوا موقفاً

سيئاً تجاه هذا الراهب الطيب حينما رغبوا في شق النشال ، وتجاه المدافع عنه، وتجاه الذى يدافع عن المدافع عنه . إن حرصهم - وكذلك حبهم الأنانى الشديد الذين يُكُونُهُ لِمَالِهِمْ - دفعهم إلى ذلك ، فالنشال عندما يهاجم أحداً منهم فالجميع يُصبحون مهددين، ومن ثم يحرصون على أن يُعاقبوه... ومع ذلك ، فمن المحتمل أن يكون معظم هؤلاء العمال اليدويين وهؤلاء الشغالات في البيوت، مستقيمين ومن ذوى الصلاح، ويحترمون مال الغير ، وقد أُلْقِيَتْ عليهم هذه الإحساسات وتَبَّهَتْهَا في نفوسهم تربيةً آبائهم وأمهاتهم، الذين عاقبوه بما فيه الكفاية على أردافهم، وزرعوا فيهم الفضيلة منذ طفولتهم .

لم يُخَفِ «جاميلان» عن «بروتو» العجوز رأيه بأن هذه اللغة التى يتحدث بها جديرة بأحد الفلاسفة . فقال : إن الفضيلة طبيعة عند الإنسان وقد وضع الله بذرتها في قلوب البشر .

كان العجوز «بروتو» مُلْجِداً، ونزح من إلحاده نبعاً غزيراً من المذات .

- إننى أرى - أيها المواطن «جاميلان» - أن كلمة ثورى هى من أجل ما هو على الأرض، وأنت بالنسبة إلى السماء تعدُّ محافظاً، ولا يختلف «روبيسبير» و «مارات» عنك في ذلك مطلقاً . ومن الغريب أن الفرنسيين الذين لم يتألموا لِمَلِكٍ من البشر يُصرون على أن يحتفظوا به كملك خالٍ، أكثر طغياناً ووحشية، ولأفما هو الباستيل^(١) والغرفة المحرقة^(٢)

(١) الباستيل سجن بباريس مُهِم سنة ١٧٨٩ .

(٢) يعنى بها المحكمة التى كانت تبث في القضايا الاستثنائية

سيئاً تجاه هذا الراهب الطيب حينما رغبوا في شق النشال ، وتجاه المدافع عنه، وتجاه الذى يدافع عن المدافع عنه . إن حرصهم - وكذلك حبهم الأناى الشديد الذين يُكُونُهُ لملهم - دفعهم إلى ذلك ، فالنشال عندما يهاجم أحداً منهم فالجميع يُصبحون مهددين، ومن ثم يحرصون على أن يُعاقبوه... ومع ذلك ، فمن المحتمل أن يكون معظم هؤلاء العمال اليدويين وهؤلاء الشغالات فى البيوت، مستقيمين ومن ذوى الصلاح، ويحترمون مال الغير ، وقد أُلقيَتْ عليهم هذه الإحساسات وثَبَّتَها فى نفوسهم تربيةً آبائهم وأمهاتهم، الذين عاقبوه بما فيه الكفاية على إردافهم، وزرعوا فيهم الفضيلة منذ طفولتهم .

لم يُخَفِ «جاميلان» عن «بروتو» العجوز رأيه بأن هذه اللغة التى يتحدث بها جديرة بأحد الفلاسفة . فقال : إن الفضيلة طبيعة عند الإنسان وقد وضع الله بذرتها فى قلوب البشر .

كان العجوز «بروتو» مُلجداً، ونزح من إلحاده نبعاً غزيراً من الملذات .

- إننى أرى - أيها المواطن «جاميلان» - أن كلمة ثورى هى من أجل ما هو على الأرض، وأنت بالنسبة إلى السماء تعدُّ محافظاً، ولا يختلف «روبيسبير» و «مارات» عنك فى ذلك مطلقاً . ومن الغريب أن الفرنسيين الذين لم يتألموا لِمَلِكٍ من البشر يُصرون على أن يحتفظوا به كملك خالٍ، أكثر طغياناً ووحشية، وإلا فما هو الباستيل^(١) والغرفة المحرقة^(٢)

(١) الباستيل سجن بباريس هُدم سنة ١٧٨٩ .

(٢) يعنى بها المحكمة التى كانت تبت فى القضايا الاستثنائية

إن «جان جاك روسو» الذى أبدى بعض المواهب، خاصة فى الموسيقى كان عبارة عن «جان - فيس» الذى ادعى أنه استقى الأخلاق من الطبيعة، مع أنه فى الحقيقة أخذها عن مبادئ «كالفان»^(١). إن الطبيعة تُعلمنا أن ينهش بعضنا بعضاً، وتعطى لنا جميع نماذج الجرائم، وجميع الرذائل التى تصحبها الحالة الاجتماعية أو تخفيها .

يجب أن نحب الفضيلة، ولكن من الصالح أن نعرف أن ذلك مجرد وسيلة تَخَيَّلُهَا الناسُ ليعيشوا معاً فى وئام. وما نسميه الأخلاق ما هو إلا عملية يائسة قام بها نظراؤنا ضد النظام العالمى، الذى هو نزاع، وقتال، وصراع بين مختلف القوى العمياء المتضاربة، فهى تدمر نفسها تدميراً ذاتياً، وكلما أفكر فيها أكثر أقنع نفسى بأن الكون ساخط .

إن اللاهوتيين والفلاسفة الذين يجعلون الله خالق الطبيعة، وخالق الكون، يجعلونه يظهر بمظهر لا معقول شرير، وهم يقولون طيب لأنهم يخشونه ، ولكنهم مُجبرون على أن يوافقوا على أنه يتصرف بطريقة وحشية، وينسبون إليه دهاءً نادراً عند الإنسان، ومن ثم يجعلونه معبوداً على الأرض، لأن جنسنا البائس يزهد فى عبادة آلهة عادلة وخيرة، حيث لا يوجد ما يخشاه منهم، ومن ثم لا يحفظ شعبنا لهم جميلاً أو معروفاً غير ذى جدوى .

ولولا الأعراف^(٢) والجحيم لأصبح الإله الطيب مجرد سيد مسكين .

(١) رعيم الإصلاح الدينى فى فرنسا وسويسرا، ولد سنة ١٥٠٩، وتوفى سنة ١٥٦٤

(٢) الأعراف : الحاجرين الحنة والنار

قال الأب لونجمار : لا تتحدث أبداً عن الطبيعة، أنت لا تعرف ما هي .

– بكل تأكيد يا أبى ، أعرف ذلك جيداً مثلك !

– لا تستطيع أن تعرف ذلك، لأنك لا تعتنق أى دين، وأن الدين فقط هو الذى يعلمنا ما هي الطبيعة، وفي أى شىء هي صالحة، وكيف أنها قد حُرِّفت. وفضلاً عن ذلك لا تنتظر ما سوف أجيبك به قائلاً : إن الله لم يمنحني حرارة اللسان لكي أدحض أخطاءك ولا حرارة اللفة، ولا قوة الفكر وكنت أخشى ألا أزدك لعدم كفايتي، إلا بغرض التجديف (١)، وبأسباب التصلب، وعندما أشعر برغبة جامحة لخدمتك، فلن أتلقى مِنْ أَجْلِ ثمرة كرمي الخفية إلا

وتوقفت هذه الكلمات بانبعاث ضوضاء صاخبة بدأت من أول الطابور ، وتندّر الطابور الجوعان بأن المخبز قد فَتَحَ أبوابه. وبدءوا يتقدمون ، ولكن ببطء شديد ، ويقف أحد أفراد الحرس الوطنى يُنظم الطابور ويدخلهم ليشتروا الخبز فرداً فرداً . كان الخباز وزوجته وابنه حاضرين عملية بيع الخبز، وكذلك مفتشان مدينان، يُعلق كل منهما شريطاً ثلاثي الألوان على ذراعه الأيسر ، ليتأكد من أن المستهلكين ينتمون إلى الدائرة ، وأن يسلم إليه النصيب المحدد للأقواه المحتاجة للغذاء .

كان المواطن «بروتو» يجعل من البحث عن المتعة هي الغاية الوحيدة للحياة، ويرى أن العقل والحواس هما فقط القضاة في حالة عدم وجود الآلهة، ولا يمكن إدراك حياة أخرى .

(١) التجديف كفران النعم

وعندما وجد في كلمات «الرسام» الكثير من التعصب، وفي كلمات «الراهب» الكثير من البساطة، ليحصل منها على متعة كبيرة، هذا الرجل الحكيم لكى يُوفَّق بين سلوكه ومذهبه في الظروف الحالية، وليُخفف من طول الانتظار، أخرج من جيب سترته حمراء اللون ، والتي تميل للسواد، أخرج كتابه عن «لوكريس»^(١) الذي ظل أعز ما لديه من ملذات، وموضع سروره الحقيقي. وكان جلد هذا الكتاب الأحمر مجعداً من الاستعمال، وكان المواطن «بروتو» قد كشط بحذر شعارات النبالة الذهبية الثلاث، التي اشتراها أبوه الجابى بمبلغ كبير من المال .

فتح «بروتو» كتابه على الموضع المذكور حيث الشاعر الفيلسوف، الذى يريد أن يشفى الناس باضطرابات الحب ، بلا جدوى، فيَقْاجاً بامرأة بين ذراعى واحدٍ من الخدم في حالة تسمى إلى كل حواس الحبيب .

ويقرأ المواطن «بروتو» أبيات الشعر هذه ، ولكن مع ذلك لا يفوته أن يلقى نظرةً على عُنق جارتة الجميلة، وأن يستنشق بشهوة تلك البَشَرة الرطبة لهذه الفتاة الصغيرة .

الشاعر «لوكريس» لم يكن لديه سوى الحكمة، وتلميذه «بروتو» عنده منها الكثير .

كان يقرأ ، ويخطو خطوتين كل ربع ساعة. وأذنه تتمتع بالإيقاعات الوقورة والمتعددة للشعر اللاتينى. وتطرق أذنه صرخاتُ الثرثرات عن

(١) لوكريس شاعر لاتينى، توفى سنة ٥٣ ق م

غلاء الخبز، والسكر، والبُن، والشمع، والصابون . وهكذا وَصَلَ في هدوء إلى عتبة المخبز، ومن خلفه «إيفاريسست جاميلان» يرى فوق رأسه الحزمة الذهبية على الشبكة الحديدية التي تغلق جبهة الباب .

وجاء دوره، كانت سلال وأرفف الخبز خاوية، وسَلَّمَهُ الخباز آخر رغيف تَبَقَّى، والذي لا يزن رطلين. دفع «إيفاريسست» المطلوب، رَأَغَلَ «الشُّبَّاكُ» على إثرِهِ خوفاً من أن تهجم الجماهير الصاخبة على المخبز، ولكن لم يكن هناك ما يخشى عليه فهو لاء الناس المساكين، جُبِلُوا على الطاعة بواسطة قامعيهم (ظالمهم) القدامى، وبواسطة محرريهم الجدد. ومن ثم ظلوا على حالهم، مُطَاطئى الرءوس يُجَرِّجرون أرجلهم زاحفين .

عندما وصل «جاميلان» إلى منعطف الطريق رأى المواطنة «ديمونتاي» جالسة على قارعة الطريق وطفلها بين ذراعيها، كانت جالسة جامدة شاحبة جافة الدمع، شاخصة البصر، وطفلها يرضع إصبعها بنهم . وقف «جاميلان» أمامها لحظةً خجلانَ متردداً، وكان يبدو عليها أنها لا تراه .

تمتم ببيع الكلمات، ثم أخرج مُدَيْتَه من جيبه، سَكِينَةً بِقَرْنٍ، وقطع خبزه واقتسمه مع المواطنة «ديمونتاي»، واضعاً نصيبها على ركبتي الأم الصغيرة، التي نظرت إليه في دهشة، ولكنه كان وقتئذ قد تجاوز منعطف الطريق .

وعندما وصل إلى مسكنه وجد والدته جالسة إلى النافذة ، كانت تُرتِّق
بعض الجوارب، ووضع بين يديها ما تبقى معه من الخبز وهو سعيد
بذلك ، وقال :

- سامحيني يا أمي الطيبة، فإنني كنتُ متعبًا ، حيث وقفتُ طويلاً ،
وأرهقني الحرُّ الشديد في الطريق، وعند عودتي إلى المنزل أكلت نصف
الخبز لقمةً لقمةً ، وتبقى بالكاد نصيبك .

وتظاهر بأنه ينظف « جاكته » من أثرِ الفُتات المتناثر عليها .



3

قالت المواطنة الأرملة «جاميلان» مستخدمة طريقة قديمة في التعبير . «مِنْ فَرَطْ مَا نَأْكُل الْقَسْطَلْ سوف نتحول إلى قسطل». في هذا اليوم الموافق ١٣ يوليو، كانت هي وابنها يتناولان حساء القسطل، ولما انتهيا من هذه الوجبة القاسية دَفَعَتْ سَيِّدَةُ الباب فجأة، وملأت المكان بتألقها وبعطرها. ويعرف «إيفاريسست» أنها المواطنة «روشيمور»^(١).

اعتقد أنها أخطأت الباب، وأنها تقصد المواطن «بروتو» صديقها القديم. وفكر في أن يدلها على المخزن المواجه، أو يستدعي «بروتو» من أجلها وَيُجَنِّبُ المرأة الأنيقة أن تتسلق سلم الطحان، ولكن يبدو من البداية أنها كانت تقصد المواطن «إيفاريسست جاميلان» في عمل، لأنها أخبرته بأنها سعيدة بأنها قابلته وتُدعى إلى مائدته .

لم يكونا غريبين عن بعضهما : لقد تقابلا عدة مرات في مرسوم «دافيد»، وفي إحدى منصات الجمعية، وعند اليقوبيين، وعند صاحب المطعم فينوا، لقد لفت انتباهها بجماله، وبشبابه، ومظهره الجاد .

(١) الكونتيسة دي روشيمور شخصية تمثل اللاوعي والاصلاية لسيدات المجتمع في فرنسا في العهد القديم .

كان يرتدى قبعة مُزينة بشريط مثل زمارة القصب، ومزينة بالريش مثل أحد النواب في مهمة، وكانت المواطنة «روشيمور» تضع على رأسها «باروكة» مستعارة، مُخضبة، ومُرَقَّشة، مُمسَّكة، بعطر المسك، والجسد أيضًا كان بضًا، يغطيه الكثير من التكلفة والتصنع.. هذه الأشياء الصناعية الصارخة من أجل الموضة كانت تُشوه النمط السريع للحياة، وحُمى هذه الأيام الرهيبة التي لا نضمن فيها بزوغ يوم جديد.

وكانت ترتدى ثوبًا عريض الرفاف، طويل الذيل، يضوى لكثرة ما فيه من أزرار كبيرة مصنوعة من الفولاذ الأحمر القاني في آن واحد، إذ كانت تتزين بثوب يتميز بألوان الضحايا وبألوان الجلاذ.

وكان يرافقها أحد الشبان العسكريين، جندي فارس، وكانت مُمسكة العصا الصدف الطويلة في يدها، وهى طويلة وجميلة وممتلئة، وصدرها عريض.. وقامت بجولة في الرسم، كانت تقرب نظارتها الذهبية من عينيها الرماديتين، تتفحص لوحات الرسام وهى تبتسم، وتتصايح إعجابًا بجمال الفنان، وتطريه ليمدحها. وتسأل المواطنة.

— ما هذه اللوحة النبيلة والمؤثرة في القلب.. امرأة رقيقة وجميلة بالقرب من شاب مريض ؟

أجاب جاميلان بأنها يجب أن ترى فيه «أوريست»، ترعاه شقيقته «إليكترا»، وأنه إذا استطاع إتمامها فربما كانت أقل أعماله رداءة.

وأضاف : إن الموضوع مأخوذ عن «أوريست» للكاتب «يوريبيد».

وكنْتُ قرأتُ، في ترجمة قديمة لهذه المأساة مشهدًا قد أثر في، وأثار إعجابي، وهو يصور «إليكترا» الشابة وهي ترفع شقيقها على فراشه من الألم الذي يُحسسه، وتجفف الرغاوى التي تلتطخ فمه، وتُبعد عن عينيه الشعر الذي يخفيهما، وترجو أخواها العزيز أن يُصغى إلى ما سوف تقوله له في صمت آلهة العذاب وعندما قرأتُ هذه الترجمة، وأعدتُ قراءتها، شعرت كأن غشاوة حجبت عنى الأشكال أو الصُور اليونانية، وأننى لم أستطع أن أبدوها .

لقد تصورتُ النص الأصلي أكثر عصبية، وله نمط آخر . وتأججت في نفسى رغبة أن صنع منها فكرة صحيحة، وطلبت من الأستاذ «جيل» الذى كان يُدرّس اللغة اليونانية في ذلك الوقت في «الكوليج دى فرانس» (وكان ذلك في عام ١٧٩١)، أن يشرح لى هذا المشهد كلمة كلمة ويوضحه لى كما طلبت منه. رأيت أن القدماء كانوا أكثر بساطة وأكثر ألفة مما كنا نتصور .

واليك ما قالته «إليكترا» إلى «أوريست» : «أخى العزيز، كم أن نومك يسعدنى ! هل تريد أن أساعدك لتنهض ؟». وأجاب أوريست : «نعم، ساعدنى، خذنى، جففى هذه البقايا من الرغاوى حول فمى وعَيْنَى. وضعى صدرك على صدرى، وأزىحى عن وجهى شعرى المعقد ، لأنه يحجب عينى ...».

وبناء على هذا الشَّعر الجميل القوى والمؤثر، وهذه التعبيرات الساذجة، رسمتُ خطوط هذه اللوحة التى ترينها أيتها المواطنة .

هذا الرسام الذى عادة ما نتحدث عن أعماله باختصار لم ينضب حديثه عن هذه اللوحة، وقد شجعه على ذلك إشارة صدرت من المواطنة «روشيمور» عندما خلعت نظارتها ، فاستطرد قائلاً :

- اختار «هاننيكان» أساساً مخاوف «أوريست»، ولكن «أوريست» أثّر فينا بأحزانه أكثر مما أثّر فينا بمخاوفه. ويالمصيره ! كان ذلك عن حب الوالدين، وعن طاعة للقوانين المقدسة ارتكب هذه الجريمة، التى لا بد أن الآلهة تسامحه فى ارتكابها، ولكن الناس لن يسامحوه أبداً . وقد أنكر الطبيعة لينتقم من أجل العدالة المهانة، وجعل من نفسه وحشاً، وانتزع أحشاه بنفسه، وظل فخوراً تحت وطأة الجُرم الشنيع والفاضل الذى ارتكبه... هذا ما كنت أريد أن أوضحه بالنسبة لهذه اللوحة للأخ والأخت.

ثم اقترب من اللوحة ونظر إليها بإعجاب ، وقال :

- لقد فرغتُ من بعض الأجزاء تقريبا، كراس «أوريست» وذراعيه، على سبيل المثال .

● إنها قطعة تُثير الإعجاب ... و «أوريست» يُشبهك، أيها المواطن «جاميلان».

- هل لاحظت ذلك ؟ قالها بابتسامة وقورة .

وتناولت المقعد الذى قدّمه إليها «جاميلان» وظل الجندي الفارس واقفاً إلى جانبها، ويده على مسند المقعد حيث كانت جالسة، ومن ثم يمكن للمرء أن يعرف أن الثورة كانت قائمة ، ففى العهد القديم لم يكن فى

استطاعة أى رجل فى معية امرأة أن يلمس - ولو بأصبعه - أى مقعد تجلس عليه ، ذلك ما تفرضه التربية الصارمة لمتطلبات الأدب ...

كانت «لويز ماشيه دى روشيمور» ابنة أحد ضباط الصيد عند الملك، وأرملة أحد النواب، وصديقة حميمة لمدة عشرين عام لجابى الضرائب «بروتو ديزيليت»، وقد اندمجت مع المبادئ الجديدة. وشوهدت فى عام ١٧٩٠ - فى شهر يوليو - تحرث أرض حقل «شامب دى مارس» .

ومع أن نزوعها الحازم من أجل السلطات قد نُقِلَها بسهولة من «الرهبان» إلى «الجيروندان» وإلى الجباليين (المنشقين)، فإن روح المصالحة، وحرارة المعانقة، وقدرة الكيد يجعلونها تنتمى أيضاً إلى الأرستقراطيين، وإلى المناهضين للثورة .

كانت شخصية لها صيت كبير جداً، حيث كانت تترددُ على الحانات، والمسارح، والمطاعم، والبيوت المشبوهة، والصالونات، ومكاتب الصحف، وغرف انتظار اللجان . وقد كانت الثورة تأتينا بالطرائف واللهو، والابتسام والسرور، والمعاملات المثمرة .. وكانت لها مغامرات سياسية وغرامية، وتلعب على القيثارة، وترسم مناظر طبيعية، وتتغنى بالأغاني العاطفية، وترقص الرقصات اليونانية، وتقيم ولائم للعشاء، وتستقبل سيدات جميلات، مثل «الكونيسية دى بوفور»، والممثلة «ديكوان»، وتقضى طوال الليل جالسة إلى الطاولة وهى فى أبهى ثيابها، ومنضبطة، تحيا حياة كلها مغامرات، وكذلك يتوافر لها الوقت لكون تكون شغوفة نحو أصدقائها .

وكانت فضولية، تُحب التحرك، مربكة، عابثة، عارفة بالرجال، جاهلة بالعامية .. والآراء التى تتقاسمها مثل الآراء التى يجب أن ترفضها، ولا تفهم شيئاً مطلقاً عما يجرى فى فرنسا، وتبدو جريئة ، صعبة المراس، وتتمتع بمهارة فائقة فى تجاهل الأخطار، وبثقة لا حد لها فى تأثير مفاتها.

كان الجندى الذى يصطحبها فى زهرة شبابه. وكانت خوذته من النحاس، مزينة ومبطنة بجلد الفهد ، وينسدل على ظهره شعر غزير مثل عرف الخيل . والجاكت الذى يرتديه كان أحمر اللون، على شكل صديرية، يحرص على أن يكون واصلا حتى الحقو، حتى لا تخفى أناقته الانحناء . وكان يتمنطق بسيف طويل، تشبه قبضته منقار الصقر، وكانت تبدو متألقة. ويرتدى سروالاً بشريط أزرق خفيف ، يضم العضلات الأنيقة لساقيه، وشرائط مضمرة لونها أزرق قاتم، مرسوم عليه زخارف عربية على فخذه . كان يبدو عليه مظهر راقص يرتدى زيّاً خاصاً يصلح لتمثيل دور عسكرى أنيق، فى قصة «أشيل بسيروس»^(١)، أو «أفراح الإسكندر»، لأحد تلاميذ «دافيد»، الحريص على تضيق الشكل.

اختلط الشُّبُه على «جاميلان»، وتذكَّر أنه رأى هذا الجندى من قبل منذ خمسة عشر يوماً، كان يخطب فى الناس عند منصات مسرح الأمة .

قدمته المواطنة «روشيمور» بِاسْمِهِ قَائِلَةً .

(١) أشيل أحد أبطال الإلياذة . وسيروس من جرائر بحراية

- «المواطن» هنري» عضو اللجنة الثورية لقطاع حقوق الإنسان». كانت متعلقة به دائماً، كمرأة للحب، وشهادة حُبٍّ للوطنية .

أشادت المواطنة بجاميلان ومواهبه، وسألته عما إذا كان يوافق على أن يرسم لوحة لإحدى بائعات القبعات يهملها أمرها. كان سيختار لها موضوعاً خاصاً : امرأة تقيس إشارياً أمام مرآة، على سبيل المثال ، أو عاملة صغيرة تحمل تحت إبطها علبة بها قبعات .

ولما كانوا قادرين على تنفيذ مثل هذا العمل الفني البسيط من هذا النوع، حدثوها عن «ابن فراجونارد»، وعن الصغير «دوسى» وكذلك المدعو «برودوم»، ولكنها فضّلت مخاطبة المواطن «إيفاريست جاميلان».. ومع ذلك فهي لم تنته إلى شىء فيما يتعلق بهذا الموضوع، ويبدو أنها قد طلبت هذا الطلب فقط لتخوض في المناقشة، ولكنها في الواقع جاءت من أجل أمرٍ آخر تماماً، فقد طالبت المواطن «جاميلان» بخدمة هامة لأنها كانت تعرف أنه على علاقة بالمواطن «مارات»، وكانت تريد أن يُدخلها عند « صديق الشعب »، حيث تريد أن تتحدث معه .

أجابها «جاميلان» بأنه شخصية صغيرة لا يستطيع تقديمها إلى «مارات»، وأن «مارات»، بالرغم من أنه يرنح تحت عبء المشاغل، فهو ليس الرجل الذى يرفض مقابلة أحد .

وأضاف «جاميلان» .

- سوف يستقبلك أيتها المواطنة لو كنت بائسة، لأن قلبه الكبير يجعله

حقياً بعائر الحظ، ورحيماً بكل من يتألم، سوف يستقبلك لو كان لديك ما يتعلق بأمان الشعب.. لقد كرس حياته لإمالة اللثام عن الخونة .

أجابت المواطنة «روشيمور» بأنها ستسعد بأن تُحيى في «مارات» وطنياً شريفاً قدم للبلد خدمات جليلة، وهو جدير بأن يقدم أكثر من هذا أيضاً، وأنها تتمنى أن تقدم هذا المُشَرَّع إلى بعض الرجال المرموقين، محبّي الإنسانية، والخيرين الذين لديهم الثروة، وهم جديرون بأن يمولوه بإمكانيات جديدة ليُشفى غُلة حبه الملتهب للبشرية.

وأضافت : إنه من المرغوب فيه أن يساعد الأثرياء في تحقيق رفاهية الشعب .

حقاً ، لقد وعدن المواطنة الممول البنكي «مورهاردت» أن تجعله يتناول العشاء مع «مارات».

وكان «مورهاردت» سويسرياً مثل صديق الشعب، وكان مرتبطاً بالعمل مع كثير من النواب في الجمعية الوطنية، «جوليان»^(١) (من تولوز) و «ديلوناي» من (أبجير) والكابوش السابق «كابو»^(٢) ليتنافسوا على أسهم شركة الهند .

فالعملية غاية في البساطة، تقوم على أساس أن يرسو سعر هذه الأسهم على ٦٥٠ جنيتهاً بالتلاعب حتى يمكن شراء عدد كبير منها بهذا

(١) جوليان راج من تولوز متهم في قضية شركة الهند. نجح في الاختفاء حتى الثرميدور
(٢) كابو ، فرانسوا كابوش سابق، انضم إلى المؤسسة المدنية للأكليروس تم انتخابه في الجمعية التشريعية. وطالب يسقوط الملك. لم يقاوم مذبحه سبتمبر. مشتبه فيه هو والبارون باتز، تم إعدامه بالمقصلة في الرابع من أبريل ١٧٩٤ مع دانتون وأصدقائه

السعر، على أن يرفع السعر بعد ذلك إلى ٤٠٠٠ أو ٥٠٠٠ جنيه بحوافز مُطمئنة .

ولكن «كابو» و «جوليان» و «ديلوناي» اكتشف أمرهم . وحامت الشبهات حول «لاكِزْوَا»^(١) و «فاير ديجلاننتين»، وحتى «دانتون». وكان الممول البنكي «البارون دي باتز»^(٢) يبحث عن شركاء جُدد في الجمعية الوطنية، فنصح الممول البنكي «مورهاردت» بأن يقابل «مارات» .

لم تكن فكرة المضاربين بالأسهم المالية للمناهضين للثوريين، لم تكن غريبة كما كانت تبدو في البداية، فدائمًا هؤلاء الناس يجتهدون في أن يجتمعوا بالسلطات الجديدة، و «مارات» بشعبيته، وبقلمه، وبأخلاقه، كان سلطة تثير الإعجاب .

وكان الجيروندان يضمحلون، وأنصار «دانتون» هزمتهم العاصفة، ولن يحكموا أبدًا. وكان «روبسبير» معبود الشعب، تقيًا، وغيورًا وشكًا، وغير مندفع . وكانت الضرورة تقضى بأن يُحاط بمارات، والتأكد من رفقه بالنسبة إلى اليوم الذي قد يصبح فيه ديكتاتورًا ، والكَل يتكهن بأنه سيكون جبارًا وطاغية في يوم من الأيام ، يدل على ذلك

(١) دي لاكروا، جان فرانسوا . محام منتخب في الجمعية التشريعية وفي الجمعية الوطنية، صديق دانتون . معارض لروبسبير بشدة، عضو في لجنة أمن الشعب، هاجم الجيروندان متهم بالإخلال «بأمانة الوظيفة»، وبإصدار نقود مزيفة، إلخ... مات مع دانتون في الخامس من إبريل ١٧٩٤ .

(٢) البارون دي باتز . نائب عن الولايات ، ومنافس مجازف ، كان يحاول إنقاذ الملك وأن يُهرب الملكة، ويبدو أنه دفع كابو وديلوناي وجوليان دي تولوز إلى المزايدات على الأسهم التابعة لشركة الهند . نجح في الإفلات من المصيدة .

شعبيته، وطموحه، والمسارة للتحكم في أقوى الموارد. وربما بعد كل ذلك يؤسس «مارات» النظام ويصلح المالية، وينشر الرفاهية. وقد ثار «مارات» عدة مرات ضد الحمقى الذين يزايدون عليه بالوطنية، ولم ينفك منذ زمنٍ أن حَذَّرَ المشاغبين بنفس الدرجة تقريباً التي حذر بها المعتدلين. وبعد أن أثار الشعب لشنق الذين يحتكرون أقوات الشعب في حوانيتهم المنهوبة، وحض المواطنين على الهدوء والحذر، أصبح رجل حكومة.

وبالرغم من بعض الشائعات التي تدور حوله، كما كانت تدور حول جميع رجال الثورة فإن هؤلاء المتطفلين لا يعتقدون أنه مُرْتَشٍ، ولكنهم يعرفون أنه مُتَبَاهٍ، وسريع التصديق، ويتعشّمون أن يكسبوه بالإطراء والمديح، وخاصة بألفة متسامحة، والتي يعتقدون من ناحيتهم أنها من أفضل الإطراء الخادع، ويحسبون أنهم بفضل ذلك سوف يلعبون على الوجهين، ساعة معه، وساعة عليه، وينالون ما يرمون إليه من بيع وشراء كُلِّ ما يريدون، ويدفعونه إلى خدمة مصالحهم، ظناً منه أنهم لا يعملون إلا لصالح الشعب.

المواطنة «روشيمور» ماهرة في تهيئة الأجواء، خاصة وهي لا تزال في سن الحب والغراميات، فاضطلعت بمهمة الجمع بين الصحفي والعضو في الهيئة التشريعية، وبين الممول البنكي، وتصورها الجنوني قَدَّمَ لها رجل أموال المقامرة الذي لا تزال يداها مخضبتيْن بدماء شهر سبتمبر، مشتركاً في حزب المالين، حيث تعتبر هي وكيلة لهم. وألقت بحساسيتها وبراءتها في خضم هذه الأعمال المالية المربحة في هذا العالم الذي تحبه:

عالم المحتكرين، والممولين، والمبعوثين من الخارج، والمشاركين في المشروع، وذوات الدّلال المتحذلقات .

أصرت على أن يصطحبها المواطن «جاميلا» عند صديق الشعب ،
الذى يقيم غير بعيد في شارع كورديلييه، بالقرب من الكنيسة.
وبعد أن أبدى بعض المقاومة أذعن الرسام لرغبة المواطنة .

أمّا «هنرى» الجندى الفارس فقد دُعِيَ للانضمام إليهما، ولكنه
يرفض راغبًا في المحافظة على حرّيته، حتى حيال المواطن «مارات» الذى -
بلا مرأى - قدّم خدمات إلى الجمهورية، ولكنه الآن قد وهنت عزيمته، أفلم
يُشِرْ على شعب باريس بالانقياد ؟

ويرثى الشاب «هنرى» - بصوت منغم وبتنهيدات طويلة -
الجمهورية التى خانها مَنْ علّقت عليهم آمالها ، «دانتون» رفض فكرة
الضريبة على الأغنياء ، و «روبيسبير» يعارض الدوائر ، و «مارات» ،
نصائحه الجبانة كانت تحطم حماس المواطنين .

- صاح «هنرى» : أوه ! يا للضعف هؤلاء الرجال حيال «لوكيريك»^(١)،
و«جاك رو»^(٢) ! إنهما - «لوكيريك» و «جاك رو» - صديقا الشعب

(١) لوكيريك استعبده يعقوبيون لتطرفه، وانتقل إلى الرهمان الفرنسي سكان، ونادى بنفسه خليفة
لمارات .

(٢) جاك رو كاهن صدر ضده حكم يُحرّم عليه ممارسة وظيفته وهو أحد أعضاء مجلس العموم
الأشدّ عنفًا، فقد رفض طلبهم بأن يقوم بإعدام لويس السادس عشر وقال : «إننى هنا فقط لكى
أصطحبكم إلى المشقة» وعندما أُرسِل إلى محكمة الثورة في سبتمبر ١٧٩٣ ، طعن نفسه

الحقيقيان ! «جاميلان» لم يسمع هذا الحديث، الذى قد يجعله ناقماً، كان قد ذهب إلى الغرفة المجاورة لكى يرتدى زيه الأزرق .

قالت المواطنة «روشيمور» للمواطنة جاميلان : «لَكِ أن تتفاهرى بولدك، إنه عظيم بموهبته وبأخلاقه» .

وتجيب المواطنة الأرملة جاميلان بشهادة طيبة عن ابنها دون كبرياء أمام سيدة كريمة المحتد، لأنها تعلمت منذ طفولتها أن أول واجب للصغار هو التواضع نحو الكبار . وقد كانت ميالة إلى الشكوى، وكانت تجعل من شكواها موضوعها الرئيسى، لأنها تجد فى شكواها مواساة لآلامها . وتكثر من شكواها أمام هؤلاء الذين تعتقد أنهم قادرون على مواساتها، ومدام «دى روشيمور»، تظن أنها من ضمن هؤلاء . لقد استثمرت اللحظة المواتية، قصت فى نفس واحد يؤس الأم والابن، والاثنان يتصوران جوعاً، حيث لا تُباع أى لوحات، فالثورة قضت على التجارة، كأنها ذبحتها بسكين. والمواد الغذائية أصبحت نادرة، والأسعار ليست فى متناول الأفراد ...

وتتمادى السيدة الطيبة فى شكواها بكل زلاقة اللسان من شفيتها اللينتين، حتى تستطيع أن تقول كل ما لديها بسرعة قبل أن يظهر ابنها الذى يمنعه دائماً كبرياؤه عن أى شكوى .

وكانت تحاول جاهدة فى أقصر وقت ممكن أن تؤثر فى سيدة ترى أنها ثرية ومرموقة، وتجعلها تهتم بمصير ابنها. وكانت تشعر بأن جمال «إيفاريسست» يلعب دوراً كبيراً ليجذب حنان امرأة كريمة الأصل .

وفي الواقع أبدت المواطنة «روشيمور» تأثرها ، فقد تأثرت بفكرة آلام «إيفاريسست» ووالدته، وبحثت عن الوسائل التي تخفف هذه الآلام، وعملت على شراء أعمال الرسام عن طريق بعض أصدقائها الأثرياء .

وقالت وهي تبتسم : إنه توجد في فرنسا أموال لا تزال مخبوءة .

وأفضل من ذلك أيضًا (نظرًا لأن سوق الفن قد كَسَدَ)، فهي ستجد عملاً من أجل «إيفاريسست» عند «مورهاردت» أو عند الإخوة بيريجو، أو وظيفة حكومية عند أحد ممولى الأسلحة. ثم فكرت في أن ذلك لا يناسب رجالاً يتمتع بهذه الأخلاق، وبعد لحظة إمعان في الفكر، صدرت منها حركة بأنها وجدت الحل :

- بَقِيَ تعيين الكثير من المحلفين في محكمة الثورة. يُعَيَّنُ مُحْلَفًا أو قَاضِيًا، هذا هو الذى يناسب وَلَدِكِ. إننى على صلة مع أعضاء لجنة الخلاص الشعبى، وأعرف روبسبير البكرى، فأخوه يتناول العشاء دائماً عندى. سوف أكلهم في الأمر ، وسأتكلم مع كل مونتانيه^(١)، وديماس^(٢)، وفوكييه^(٣) .

وهنا بَدَت المواطنة جاميلان متأثرة ومعترفة بالجميل، ووضعت

(١) مونتانيه : قاضٍ من تولوز ، وأول رئيس لمحكمة الثورة، طُرِدَ بسبب « اعتداله »

(٢) ديماس، رينيه فرانسوا كاهن سابق ، ومحام في حماية روبسبير، ونائب رئيس محكمة الثورة التي رأسها اعتبارًا من الثامن من أبريل ١٧٩٤، يتمثل فيه التعصب الذى وصفه أتانول فرانس تم إعدامه بالمقصلة هو وروبسبير في الثامن والعشرين من يوليو ١٧٩٤

(٣) فوكييه - تانفيل . عُيِّنَ مدعيًا عامًا في محكمة الثورة في مارس ١٧٩٣، وصحبه روبسبير إلى المقصلة

أُصْبِعُهَا عَلَى فَمِهَا كإِشَارَةٍ لِلتَّوَقُّفِ عَنِ الْكَلَامِ، فَقَدْ عَادَ «إِيفَارِيست» إِلَى الْمَرْسَمِ .

نَزَلَ «إِيفَارِيست» وَالْمَوَاطِنَةُ «رُوشِيمُور» عَلَى السَّلْمِ الْمَظْلَمِ، كَانَتْ دَرَجَاتُهُ الْخَشَبِيَّةُ وَالكَارُوهَاتُ، مَغْطَاةٌ بِقَذَارَةٍ قَدِيمَةٍ .

وَعَلَى «الْبُون -نُوف» - وَكَانَتْ الشَّمْسُ غَائِمَةً - كَانَتْ تَمْتَدُّ الظَّلَالُ عَلَى قَاعَةٍ تَمَثَّلُ لِحَصَانٍ بَرُونَزِيٍّ، وَتُزِينُهُ الْآنَ أَعْلَامُ الْأُمَمَةِ، وَكَانَ هُنَاكَ جَمْعٌ غَفِيرٌ مِنَ النَّاسِ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ يَسْتَمْعُونَ، كَانَتْ كُلُّ مَجْمُوعَةٍ صَغِيرَةٍ عَلَى حِدَةٍ، كَانُوا يَسْتَمْعُونَ إِلَى مَوَاطِنِينَ يَتَحَدَّثُونَ بِصَوْتٍ مُنْخَفِضٍ .

وَكَانَ الْجَمْعُ وَاجِعًا، يَلْتَزِمُ الصَّمْتَ، الَّذِي يَتَخَلَّلُهُ عَلَى فتراتٍ أُنَاتٌ وَصِيحَاتٌ غَضَبٍ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ كَانَ يَسْرِعُ الْخُطَى نَحْوَ الطَّرِيقِ، شَارِعِ ثِيُونْفِيلِ، (شَارِعِ دُوفِينِ سَابِقًا)، وَيَنْسَابُ «جَامِيلَان» بَيْنَ إِحْدَى هَذِهِ الْجَمَاعَاتِ، فَقَدْ سَمِعَ أَنَّ «مَارَات» قَدْ أُغْتِيلَ مِنْذُ قَلِيلٍ .

وَرِيدًا رَوِيدًا كَانَ النَّبَأُ يَتَأَكَّدُ وَيَتَحَدَّدُ، فَقَدْ أُغْتِيلَ فِي مَقْصُورَتِهِ، عَلَى يَدِ سَيِّدَةٍ جَاءَتْ مُتَعَمِّدَةً قَتْلَهُ مِنْ «كَان»^(١). الْبَعْضُ يَعْتَقِدُ أَنَّهَا هَرَبَتْ، وَلَكِنْ الْأَغْلَبِيَّةُ تَقُولُ إِنَّهَا اعْتُقِلَتْ

كَانُوا هُنَاكَ جَمِيعًا، كَأَنَّهُمْ قَطِيعٌ لَا رَاعِيَ لَهُ. وَكَانَ الْجَمْعُ يَقُولُونَ «إِنْ «مَارَات» إِنْسَانٌ حَنُونٌ، وَخَيْرٌ.. «مَارَات» لَنْ يَقُودَنَا بَعْدَ، وَهُوَ الَّذِي لَمْ يَخْطِئْ قَطْ، وَكَانَ يَتَوَقَّعُ كُلَّ شَيْءٍ، وَكَانَ يَجْرُو عَلَى أَنْ يُظْهِرَ

(١) «كَان» إِحْدَى الْمَدَنِ الْفَرَنْسِيَّةِ

كل شيء! ما العمل؟ وما الحيلة؟ لقد فقدنا مستشارنا، والمدافع عنا، وصديقنا». إنهم يعرفون من أين جاءت الضربة، ومن الذى صَوَّبَ ذراع المرأة. إنهم يتألمون.. ويقول الجمهور:

- إن الأيدي الآثمة التى ضربت «مارات» هى نفسها التى تريد أن تقضى علينا. إن موته علامة لذبح جميع الوطنيين.

اختلفت التقارير حول ظروف هذا الموت المأساوى، وأُخِرَ كلمات الضحية، وجرَت التساؤلات حول القاتلة، التى لا يُعرف عنها سوى أنها سيدة شابة أرسلها الخونة الفيدراليون.

أما المواطنين فقد كَثُرَ عن أنيابهن، وأبرزن مخالبنهن من مكامنهن، وتَوَعَّدْنَ المجرمة بالتعذيب، ووجدن أن المقصلة بالنسبة لها رقيقة ليّنة، فطالبن بِجُلْد هذه الغولة الآثمة، ورَبَطُها فى عجلة التعذيب والتمزيق، وتخيلن شتى ألوان التعذيب.

وكان بعض أفراد الحرس الوطنى المسلحون يسحبون إلى القطاع رجلاً يبدو عليه مظهر الواصل. كانت ملابسه مُمزَّقة، وتسيل الدماء خطوطاً على وجهه الشاحب، فقد فَاجَتْهُ وهو يقول إن «مارات» يستحق المصير الذى آل إليه بتحريضه دائماً على السلب والنهب والقتل. وبصعوبة بالغة تمكن جنود الحرس الوطنى من انتشاله من بين برائن الشعب الغاضب.. وكانت تشير إليه أصابع الاتهام بأنه متواطئ مع القاتلة. وارتفعت صيحات التنديد والتهديد بالموت عند مروره.

ظل «جاميلان» يملكه الغيظ والألم، وجفت دموعه في مقلتيه المتقدتين، وامتزجت آلامه البنوية مع الحماس الوطني والإصلاح الشعبى ليمزقوه داخليًا، وكان يفكر :

«.. «مارات» بعد «لوبيلتييه»، وبعد «بوردون»^(١)!... كنت أعرف مصير الوطنيين الذين دُبِحوا ففى «شأى دى مارس»، وفى «نانسى» وفى «باريس».. لقد هلكوا جميعا!».

وكان يفكر فى الخائن «ويمبفين»^(٢) الذى كان منذ عهد قريب أيضًا على رأس حشد فوضوى يبلغ ستين ألفًا من الملكيين ساروا نحو باريس، والذى لولا أن ألقى القبض عليه فى «فيرنون» بأيدى الوطنيين الشجعان، لكان أشعل الفتنة فى المدينة الباسلة والمنيعه .

وكم من الأخطار أيضًا كَشَفَهَا «مارات»، وكم من مشروعات إجرامية وخيانات، لا يمكن إلا لِجَكْمَةِ وِيقْظَةِ «مارات» معرفتها وإحباطها ! من يستطيع من بعده أن يتعرض إلى «كوستين»، العاطل فى معسكر سيزار، والذى يرفض فك الحصار عن «فانسيان»، أو «بيرون» الكسول^(٣) فى فاندنيه - السفلى، تركه يستولى على «سومور» ويحاصر «نانت»، و«ديلون»^(٤) الخائن للوطن فى «أرجون»؟...

(١) بوردون، ليونارد : محامٍ وخطيب، ومنتخب فى الجمعية الوطنية عن لواريه . ساهم فى التيرميدير التاسع

(٢) ويمبفين قائد فرنسى، ولد سنة ١٧٤٤، ومات سنة ١٨١٤ .

(٣) «بيرون» قائد فرنسى . قُطِعَ رأسه سنة ١٧٩٣

(٤) «ديلون» قائد ولد فى دبلن سنة ١٧٤٥، وخدم فى فرنسا

وعندئذ يزداد الصراخ من حوله، من لحظة إلى أخرى، ويتعالى الهتاف المشؤم :

– مات «مارات»، قتله الأرسقراطيون !

وبينما كان القلب مفعماً بالألم والبغض والصبابة ذهبَ لتأبين شهيد الحرية، واقتربت منه فلاحه عجوز ترتدى غطاء رأس لِيْمُوزَنِي^(١)، وسألته عما إذا كان السيد «مارات» الذى أُغتيل، أليس هو السيد «مارات» القس، من «سان بيير – دى – كاي روا»^(٢)...



في اليوم السابق للعيد ، ذات مساء هادئ ومضى، كانت «إيلودى» متأبطة ذراع «إيفاريست» يتنزهان في ميدان الفيديراسيون، (أى ميدان الاتحاد الفيدرالى).

وكان عمال ينجزون على عَجَلَةٍ منهم إقامة أعمدة، وتماثيل، ومعابد، وجبل، وكنيسة. وتُنصب رموزٌ عملاقة، هيرقل شعبى يلوح بهراوته، والطبيعة ترضع الكون من ضرعها الذى لا ينضب.. كانت هذه الرمزيات منتصبة في العاصمة التى صارت فجأة فريسة للمجاعة وللإرهاب، وكان أهلها يُنصتون لسماع المدافع النمساوية في طريق «المو»^(٢).

وعوّضت «الفاندية» فشلها أمام «نانت» بانتصارات باسلة، دائرة من السيوف والنيران ومن الغضب تحيط بالمدينة العظيمة الثائرة، وعلاوة

(١) نسبة إلى «ليموزن» بلد في فرنسا .

(٢) «المو» مدينة فرنسية صغيرة .

على ذلك كانت تستقبل بعظمة نواب الجمعيات الأولية الذين تقبلوا الدستور ، وكان الاتحاد الفيدرالى قد هزم ، وستهزم الجمهورية الواحدة التى لا تتجزأ جميع أعضائها .

ويقول «إيفاريست» باسطقاً ذراعيه على السهل المزدحم :

- «هنالك، فى ١٧ يوليو ١٧٩١ أطلق «بايى» الخائن النار على الشعب عند سفح كنيسة الوطن . وكان المدعو «باسافان» - رامى القنابل اليدوية - شاهداً على المذبحة، وعندما عاد إلى منزله مَزَقَ ملابسه وصاح: «لقد أقسمتُ أن أموت مع الحرية، ولكنها ليست حرية أبداً ، لابد أن أموت»، وأطلق الرصاص على رأسه .

وبعد ذلك، قام الفنانون والبورجوازيون، فى هدوء، بفحص استعدادات العيد، يُقَرَأ على وجوههم حب الحياة النكدة كحياتهم أنفسهم: إن أعظم الأحداث عندما تدخل فى فكرهم، تنتقص من حجمها، وتصبح تافهة مثلهم. وكان كل زوجين يسيران يحملان بين ذراعيهما، أو يجران خلفهما، أو يجرى أمامهما أطفال لم يكونوا على درجة كبيرة من الجمال مثل والديهم، ولا يُؤْمَل بأن يكونوا أكثر سعادة، والذين سيهبون الحياة لأطفال آخرين على درجة متوسطة مثلهم من البهجة والجمال . وأحياناً نَرى فتاةً طويلة وجميلة التى توحى فى مرورها أمام الشباب برغبة عظيمة، وللعواجيز بأسفٍ على الحياة الجميلة» .

وبالقرب من المدرسة العسكرية، أشار «إيفاريست» لإيلودى إلى

تماثيل مصرية رسمها «دافيد» تبعاً لنماذج رومانية من عهد «أغسطس».. وهناك يسمعان عجزاً باريسياً مُعَفَّراً يصيح :

- إن المرء ليظن نفسه على ضفاف النيل^١

«إيلودي» لم تر صديقها منذ ثلاثة أيام، فقد تعرض متجر «لامور بانتر» إلى أحداث هامة. استدعى المواطن «بليز» إلى لجنة الأمن العام من أجل غش الواردات.. ولحسن الحظ، أن تاجر «الرشم»^(١) كان معروفاً في قطاعه، فأطلق سراحه بضمان لجنة مراقبة القطاع .

وبعد أن سردت هذا الحدث وهى متأثرة، أضافت «إيلودي» :

- والآن نعيش في هدوء، ولكن الإنذار كان شديداً، كان لابد من حدوث ذلك ، حتى لا يُودع أبى في السجن. ولو كان الخطر تأخر قليلاً، لكنت جئتُ إليك أطلب منك التدخل بنفوذ بعض أصدقائك لصالحه .

ولم يُجب «إيفاريسست» عن ذلك، وقد كانت «إيلودي» بعيدة عن أن تدرك معنى هذا الصمت. كانا يسيران - يده في يدها - بحذاء جرف نهر السين . كانا يتبادلان حديثاً حنوناً بلغة جُولى وسان برو^(٢)، وقد منحهم جان جاك الطيب وسائل التعبير عن حبهم وتزيينه .

وقد قامت دار البلدية بتكملة هذه المعجزة، حتى يعم الخير في يوم من الأيام تلك المدينة الجائعة، فأقامت سوقاً في ميدان الأنفاليد، وعلى ضفة

١) المراد بالرشم الصور المطبوعة .

٢) اسم رواية لجان جاك رسو ، أغوى فيها سان برو الفتاة جولى .

النهر ، فأقامت أكشاكاً بها تجار يبيعون خبزاً أسطوانياً الشكل ،
ومقانق ، وسجقاً ، ولحم خنزير مغطى بورق اللورى ، وحلويات نانثير ،
وفطائر حلوة ، وكعك الأباذير ، وخبزاً بوزن أربعة أرطال ، وليمونادة ،
ونبيذاً .

وكانت توجد أيضاً بوتيكات ، حيث تُباع الأغاني الوطنية ، وشارات
وطنية ، وشرائط ثلاثية الألوان ، ومحافظ ، وسلاسل من النحاس ، وكل
أنواع اللهو .

وتوقف «إيفاريست» أمام معروضات صائغ متواضع ، واختار خاتماً
من الفضة نُقش عليه نقشٌ بارزٌ يمثل رأس «مارات» ملفوف في وشاح .
وألبسه في أصبع «إيلودى» .

وتوجّه «جاميلان» في هذا المساء إلى شارع «لاربر - سيك» (الشجرة
الجافة) ، عند المواطنة «روشيمور» التى كانت قد طلبته من أجل أمر
عاجل . وجدها في غرفة نومها متمددة على «الشيزلونج» بلا تكلف .
وبينما كان وضع المواطنة يعبر عن ارتخاء مثير ، كان كل شيء حَوْلها
ينطق بمفاتها وألأعبيها ومواهبها : قيثارة بالقرب من مِعْرَف قيثارى
منفرج قليلاً ، وجيتار على المقعد ، وأداة تطريز كانت مركبة على قماش من
الستان ، وعلى الطاولة منمنمة مرسومة ، وأوراق ، وكتب ، ومكتبة تعمها
الفوضى ، أثلفتها يد جميلة ، بقدر ما هى متعطشة إلى المعرفة ، فهى
متعطشة إلى الإحساس . مدت إليه يدها ليقبلها ، وقالت له :

- تحياتى أيها المواطن المُحَلَّف اليوم فقط سَلَّمْنى «روبسبير
البكرى» رسالة لصالحك للرئيس «هيرمان»^(١)، رسالة حُرِّرت جيدا ،
وتقول تقريرا . «أرسل إليك المواطن «جاميلان»، موصى عليه لمواهبه
وطنيتة. ورأيت من واجبى أن أعرفك بمواطن له مبادئ، وسلوك حازم
في الخط الثورى، وأنت لن تترك فرصة لكى تكون نافعا لأحد
الجمهوريين...» حملت هذه الرسالة دون تردد إلى الرئيس «هيرمان»،
الذى استقبلنى بأدب جَمٍّ، ووقع على تعيينك في الحال . هذا ما تم .

قال « جاميلان » بعد لحظة من الصمت :

- أيتها المواطنة، بالرغم من أنى لا أجد لقمة عيش لى ولوالدتى،
فأقسم بشرى أننى لا أقبل وظيفة مُحَلَّف إلا لأخدم الجمهورية، وأنقم
لها من كل أعدائها .

لاحظت المواطنة الشكر البارد، والمجاملة الجافة ، وعلت ذلك بأن
«جاميلان» تنقصه الرقة . ولكنها تحب الشباب كثيرا ، فلم تؤاخذه على
بعض الجفاء . «جاميلان» كان وسيما ، ووجدت أنه يستحق التقدير.
واعتقدت أنه «سوف يُهذَّب» . ووجهت إليه الدعوة إلى العشاء عندها ،
لأنها كانت تستقبل زُوارًا كل مساء ، بعد المسرح ، وقالت له :

- سوف تلتقى عندى بأناس من المفكرين وذوى المواهب :

(١) هيرمان . صديق روبسبير ، خلف مونتانيه كرئيس لحكمة الثورة من اكتوبر ١٧٩٣ - إلى ابريل
١٧٩٤ . طُرِدَ وأُعدم بالمقصلة مع فوكيه - تانفيل في السابع من مايو ١٧٩٥

«إيليفيو»^(١)، و «تالما»^(٢)، والمواطن «فيجي»^(٣) الذى كان بارعا في نظم القوافي المُسَبَّقة لنظم الشعر بحسبها .

والمواطن «فرانسوا»^(٤) قرأ لنا «باميلًا» التى كتبها ، والتى كان يتكرر عرضها على مسرح الأمة. أسلوبها متأنق وخالٍ من الشوائب، ولبق ، وهى صفة لكل ما يكتبه المواطن «فرانسوا». المسرحية كانت مؤثرة، حتى أننا جميعًا ذرفنا الدمع . كانت الشابة «لانج» هى التى تقوم بدور «باميلًا».

أجاب «جاميلان» .

- سأستند إلى رأيك أيتها المواطنة ، ولكن مسرح الأمة قليل الوطنية، ومن المؤسف بالنسبة إلى المواطن «فرانسوا» أن تكون أعماله مُنْصَبَّة على هذه المسرحيات المُحَقَّرَة بالأشعار البائسة التى يكتبها «لايا»^(٥)، إن فضيحة «صديق القوانين»^(٦) لم تُنَسَّ

فقال: «أيتها المواطن «جاميلان» ، أتركُ لك «لايا» ، فهو ليس من

أصدقائي .

(١) مطرب فرنسى ، ولد سنة ١٧٦٩ ، ومات سنة ١٨٤٢ .

(٢) ممثل فرنسى ، ولد سنة ١٧٦٢ ، ومات سنة ١٨٢٦

(٣) شاعر فرنسى ، ولد سنة ١٧٦٨ ، ومات سنة ١٨٢٠ .

(٤) فرانسوى نوف شاتو شاعر متمكن وأديب، وسياسى، كتب مسرحيته «باميلًا» سُجِنَ في الثالث من سبتمبر ١٧٩٣ ، وأُطْلِقَ سراحه بعد الترميدور التاسع . عضو بالجمعية الوطنية عَيْنَ وزيرًا للدالية في ١٧٨٩ - ١٧٩٩ ، وأصبح فيما بعد سيناتورًا وكونتًا للإمبراطورية

(٥) «لايا» شاعر فرنسى، ولد سنة ١٧٦١ ، ومات سنة ١٨٢٣ .

(٦) صديق القوانين مسرحية قُدمت على مسرح الأمة في التالى من يناير سنة ١٧٩٣ في وقت قضية الملك

لم يكن مطلقاً بدافع الطيبة أن المواطنة قد استعملت نفوذها لتعيين «جاميلان» في وظيفة مرموقة بعد ما صنعتها من أجله، إنما كانت تهدف إلى رَبِّطه بها ربطاً وثيقاً، وتضمن لنفسها سنداً حيال عدالة قد تحتاج إليها ذات يوم، وذلك لأنها كانت ترسل الكثير من الخطابات داخل فرنسا وخارجها، وأن مراسلات مثل هذه كانت حينئذ تثير الشبهة .

- أذهب إلى المسرح دائماً أيها المواطن ؟

في هذه اللحظة يدخل «هنرى» الجندى الفارس، الذى هو أجمل من الطفل «بافيللى»، دخل الغرفة حاملاً في حزامه مُسدسين .

وَقَبَّل يد المواطنة الجميلة ، والتى قالت له .

- هذا هو المواطن «إيفاريست جاميلان»، والذى من أجله قضيت اليوم في لجنة الأمن العام وهو غير مُمَتَّن لى ، فعليك أن تؤنبه .

فقال « هنرى » صارخاً :

- آه ! أيتها المواطنة ، لقد قابلت مُشرَّعينا في التويليرى، يا له من مشهد محزن ! أَوَ ينبغي لممثلى شعب حر أن يقيموا تحت سقف أحد الطغاة ؟.. لقد كانت الثُّريات المضيئة تلقى أنوارها منذ عهد قريب على مؤامرات «كاييه»^(١)، وعريضة أنطوانيت، إنها هى نفسها تلقى الضوء اليوم على ليالى مشرعينا إن ذلك يُغضب الطبيعة.

فأجابت قائلة . صديقى ، قَدِّم التهنئة للمواطن «جاميلان»، قد تم تعيينه مُحلِّفاً فى المحكمة الثورية .

(١) لقب أطلق على لويس السادس عشر بعد إلغاء الملكية .

قال «هنرى»: لك تهنئتى، أيها المواطن ! فأنا يسعدنى أن أرى رجلاً فى مثل أخلاقك يضطلع بهذه الأعمال . ولكن أَصْدِقُكُ القول : إن تفتى ضئيلة بهذه العدالة المنهاجية التى يبتكرها المعتدلون بالجمعية الوطنية، آلهة الانتقام هذه طيبة القلب ، فهى تحابى المتآمرين، وتعفو عن الخونة ، وتكاد تجرؤ على ضرب الفيدراليين، وتخشى استدعاء النمساوية أمام المحكمة . لا ، ليست المحكمة الثورية هى التى سوف تُنقذ الجمهورية. إنهم حقاً مُذنبون هؤلاء الذين أوقفوا - فى حالة اليأس - انطلاق العدالة الشعبية !

قالت المواطنة « روشيمور » : ناولنى هذه القارورة يا « هنرى » ...

وعندما عاد «جاميلان» إلى منزله وجد والدته و «بروتو» العجوز يلعبان الورق على ضوء شمعة مُدَخَّنة . والمواطنة تعلن بلا حياء : « ثلاث ورقات للملك »، وعندما علمت أن ابنها أصبح مُخَلَّفًا قَبْلَتَه بشدة، متصورة أن ذلك شرف عظيم لكليهما، وأنهما من الآن فصاعداً سوف يتناولان الطعام كل يوم .

قالت الام : إننى سعيدة وفخورة لأننى أصبحت أُمُّ مُخَلَّف ، وهذا شىء جميل مثل العدالة ، وأهم شىء للجميع، فبدون العدالة يُهان الضعفاء فى كل لحظة . وأعتقد أنك ستحكم بالحق، يا «إيفاريست» وذلك لأننى وَجَدْتُكَ عادلاً ورحيماً وشهماً فى كل الأمور منذ صباك، ولا تستطيع أن تتحمل الظلم، وكنت تُقاوم كل بَغْيٍ بما لديك من قوة،

وكنّت شفيقاً على البؤساء، وهذا أفضل ما يتمتع به أى قاضٍ... ولكن قل
لى يا «إيفاريست» : ماذا سترتدى فى هذه المحكمة الكبيرة ؟

أجابها : «جاميلان» بأن القضاة يضعون على رؤوسهم قبة بريش
أسود، ولكنّ المُحلفين ليس لهم زىّ معين، فهم يرتدون ملابسهم
العادية.

قالت : كان من الأفضل أن يرتدوا «الروب والباروكة»، لأن مظهرهم
هكذا يكون أكثر احتراماً . ومع أنك دائماً ترتدى ملابسك بلا مبالاة ،
فإنك تبدو جميلاً ، وأنت الذى تُزين ما ترتديه ، ولكن معظم الرجال
يحتاجون إلى بعض الزينة حتى يبدو مظهرهم محترماً . وكان من
الأفضل أن يرتدى المحلفون الروب، والباروكة .

كانت المواطنة قد سمعت أن أعمال المحلف فى المحكمة مثمرة، ولم
تحرص على أن تسأل عما إذا كانت ستجنى ما يُعيشهم عيشة شريفة،
وقالت : إن المحلف يجب أن يكون فى صورة طيبة بين الناس .

وعلمت بما فيه الكفاية أن المحلفين يتقاضون مكافأة قيمتها ثمانية
عشر جنيتها عن الجلسة، وأن تزايد جرائم ضد أمن الدولة يُجبرهم على أن
يحضروا دائماً .

جَمَعَ «بروتو» العجوز ورق اللعب ، ونهض وقال لجاميلان :

- أيها المواطن ، لقد تقلدت منصب قاضٍ عظيم لا يُشق له غبار .
أهنتك بأن تُضفى بانوار ضميرك على محكمة أكثر أماناً، وأقل عرضة
للخطأ، ربما عن أى شىء آخر، لأنها تبحث عن الخير والشر، لا من حيث

هما أو من حيث جوهرهما ، ولكن فقط بالنسبة إلى المصالح الحقيقية،
والمشاعر الصريحة. وسيكون عليك أن تحكم بين الحب والكراهية، وذلك
ما سوف يكون عن غريزة ، وليس بين الصبح والخطأ اللذين يتعذر
التمييز بينهما بالنسبة إلى ضعاف العقول من الرجال . أُنكُم وفقًا
لخفقات قلبك ، فأنتم – معشر المحلفين – لن تجازفوا بالخطأ، شريطة أن
يكون الحكم مُرضيًا للعواطف ، التي هي شريعتكم المقدسة . ولكن لو
كنتُ في مكان رئيسكم لفعلتُ مثلما فعل «بريدوا»^(١) ، وفوضتُ الأمر في
ذلك إلى لعبة القدر فهذه أسلم وسيلة في إقامة العدالة ، وهي أيضًا أكثر
أمانًا .

* * *

كان لزامًا على «إيفاريست جاميلان» أن يبدأ أعماله اعتبارًا من ١٤
سبتمبر، عند إعادة تنظيم المحكمة، المقسمة من الآن فصاعدًا إلى أربعة
قطاعات، لكل قطاع خمسة عشر مُحلفًا، وكانت السجون مكتظة، والمدعى
العام كان يعمل ثمانى عشرة ساعة يوميًا .

كانت الجمعية الوطنية تقاوم الإرهاب، وهزائم الجيوش ، وتواجه
الثورات في المقاطعات، وكذلك الدسائس والمؤامرات، والخيانات، الآلهة
كانت عَطُشى .

إن أول ما قام به المُحلف الجديد زيارة تكريم للرئيس «هيرمان»، الذى

(١) بريدوا رحل حياىلى هزلى جعل منه الكاتب العرسى رابليه قاضيًا تقوم أحكامه على نتيجة رُمى
النُزْد .

امتدحه لحلاوة حديثه ورقّة علاقته . إنه مواطن وصديق لروبسبير، الذى كان يقاسمه شعوره، ويرى فيه قلباً حاسماً وفاضلاً. لقد كان متعمقاً فى هذه الإحساسات الإنسانية التى كانت غريبة على قلوب القضاة، والتى صنعت المجد الأزلّى لكل من « دى باتى »^(١) و« بيكاريا »^(٢) .

وشعر بارتياح للتخفيف من العادات التى ظهرت فى النظام القضائى بإلغاء التعذيب الجائر، وألوان التعذيب المخزية والمتوحشة. وعبر عن سروره بما حدث بصدد جريمة الإعدام التى كانت تُطبق سابقاً لقمع أقل وأصغر الجرائم، وأصبحت هذه العقوبة نادرة جداً، ومقتصرة على الجرائم العظمى. ومن جهته - مثل روبسبير - ألغاهها عن طيب خاطر فى كل ما لا يمس الأمن العام، ولكنه اعتقد أنه يخون الدولة إن لم يعاقب بالإعدام الجرائم التى ترتكب ضد سيادة الأمة .

إن جميع زملائه يفكرون هكذا . أن فكرة الملكية القديمة حول « مصلحة الدولة » قد أوجت بمحكمة الثورة، وأن ثمانية قرون من السلطة المطلقة قد شكلت هؤلاء القضاة، ووفقاً لمبادئ الحق الإلهى كانت تقاضى أعداء الحرية .

ومثّل « إيفاريست جاميلان » فى نفس اليوم أمام المدعى العام، المواطن « فوكييه »، الذى استقبله فى مكتبه ، حيث كان يعمل مع كاتبه. كان رجلاً

(١) « دى باتى » محام عام ورئيس برلمان بورجو

(٢) بيكاريا، سيرار بويانا، ماركير . محلف من ميلانو . مؤلف « محالفات وعقوبات » .

صَحْمَ الخِلْقَةِ، أَجَشَّ الصوت، وله عينان كعيون السُّنُور في وسط وجهه العريض، وبشرته الرصاصية اللون. كان مظهره بصفة عامة يُعبر عن الأضرار التي سببها الجلوس المستمر والانزواء وعدم الحركة للرجال الأقوياء الذين خُلِقوا للهواء الطلق والتمرينات العنيفة . وكانت الملفات ترتفع من حوله كحوائط القبور، والذي نراه أنه كان يُحب هذه الأوراق العديمة الفائدة، الرهيبة، والتي تبدو أنها ستخنقه. وكانت له مقاصد قاضٍ مجتهدٍ، عاكف على القيام بواجباته، ولم يكن فكره يخرج عن دائرة أعماله. كانت تفوح من أنفاسه رائحة «العرقي»^(١) الذي يتناوله ليساعده على التماسك، والذي يبدو أنه لم تصعد فائدته إلى مخه طالما أن كلماته لم تكن واضحة، وكانت دون المتوسط .

كان يقيم في شقة صغيرة في القصر مع زوجته الشابة، والتي أنجبت له ثَوَاءً، وكانت هذه الزوجة الشابة، والعمة «هنرييت»، والخادمة «بيلاجي» يُشكلون كل أسرته. وكان يظهر طبيبًا ورفيقًا مع هؤلاء النسوة. ثم إنه كان رجلًا عظيمًا مع أفراد عائلته، وكان في مهنته بدون أفكار كثيرة، وبدون أي تطورات .

لم يستطع «جاميلان» أن يخفي ملاحظاته ببعض الاستياء ، عن أن هؤلاء، القضاة في النظام الجديد يشبهون في تصرفاتهم وروحهم قضاة النظام القديم. وكان منهم «هيرمان» الذي مارس أعمال محام عام في مجلس «الآرتوا»، وكان «فوكييه» نائبًا سابقًا في «الشاتيليه». كانوا

(١) مشروب كحولى مسكر يتخذ من العنب وغيره

يحتفظون بطبعهم، ولكن «إيفاريسنت جاميلان» كان يؤمن بالتجديد الثورى .

ويغادر مقر المحكمة ويعبر رواق القصر، ويتوقف أمام «البوتيكات»، حيث كانت تُعرض شتى أنواع المعروضات بطريقة فنية، ويلقى نظرة على معرض السيدة المواطنة «تينو»، ثم تصفح أعمالاً تاريخية وسياسية وفلسفية، مثل سلاسل الاستعباد، ومقال عن الحكم الاستبدادى، وجرائم الملكات. ويقول مفكراً: «حمداً لله ! كل هذه المؤلفات جمهورية!». وسأل صاحبة المكتبة عما إذا كانت تبيع كثيراً من هذه الكتب .

فهزت رأسها وقالت :

- لا نبيع سوى الأغاني والقصص، وأخرجت من أحد الأدرج مجلداً صغيراً : وأضافت قائلة :

- هذا شيء جيد .

قرأ «إيفاريسنت» عنوان الغلاف : «الراهبة ترتدى قميصاً». ويقابل أمام البوتيك المجاور «فيليب ديماهيس»، الذى كان بين العطور ومساحيق الزينة، كان رقيقاً وعظيماً ، وهو يُطمئن المواطنة «سان - جور» البائعة الجميلة على حبها، ويَعِدُّها بأن يرسم لها صورة، وطلب منها موعداً ليتحدث معها فى حديقة «التويليرى» فى المساء . كان جميلاً، وله قُدرة على الإقناع تسيل من بين شفثيه، وتنبجس من عينيه. وتنصت إليه المواطنة «سان - جور» مطرقة فى صمتٍ ، وكانت تميل إلى تصديقه .

ولكى يتأقلم مع الأعمال الشاقة التى كُلف بها ، أراد المحلف الجديد أن يختلط بال جماهير ، فحضر أحد أحام المحكمة . ارتقى الدرج بصعوبة ، حيث كان يجلس عليه جمهور كبير كأنهم فى مدرج لإلقاء الدروس ، ودلّف إلى قاعة البرلمان القديمة فى باريس .

كانت الجماهير تكاد تختنق من شدة الزحام من أجل رؤية محاكمة أحد الجنرالات ، لأنه فى ذلك الوقت ، كما كان يقول «بروتو» العجوز . «الجمعية الوطنية ، على مثال صاحبة الجلالة البريطانية ، تأمر بمحاكمة الجنرالات المهزومين ، إن لم يوجد جنرالات خونة ، فهؤلاء لن يفلتوا أبداً من المحاكمة» . وأضاف «بروتو» : لم يكن بالضرورة أن أى جنرال مهزوم يكون مجرماً ، لأنه من الضرورة أن يكون هناك واحد مغلوب فى كل معركة . ولكن لا يساوى شيئاً أن تحكم على جنرال بالإعدام لتهد الحياة إلى الآخرين...» .

لقد جلس الكثير منهم على مقعد المدعى ، من هؤلاء العسكريين التافهين ومتصلبى الرأى من لهم عقولُ العصابير فى أجسام العجول . ومنهم ذلك الذى لا يعرف شيئاً عن الحصار والمعارك التى قادها أكثر ممّا يعرف القاضى الذى يحقق معه ، والاتهام والدفاع تلاشوا فى الجنود والأهداف ، والذخائر ، والمسيرات ، والمسيرات المضادة .

كان الجمع الغفير من المواطنين الذين يتابعون هذه المناقشات الغامضة التى لا تنتهى يرى خلف القائد السخيف الوطن مفتوحاً وممزقاً ، يقاسى لموت الآلاف . وكان هؤلاء الوطنيون بنظراتهم

وبأصواتهم يستعجلون المحلفين الهادئين على مقاعدهم ، بإصدار حكمهم كضربة من هراوة على أعداء الجمهورية .

كان «إيفاريسست» يشعر بذلك بحرارة . إنَّ ما يجب أن يُضرب في شخص هذا البائس هما الوحشان اللذان يُمزقان الوطن : العصيان ، والهزيمة . كان الأمر يتعلق بحق ، بمعرفة ما إذا كان هذا الجندى بريئاً أم مذنباً ! وعندما استعادت « لافاندية » شجاعته ، ولما استسلمت « طولون»^(١) للعدو ، وعندما تقهقر جيش «الرَّائِن» أمام غزاة مايانس ، ولما انسحب جيش الشمال إلى معسكر «سيزار» ، كان في الإمكان الاستيلاء عليها بهجوم عسكري مفاجئ لكل من الإمبراطوريين ، والإنجليز ، والهولانديين ، وحكام فالانسيان ، والذي كان مُهماً هو تعليم القادة إمّا النصر أو الموت .

وعندما رأى «جاميلان» هذا الجندى المرتزق العاجز والمخبول ، الذي كان في الجلسة مضطرباً ، كما اضطربَ هناك في سهول الشمال ، خرج «جاميلان» مسرعاً من القاعة حتى لا يهتف مع الجمهور : « إلى الموت ! » .

وفي جمعية القطاع تلقى المُحَلِّف الجديد تهانئ الرئيس «أوليفيه» ، الذي جعله يؤدي القَسَمَ عند الهيكل الرئيسى القديم البرنابى ، والذي تحول إلى هيكل الوطن ، على أن يخلق في نفسه - باسم الإنسانية المقدسة - أى ضعف إنسانى .

(١) طولون مينا فرنسى حربى مشهور

ويرفع «جاميلان» يده بالقسم ، مستشهدا بالأرواح العظيمة لمارات شهيد الحرية ، والذي وُضع له تمثال نصفي حديث على أحد الأعمدة أمام الكنيسة، أمام تمثال «لوبيليتييه» النصفي .

وتندوّى بعض الهتافات مع التصفيق مختلطة بهمهمة . كانت الجمعية متهيجة . وعند مدخل جناح الكنيسة كانت مجموعة من القطاعيين (كتائب) مسلحين برماح قصيرة يُرددون الصيحات .

قال الرئيس : إن من يحمل سلاحًا في اجتماع للرجال الأحرار يُعدُّ مناهضًا للجمهورية. وأصدر أمره في الحال بالتخلي عن البنادق والرماح وإيداعها في مخزن الأمتعة المقدسة (عبارة عن حجرة صغيرة في الكنيسة للحرس).

وجاء المواطن «بوفيزاج» من لجنة المراقبة – وكان أحذب ، ثاقب النظرات، مقلوب الشفتين – جساء واعتلى المنبر الذي أصبح منصة، واضعًا على رأسه غطاء أحمر اللون، وقال .

– « القادة يخونونا ، ويُسلمون جيوشنا للعدو، والإمبراطوريون يدفعون بأحزاب من الفرسان حول بيرون، وسان – كوينتان، و«طولون» سُلمت للإنجليز الذين أنزلوا فيها أربعة عشر ألف رجلًا . إن أعداء الجمهورية يتآمرون من داخل الجمعية الوطنية نفسها .

وفي العاصمة دُبّر العديد من المؤامرات لإنقاذ النمساوية^(١)، وفي اللحظة التي أتحدث فيها، تدور شائعات بأن الابن «كابييه» هرب من

(١) المقصود بها الملكة .

المعبد، وحُمِلَ بنجاح باهر إلى «سان - كلود»، والمراد أن يُرْفَعَ على عرش الطاغية .

إن غلاء مواد المعيشة، وانخفاض قيمة الحوالات الحكومية، هما سبب المناورات الواقعة بيننا ، وتحت أعيننا، وعن طريق عملاء أجنب. فباسم الشعب وسلامته، أطلب المواطن المحلّف بالأّ تأخذه شفقة أو رحمة بالمتآمرين والخونة .»

وبينما هو نازل من على المنصة ، ارتفعت الأصوات في الجمعية :
«لتسقط محكمة الثورة ! ، ليسقط المعتدلون !».

وصعدَ المواطن «دييون إينيه» - وهو ضخّم ومزدهر البشرة، ويعمل نجارًا في ميدان ثيونفيل - صعد إلى المنصة وأراد كما يقول - أن يوجه سؤالًا إلى المواطن المحلّف. وسأل «جاميلان» عن موقفه بصدّد قضية عائلة «بريسوتان» ، والأرملة «كابية».

كان «إيفاريسست» خجولًا، ولا يعرف مطلقًا التحدّث أمام الجمهور، ولكن الإثارة ألهمته، فنهض شاحب الوجه، وقال بصوت مختنق :

- أنا قاضٍ ، ولا أشهد إلّا ضميري، وأيّ وعْدٍ منى لكم سيكون مخالفًا لواجبي. يجب أن أتحدّث في المحكمة، وأن التزم الصمت في أيّ مكان آخر . أنا لا أعرفكم. أنا قاضٍ : لا أعرف صديقًا ، ولا عدوًا .

كانت الجمعية متنوعة، حائرة مترددة، مثل جميع الجمعيات، لكنها قرّرت أخيرًا. وعاد المواطن «دييون إينيه» إلى العمل، لن يسامح «جاميلان» في تولّيه منصبًا، كان هو نفسه يطمع فيه .. فقال :

- «أنا فاهم، وأستحسن وسأوس المواطن المحلّف، الذي يقال له

وطنى، ولكن عليه أن يرينا ما إذا كان ضميره يسمح له أن يحتل مكانه في محكمة مُخَصَّصة لتحطيم أعداء الجمهورية، وموطدة العزم على أن تحاط منهم. وتوجد تَوَاطُآت ينبغي على الصالح أن يتملص منها. ألم يتحقق من أن العديد من المحلفين في هذه المحكمة استسلموا للرشوة بأموال المتهمين، وأن الرئيس «مونتانيه» قد ارتكب خطأ لينقذ رأس الفتاة «كورداي».

وعقب هذه الكلمات ضجت القاعة بالتصفيق الحاد. وكذلك ارتفع الضجيج إلى القباب عندما صعد «فورتيني تروبير» إلى المنصة، وبدًا أنه ازداد نحافة في هذه الشهور الأخيرة وفي وجهه الشاحب وجنتان حمراوان تخرقان الجلد، وجفونه كانت ملتبهة وحدقتاه شبیهتان بالزجاج . قال بصوت ضعيف لاهث :

- أيها المواطنون، إننا لا نستطيع أن نشبه في الجمعية الوطنية، ولجنة الخلاص الشعبى التى تنبثق منها فى آن واحد. وقد أُنذِرنا المواطن «بوفيزاج» عندما أوضح لنا أن الرئيس «مونتانيه» أفسد دعوى لصالح أحد المذنبين. وأنه لم يُضَف من أجل راحتنا وطمانتنا سوى - وفقًا لبلاغ المدعى العام - أن «مونتانيه» قد خُلِع وأودع السجن؟... ألا نستطيع أن نسهر على الخلاص الشعبى دون أن نبذر التشكيك فى كل مكان ؟ ألا توجد فى الجمعية مواهب أو فضائل؟ أو ليس «روبسير» ، و «كوثون»، و «سان جوست» رجالاً أشرافاً ؟. من الواضح أن أعنف الكلمات التى سمعناها صدرت عن أفراد لم نرهم قط يحاربون من أجل الجمهورية ! وما كان لديهم غير هذا الحديث حتى يجعلوها مكروهة .

أيها المواطنون ، قليل من الضوضاء ، وكثير من العمل ! فبالمدافع وليس بالصيحات ننقذ فرنسا. إن نَصِفَ أقبية القطاع لم تُفَتَّشْ بعد ، وكثير من المواطنين لا يزالون يحتفظون بكميات هائلة من البرونز. ونُذَكِّرُ الأغنياء بأن الهبات الوطنية هي أفضل وسائل الضمان. وأوصيكم بأن تكونوا كرامًا نحو بنات وزوجات جنودنا البواسل على جبهة نهر اللوار . أحدهم جندى خياله «يوميه» (أوجيستان)، الذي كان مختصًا بالمؤن بشارع أورشليم سابقًا، وفي اليوم العاشر من الشهر الماضي - أمام كوندية - كان يقود بعض الخيول للشرب، فهاجمه ستة من الفرسان النمساويين : فَقَتَلَ منهم اثنين، وأَسَرَ الآخرين، وأُطلب من القطاع أن يُعلن أن «يوميه» (أوجيستان) قد قام بواجبه .

وصفق الحاضرون لهذا الخطاب ، وتفرقوا وهم يهتفون «تحيا الجمهورية !».

وظل بمفرده في القاعة مع «تروبير» ، فصافحه «جاميلان» وشدَّ على يده قائلاً :

- أشكرك . كيف حالك ؟

أجاب «تروبير» وهو يُسعل في منديله بصاقًا مع بقع مع الدم : أنا على خير ما يرام ! الجمهورية لها أعداء كثيرون في الخارج والداخل، وقطاعنا يضم نصيبًا لا بأس به، ليس بالهتافات ولكن بالسلاح والقوانين تُقام الإمبراطوريات... عِمَّتْ مساء يا «جاميلان» فَلَدَّى بعض الخطابات أريد كتابتها .

وينصرف ومنذيله على شفثيه ويذهب إلى مخزن الأمتعة المقدسة
الأممى .

وتقوّم المواطنة الأرملة «جاميلان» شارتها الوطنية ، فهى من الآن
فصاعداً أصبحت فى وضع صحيح، وتضع غطاءً على رأسها، لقد اتخذت
لنفسها بين عشية وضحاها وقاراً بورجوازيّاً، وفخراً جمهوريّاً، ومظهراً
جديراً بأُم مواطن مُحلّف . إن احترام العدالة التى نشأت عليه، وما كانت
تشعر به منذ طفولتها، قد ألهمها أن ترتدى الرداء والسيما (ثوب
فضفاض)، والرهبة المقدسة التى تحس بها دائماً عندما ترى هؤلاء
الرجال الذين يمثلون العدل على الأرض، ويطبقون قانون الحياة وقانون
الموت .

هذه الإحساسات جعلتها عظيمة محترمة، وتقّدر هذا الابن الذى
لا تزال تعتبره حتى الآن طفلاً . وببساطتها، كانت تدرك استمرارية
العدالة من خلال الثورة بنفس القوة التى يدرك بها مشروع الجمعية
الوطنية استمرارية الدولة فى تغيير الأنظمة، والمحكمة الثورية تبدو لها
متساوية فى العظمة لجميع السلطات القضائية القديمة التى تعلمت أن
تُحترمها .

أوضح المواطن «بروتو» للقاضى الشاب المصلحة الممزوجة
بالمفاجأة، وبالإحترام اللازم . وكان مثّل المواطنة الأرملة «جاميلان» -
يعتبر أن استمرارية العدالة تكون من خلال الأنظمة، ولكنه كان على
عكس هذه السيدة، فهو يزدري المحاكم الثورية كمحاكم النظام القديم .
وبما أنه لم يجرؤ على أن يُعبّر عن رأيه هذا بصراحة، ولم يستطع أن

يلتزم بالصمت، فإنه أخذ يخوض في متناقضات جعلت «جاميلان» يَشْكُ في عدم وطنيته، وقال له .

- المحكمة العظيمة التى سوف تذهب إليها كان مؤسسها عضواً فى مجلس الشيوخ الفرنسى من أجل خلاص الجمهورية، وكانت تلك بكل تأكيد فكرة فاضلة من مُشرعينا أن يُعَيِّنُوا قضاةً لأعدائهم. إننى أدرك ذلك الكرم، ولكنى لا أعتقد أن ذلك أمر سياسى . وكان من الجِدْق بالنسبة لهم - كما يبدو لى - أن يضربوا فى الظلام خصومهم الذين لا يقبلون المصالحة، وأن يكسبوا الآخرين بالهَبَّاتِ أو بالوعود ، فالمحكمة تضرب بهدوء، وتُسبب ضرراً أقل مما تسبب الخوف، وذلك مثالى. أما العقبة عندك فهى مصالحة جميع هؤلاء الذين تخيفهم المحكمة، وأن تصنع من هذه الجمهرة - من المصالح والعواطف المعاكسة - حزباً كبيراً قادراً على عمل مشترك وقوى. إنكم ستبذرون الخوف، إنه الخوف أكثر من الشجاعة، وهو الذى يجعل الأبطال أطفالاً .. هل فى وسعك أيها المواطن « جاميلان » أن ترى ذات يوم معجزات من الخوف تنفجر ضدك؟!

كان النُّحات «ديماهيس» مُجِبّاً فى هذا الأسبوع لفتاة من «باليه - ايجاليتيه» (قصر المساواة)، وهى «فلورا السمراء» الطويلة، ومع ذلك كانت قد وجدت خمس دقائق لتهنئة صديقها، وقالت له : إن أى تعيين كهذا يُشَرِّفُ الفنون الجميلة إلى درجة كبيرة .

و «إيلودى» بنفسها - بالرغم من عدم معرفتها - تبغض أى شىء

ينتمى إلى الثورة، وهى تخشى الأعمال العامة وتعدّها أخطر منافس يستطيع أن ينازعها قلبَ حبيبها. ومع ذلك فإن «إيلودى» الرقيقة كانت خاضعة لنفوذ أو سطوة أحد القضاة، دُعِى لُبّين موقفه فى القضايا الرئيسية.

وبالإضافة إلى ذلك فإن تعيين «إيفاريسست» فى أعمال المحلف كان له أثر طيب حولها، ونتائج سعيدة قرّت بها عينًا، ومن ذلك أن المواطن «جان بليز» جاء إلى مرسوم ميدان ثيونفيل وقَبِلَ المُحَلَّفَ تقبيلًا حارًا .

ومثل جميع المناهضين للثورة، أبدى «بليز» بعض التقدير لقدرات الجمهورية، ومنذ أن تعرض للاستدعاء بسبب الغش فى توريدات الجيش، فكانت محكمة الثورة توحى له بخوف لا يذوق معه طعم النوم، فهو يرى نفسه شخصية مظهرية، ومختلطة بكثير من القضايا، ولكى يتمتع بالأمن التام عليه أن يراعى المواطن «جاميلان»، الذى يبدو له كرجل يستحق أن يُرَاعَى جانبه، فهو مواطن صالح ، وصديق القوانين .

مَدَّ يده إلى الرسام القاضى، وأظْهَرَ أنه ودود، ووطنى، يميل إلى الفنون والحرية. وكان «جاميلان» كريماً، فصافحه ، وشَدَّ على هذه اليد الممتدة له .

قال «جان بليز» : «أيها المواطن «إيفاريسست جاميلان»، إننى أَسْتَدْعِى صداقتك ومواهبك، وسوف أصطحبك غداً إلى الريف حيث نقضى معاً ثمانياً وأربعين ساعة، وهناك تَرَسِّم ونتحدث :

مرات عديدة - في كل عام - كان يقوم تاجر الرسم بعمل نزاهات لمدة يومين أو ثلاثة، بصحبة رسامين كانوا يرسمون - حسب إرشاداته - مناظر طبيعية، ومناظر للأطلال . وكان يحدد بمهارة ما يعجب الجمهور، ويحصل من هذه الدورات على قطع تنتهي إلى المرسم، وكانت محفورة بفن، ويصنع من هذه القطع طبعات ملونة بالحجر القاني، أو بالألوان والزخارف، والتي تُدرّ عليه ربّاً وفيراً .

وبعد هذه الرسومات التخطيطية يطلب تنفيذ تيجان الأبواب ودعائم أو زخارف الأبواب، والتي تجد رواجاً أفضل من أعمال الديكور «لهيبير روبير»^(١).

وفي هذه المرة كان يريد أن يصطحب «جاميلان» ليرسم رسماً تخطيطياً لبناء لوحات بالحجم الطبيعي، طالما أن شخصية المحلّف بالنسبة إليه قد عظّمت من شخصية الرسام. وكان من ضمن المجموعة، الحفار «ديماهيس»، وكان يرسم جيّداً، و «فيليب دى بوا» الخامل الذكر، والذي يشتغل بمهارة في نوعية عمل «روبير»، ووفقاً للعادات المواطنة «إيلودى»، مع صديقتها المواطنة «هازارد» ليصحبها الفنانين .

أمّا «جان بليز» الذي يجيد المزج بين هموم مصالحه والاهتمام بملذاته، فقد دَعَا أيضاً إلى هذه النزهة المواطنة «تيفينان» ممثلة «الفودفيل»^(٢)، والتي أصبحت صديقة حميمة له .

(١) مصور فرسسى ولد سنة ١٧٢٣، ومات سنة ١٨٠٨

(٢) فودفيل دار تمثيل ساريس



4

في الساعة السابعة من صباح يوم السبت، المواطن «بليز»
 بقبعته المقرنة السوداء، وصديري قرمزي اللون، وسروال
 من الجلد، وحذاء أصفر بطيات، طرق باب الرسم بمقبض
 سوطه. المواطنة الأرملة «جاميلان» كانت موجودة فيه، تتبادل مع
 المواطن «بروتو» محادثة مهذبة، في حين كان «إيفاريسست» يقف أمام مرآة
 صغيرة يعقد رباط عنقه الأبيض .

قالت المواطنة رحلة سعيدة يا سيد «بليز» ! بما أنك سوف ترسم
 مناظر من الطبيعة، إذن فاصطحب معك السيد «بروتو»، وهو أيضًا
 رسام .

قال «جان بليز» . حسنا ! أيها المواطن «بروتو»، تعال معنا .

وعندما اطمأن «بروتو» إلى أنه لن يكون ثقيلاً وافق بروح اجتماعية،
 وخاصة أنه محبٌ للمسرات .

وصعدت المواطنة «إيلودي» الطوابق الأربعة من أجل أن تُقبَّل المواطنة

الارملة «جاميلان»، والتي تدعوها أمها الطيبة، وكانت ترتدى ملابس كلها بيضاء، وتتطيب بعطر اللافاند .

كانت توجد عربة سفر قديمة يجرها حصانان، كانت تنتظر في الميدان، مُسدّلة الستائر. وكانت «روز تيفينان» تجلس في الخلف مع «جوليان هازارد» واتخذت «إيلودي» مجلسها على يسار الممثلة الكوميديّة، وجلست «جوليان» النحيطة بينهن في الوسط.

ويجلس «بروتو» في الخلف، وفي مواجهته «تيفينان»، ويجلس فيليب دى بوا، منتصبًا بجذعه الرياضى على المقعد على يسار «الحُودى» الذى اندهش عندما قص عليه أنه في بعض بلاد أمريكا، تطرح الأشجار سجقا ونقائق ناضجة .

المواطن «بليز» فارس ممتان، كان يقطع الطريق على صهوة جواده، وكان يسبق العربّة حتى يتجنب التراب الذى تثيره العربّة، وبمجرد أن ابتعدت العربّة عن الضاحية نسى المسافرين همومهم، وعند رؤية الحقول والأشجار والسماء طابت نفوسهم وانشرحت صدورهم. وتخيلت «إيلودي» أنها وُلدت من أجل تربية دجاج بجوار «إيفاريست» قاضى السلام في إحدى القرى على شاطئ أحد الأنهار، بالقرب من غابة.. وعند مدخل القرى كانت كلاب الحراسة تندفع نحو العربّة عند المنحنىات وتنبج على سيقان الخيول ، في حين ينام أحد كلاب الصيد الضخمة على قارعة الطريق وينهض على مضض، والدجاج يقفز ويطيّر مشتتًا ليهرب مجاوزًا الطريق ، والإوز يبتعد ببطء في مجموعات متلاصقة . الأطلاق

يشاهدون الركب يمر ، ويظهرون بمظهر قذر . كان الصباح حارًا ،
والسما مشرق ، والأرض كانت مشقة تنتظر المطر .

توقفوا بالقرب من «فيلوجيوف»^(١) . وعندما كانوا يعبرون البلدة ،
دخل «ديماهيس» عند إحدى بائعات الفاكهة ليشتري بعض الكريز
لينعش به المواطنات . كانت البائعة جميلة ، لم يظهر «ديماهيس» ،
وينادى عليه «فيليب ديبوا» باسمه الذى يدعو به أصدقائه .

- هيه ! باربارو ! ... بارباروا !

وبعد النداء بهذا الاسم المستعمل، أزهف المارة سمعهم، وظهرت
الوجوه فى النوافذ . وعندما رآوا شابًا جميلًا خارجًا من عند بائعة الفواكه
والجاكت مفتوح، والصديرى يرفرف على صدر رياضى، ويحمل على
كتفيه سلة مملوءة بالكريز، وملابسه على طرف عصا، ظن أناس أنه
الجيراوندان المحطور، فقبضوا عليه، ولولا أن العجوز «بروتو» والثلاثة
السيدات الشابات قد شهدن بأن هذا المواطن يسمى «فيليب ديماهيس»
وأنه رياضى جميل الجسم، ويعقوبى طيب ، لا اعتقله بعض اللامسرولين
ولاقتادوه إلى مقر البلدية .

وكان من الضرورى أن المشتبه فيه يُقدم بطاقته الوطنية التى يحملها
لإثبات شخصيته، وكان ذلك الإهمال فى مثل هذه الأمور بمحض
المصادفة . وكان الثمن أنه أقلت من أيدي القرويين الوطنيين بدون

(١) مدينة فرنسية صغيرة .

خسائر أخرى، فيما عدا أحد أكمام قميصه الذى نزع عنه، ولكن
الخسارة كانت خفيفة. وأنه تلقى أيضًا اعتذارَ الحرس الوطنى الذين
كانوا قد أحاطوا به بعنف، وكانوا يريدون تسليمه إلى مقر البلدية.

والآن، يقف مطلق السراح، تحيط به كل من «إيلودى»، و«روز»،
و«جوليان». واتَّهَمَ «ديماهيس» «فيليب ديبوا» بأنه لا يحبه، واتهمه
أيضًا بالنذالة، وابتسم ابتسامة مُرة لاذعة، وقال :

- «ديبوا»، إذا ناديتنى مرة أخرى باسم «باربارو» فسوف أناديك
باسم «بريسو»، وهو رجل قصير وضخم، ومضحك، شعره مجعد،
وبشرته زيتية، ويداه لزوجتان. ولن يكون هناك شك فى أنك «بريسو»
الدُّنْىء عدو الشعب، وأن الجمهوريين عند رؤيتك من الرعب والاشمئزاز
سوف يأخذونك إلى أقرب مشنقة ... هل تفهم ؟

وكان المواطن «بليز» يسقى جواده، فلما جاء أكد أنه قد أنهى
الموضوع، مع أن الظاهر للجميع أن الموضوع قد تمت تسويته بدونه.

صعد الجميع إلى العربة، وفى الطريق أخبر «ديماهيس» الحُوذَى أن فى
هذا الوادى (وادى لونجيمو) سقط كثير من سكان القمر فى سالف
الزمان، وكانوا يشبهون الضُّفْدَعَ شكلاً ولوناً، ولكن قامتهم كانت أكثر
ارتفاعاً. وكان «فيليب دى بوا» و«جاميلان» يتحدثان عن فنهما.
«ديبوا» تلميذ «رينيو» سافر إلى روما. وقد شاهد لويحات «رافائيل»
والتي كان يضعها على جميع أعماله الفنية الرئيسية. وكان معجباً
بالألوان التي يختارها «كوريج»، واختراع «هانيبال كاراش»، ورَسَمَ

«دومينيكان»، ولكنه لم يجد شيئاً يمكن مقارنته بالنسبة للأسلوب في لوحات «بومبيو باتونى».

وفي روما، كان يتردد على السيد «ميناجو» ومدام «لوبران» اللّذين أعلننا مناهضتهما للثورة، ولم يتحدث عنهما، ولكنه مدح «أنجيليكا كوفمان»^(١)، وكانت رفيعة الذوق، وكانت تعرف اللون القديم.

وكان «جاميلان» يرثى لحال الرسم الفرنسى وتأخره، حيث كان في قمته يرجع إلى «ليزيور»، و «كلود»، و «بوسان»، ويوافق انحلال المدارس الإيطالية والفلمندية، حيث تبعها أقول سريع وعميق، وقد أرجع أسباب ذلك إلى التقاليد العامة، وإلى الأكاديمية التى كانت تعبيراً عنه.

ولكن الأكاديمية لحسن الحظ قد ألغيت، وتحت تأثير المبادئ الجديدة ابتكر «دافيد» ومدرسته فناً جديراً بشعب حر. وبين الرسامين الشبان. أدْرَجَ «جاميلان» - غير حاسدٍ - في المرتبة الأولى «هينيكان» و «توبينو» - لوبران».

و «فيليب دى بوا» كان يفضل «رينيو» أستاذَه، على «دافيد»، وكان يُعلّقُ الأمل على «جيرار» الشاب بالنسبة إلى الرسم.

وكانت «إيلودى» تجامل «تيفينان» وتمتدح قلنسوتها القطيفة حمراء اللون، وثوبها الأبيض والممثلة الكوميديّة تجامل صديقتها وتمتدح

(١) أنجيليكا كوفمان كانت ذائعة الصيت في عام ١٧٧٠، ١٧٨٠. نشرت في أوروبا أسلوباً نيوكلاسيكى أقل حفاً من أسلوب دافيد. وتعرفت على صفوة الفنانين والكتاب في أوروبا (جوته)، وفي أوروبا أصبحت عشيقة لمارات لفترة من الزمن.

زينتهما، وتشير عليهما بطرق أفضل لعملهما حسب رأيها، وذلك بالتخفيف من الزينات. وقالت .

- لم تكن نبدى أى زينة، تعلمنا ذلك فى المسرح، حيث كانت لابد أن تكشف كثيرًا من المواضع، ومن ثم يبدو جمالها، ولا شىء غير ذلك .

أجابت «إيلودى» قائلة . أَصَبْتُ القول يا جميلتى، ولكن لا شىء أجمل من البساطة فى عمل الزينة. ليس دائمًا بذوق غير سليم تتزين، ولكن أحيانًا على سبيل التوفير .

وتحدثن باهتمام عن موضحة الخريف، والثياب البسيطة، والتفصيل القصير.

قالت «تيفينان» : إن كثيرًا من النساء يتشوهن عندما يتبعن الموضة الجديدة، فيجب على المرء أن يختار ما يناسبه .

قال «جاميلان» . لا يوجد أجمل من الأقمشة التى تلتف بالجسد ، وكل ما هو مقصوص ومخيطة يكون بشعًا . كل هذه الأفكار وُضعت بطريقة طيبة فى كتاب لفينكيلمان خير من أن يتحدث بها رجل إلى بعض الباريسيات.

قالت «إيلودى» . من أجل الشتاء كانت تُصنَع معاطف مبطنة على طريقة «لايون» فى فلورنسا، وفى صقلية، ومعاطف طويلة على طريقة «زوليم» بهيئة مستديرة، ويقفل بصديرى على الطريقة التركية .

قالت «تيفينان» : تلك أغلبية رثةً ، وذلك يباع جاهزًا . إننى أعرف

خياطة صغيرة تعمل كالملاك وليست غالية الأجر ، سوف أرسلها لكِ
ياعزيزتى .

وكانت الكلمات تتناقل بينهم خفيفة وسريعة، منتشرة، وتتناول
الأقمشة الجميلة، فلورنسية مضلعة، وصينية موحدة، وصقلية و...

وكان العجوز «بروتو» يستمع إليهن وهو يفكر بشهوة كئيبة
سوداوية في ستائر ذلك الفصل التى تضم أشكالا فاتنة ساخرة، والتى
تستمر لسنوات قليلة، ثم تُبعث مثل زهور الحقول . وَتَحَوَّلَ بنظرته عن
النسوة الثلاث إلى زهور الترنجان ، وزهور الخشخاش فى الأراضى
الزراعية، تلك النظرة الباسمة المبللة بالدموع .

وفى حوالى الساعة التاسعة وصلوا إلى «أورانجيس»، وتوقفوا عند
فندق «لاكوش» حيث يؤوى الزوجان «بواترين» كُلُّ رَاجِلٍ وراكبٍ .

ويمدُّ المواطن «بليز» - الذى جدد زينته - يده إلى المواطنين، بعد أن
طلب إعداد طعام الغداء لهم، وبعد أن سبقتهم صناديقهم وكراتينهم
وخيولهم ومظلاتهم، التى يحملها غلام صغير من القرية، ذهبوا سيرًا
على الاقدام عن طريق الحقول نحو الرافد، حيث اكتشفوا السهل المملوء
بالخضرة فى «لونجيمو»، والذى يحد نهر السين، وغابات «سانت
جينييف».

وتبادل «جان بليز» الذى يقود المجموعة الفنية ، مع الممول السابق
حديثا ظريفاً، حيث كان يمر - بدون نظام أورزانة - كُلُّ من «فيربوكيه
لوجينيرو»، و «كاترين كويسو» التى كانت تتجول، والأنسات

«شودرون» والساحر «جاليشيه»، والوجوه الجديدة والأكثر حداثة
«لكاديه - روسيل» ومدام «أنجو».

ويُولَعُ «إيفاريسست» بحبٍّ مفاجئٍ للطبيعة عندما رأى الحَصَّادين
يربطون حُرْمًا من القش، فتفيض عيناه دمعًا، وكانت أحلام الوئام
والحب تملأ قلبه. وكان «ديماهيس» ينفخ في شعر المواطنين حبوب
الهندباء البرية العالقة به. لما كان الثلاث عندهن مِيلَ بنات المُدُن بالنسبة
إلى صُحُبَات الورد، فقد قطفن زهور البوصير التي تتجمع حول ساق
النبات في سنابل، ونبات الجُريس، يحمل الزهور الليلاك متدلية،
والغصون الرقيقة لزهَر «رَعَى الحمام» ذى الرائحة الجميلة، والبيلسان
الصغير، والنعناع، والبليحاء، وجميع زهور الحقل للصيف المنتهى.

ونظرًا إلى أن جان جاك كان قد جعل علم النبات حسب الموضة بين
فتيات المدن، فإن أولئك الفتيات الثلاث يعرفن أسماء الزهور وأسماء
المعاشق منها. وبما أن تويجات الزهور الرقيقة أوهنها الذبول، فقد
انفرطت إلى أوراق بين ذراعيها، وتساقطت كالطر عند قدميها، وتنهدت
المواطنة «إيلودى» مُتَحَسِّرة وقالت

— هكذا تزول الأزهار!

الجميع بدءوا العمل، واجتهدوا في التعبير عن الطبيعة كما يرونها،
ولكن كل واحد منهم كان يراها بطريقة الأستاذ. ولم يمض وقت قصير
حتى كان «فيليب دى بوا» يقتفى أثر مزرعة مهجورة، وأشجار مقطوعة،
وسيل ناضبٍ، على طريقة «هوبير».. أمَّا «إيفاريسست جاميلان» فقد وجد

على شاطئ «الإيفيت» مناظر «بوسان» الطبيعية. ويعمل «ديما هيس» أمام (بُرج حَمَام)، على طريقة «كاللو» و «دوبليسييس» التشردية . و «بروتو» العجوز يجتهد في تقليد الفلمنديين، كان يرسم بقرة بكل دقة. و «إيلودى» كانت تخطط لكوخ من القش، وصديقتها «جوليان» التى كانت ابنة أحد تجار الألوان كانت تصنع لها «الباليتة» الخاصة بها. وكان بعض الأطفال متجمعين حولها، يشاهدونها وهى ترسم. كانت تبعدهم لئلا يجربوا عنها الضوء، وتسميهم الذباب الصغير، وتعطيهم حلوى من السكر المعطر .

وعندما وجدت المواطنة «تيفينان» من بينهم أطفال جَمَالٌ، نظفتُ لهم وجوههم، وقَبَّلْتهم، ووضعت لهم أزهارًا فى شعرهم. ولاطفتهم بِرِقَّةٍ بها كآبة، لأنها لم تكن عندها بهجة الأمومة حتى تتجمل بالتعبير عن شعور رقيق ، ولأنها تريد أن تمارس فنّها فى الموقف والتجمع .

وهى الوحيدة التى لم تكن ترسم أو تصور . بل كانت تهتم فقط بالقيام بدورها، وكذلك على تحسين موضعها . كانت تحمل كراستها فى يدها ، وتنتقل من واحدٍ إلى الآخر ، إنه أمر سهل وجميل «لا صبغة ، ولا وجه ، ولا جسد ، ولا هوى» . كانت النسوة يَقُلْنَ ذلك ، وهى تملأ المكان بالحركة، والألوان ، والانسجام .

وكانت تبدو ذابلة متعبة، جميلة . كانت لا تكلُّ بهجة السفر ، وتتصف بمزاج متغير، علاوة على أنها كانت دائماً مبتهجة، ومتجاوبة، وعُرضة للغضب ، ومع ذلك فهى سهلة المراس ، ذات لسان لاذعٍ مع لهجة أكثر

أدباً، مبهمه ومتواضعة، حقيقية ومزيفة، ولذيذة . وإذا كانت «روز تيفينان» لم تكن تؤدي أعمالها على خير ما يرام ، وإذا كانت لم تصبح إلهة قط ، فذلك لأن الأوقات كانت سيئة ، ولم يكن يوجد في باريس ، لا بخور ولا هياكل الملائكة .

وكانت المواطنة «بليز» عند التحدث عنها تُبدى الاستياء، وتسميها «حماتي»، ولا تستطيع أن تراها دون أن تدعن لمثل ذلك الجمال والسحر. وفي «فايدو»^(١) كان يتكرر عرض «الراهبات الزائرات»^(٢)، و«روز» تتباهى بأنها قامت فيها بدور يعتمد على الموهبة . وذلك ما كانت تبحث عنه وتنتظره ، وحصلت عليه .

قال «ديما هيس» الجميل : إذن لن نرى «بامبلا» مطلقاً ؟
كان مسرح الأمة مغلقاً ، وأرسل ممثلو الكوميديا إلى «ماديلونيت» وإلى «بيلاجي» .

صاحت «تيفينان» وهي ترفع عينيها الجميلتين إلى السماء وهي تستنكر ذلك قائلة :

— هل هذه هي الحرية ؟

قال «جاميلان» : إن الممثلين الذين يعملون للمسرح القومي أرستقراطيون، ومسرحية المواطن «فرانسوا» تهدف إلى الندم على امتيازات النبلاء .

(١) فايدو مسرح مشهور بباريس أيام الثورة الفرنسية .

(٢) الراهبات الزائرات : أوبرا كوميدية كتبها فرانسوا ديفين (١٧٥٩ - ١٨٠٣) .

قالت «تيفينان» : سادتي ، أليس في وسعكم أن تفهموا مَنْ يريدون أن يداهنوكم؟....

وفي الظهر تقريباً شعر كل منهم بجوع شديد ، فعادت الفرقة الصغيرة إلى الفندق .

كان «إيفاريست» بجانب «إيلودي» يُذَكِّرُها - وهو يبتسم- بذكرىات أول مقابلات بينهما ويقول لها :

- طائران صغيران سقطا من أعلى السقف ، حيث كان عشمهما على إفريز نافذتك . وكنت تغذيهما عن طريق مناقيرهما ، أحدهما عاش وتعلّم الطيران ، والآخر مات في العش الذي صنَعْتِه له من القطن . «إننى أحبه أكثر من الآخر».. وقد قلت هذا في ذلك اليوم ، وكنت تضعين في شعرك «فيونكة» حمراء .

كان «فيليب ديبوا» و «بروتو» يسيران متقهقرين إلى الخلف قليلاً عن بقية المجموعة ، ويتحدثان عن روما ، حيث ذهبا إليها هما الاثنان ، وذلك كان في عام ١٧٧٢ ، وأخرى عند أواخر أيام الأكاديمية . وذَكَرَ أيضًا العجوز «بروتو» الأميرة «موندراجون» التى كان مغرمًا بها ، والتى لم يكن «الكونت التيرى» يلازمها كظللها ، وَلَمْ يَنْسَ «فيليب دى بوا» أن يتحدث عن «الكاردينال دى بيرنيس»^(١) الذى وجه إليه دعوة للعشاء عنده ، وكان أكثر المضيفين التزامًا .

قال «بروتو» : أنا أعرفه ، وأستطيع أن أقول دون مبالاة : إننى كنت

(١) حَبْرٌ وشاعر فرنسى ، ولد سنة ١٧١٥ ، وتوفى سنة ١٧٩٤ .

طوال فترة من الزمن من المقربين إليه ، كان يحب التردد على السُوقَةِ . وقد كان رجلاً محبوباً ، مع أنه كان مبتدئاً في كتابة الحكايات ونشرها، وكان يحمل في أصبعه الصغير فلسفة صحيحة أكثر مما هو موجود في رءوس اليعقوبيين^(١) الذين يريدون نشر الفضيلة بيننا ، وكذلك الصياح بالتأليه . ومن المؤكد حقاً أنني أحب أَكَلَةَ الرَّبِّ البسطاء الذين لا يعلمون ما يقولون ولا ما يفعلون ، أكثر من هؤلاء الساخطين الذين يلطخون سمعة القانون، والذين يجتهدون في توصيلنا إلى المقصلة ليجعلونا عقلاء وفاضلين، ويحملونا على عبادة الله الذي خلقهم على صورته .

في الزمن الماضي، كنتُ أقضى الصلاة في كنيسة «الإيليت» بواسطة رجل مسكين من رجال الدين، والذي كان يقول بعد أن يشرب . «لانغتاب الآثمين أبداً . نحن نعيش فيهم، ما نحن إلا رهبانٌ على غير استحقاق !» «فوافقني» يا سيدي، أن هذا الذي يلتهم الصلاة كانت عنده مبادئ أساسية صحيحة عن الحكومة، كان يجب الرجوع إليها هنا ، وأن يحكم بين الناس وفقاً لما هم عليه، وليس وفقاً لما تريدهم أن يكونوا عليه .

كانت المواطنة «تيفينان» متقربة إلى العجوز «بروتو»، فهي كانت تعرف أن هذا الرجل قد عاش عيشة بذخٍ فيما مضى ، وأن صورها عن هذه الذكرى البراقة التي تُظهر الفقر الحالى لهذا الممول السابق ، والذي تراه أقل خزيًا، وفقراً عامًّا، وسببه الخراب العام .

(١) اليعقوبيون نسبة إلى الراهب الدومينيكي يعقوب . كان عضوًا في نادي جمهوري إنان التورة العرسية . وهو مذهب ديموقراطي متطور

كانت تتأمل فيه بإعجاب وباحترام ، فهو من فلول هؤلاء الكرام الذين كانت الممثلات الكوميديات اللاتي يكبرنها سنًا يُعْظَمُنَّهُمْ وهن يتنهدن . وكذلك كانت تصرفات هذا الرجل الطيب « بالريدينجوت الأحمر » المائل إلى السواد - ولكنه نقى ونظيف - كانت تحوز إعجابها .

قالت له : يا سيد «بروتو»، معروفٌ من زمنٍ مَضَى أَنتَ كُنْتَ تنساب في حديقة جميلة ، في ليالي مضيئة، في أيكات من الريحان . أنت وراقصات وكوميديانات على نغمات هادئة صادرة من المزامير والقيثارات.... وأسفاه ! لقد كُنَّ غاية في الجمال، أليس كذلك ؟ ألم تكن إلهاتك بالأوبرا والمسرح الفرنسي، أجمل منا نحن الممثلات القوميات الصغيرات ؟

أجاب بروتو . لا تصدقي يا أنستى واعلمى أنه إذا كانت هناك في ذلك الوقت فتاة تشبهك لكانت تنزهت بمفردها دون مُنافِسة في الأيكة التي تريد أن تجعل منها فكرة إطراء .

كان فندق «لاكوش» فندقًا ريفيًا. وكان فرع من شجر الآس معلقًا على باب يُفتح على ساحة أو فناء رطب دائمًا ، حيث يسعى الدجاج لالتقاط رزقه . وفي نهاية الفناء يرتفع السكن، ويتكون من دور أرضى وطابق واحد ، ومُعَمَّم بسقف من الآجر تغطيه الطحالب، وتكتسى حوائطه بشجيرات ورد كبيرة، مزدهرة جميعها بالورد . وعلى اليمين يوجد نبات العيهوم يُظهر أشواكه فوق الحائط المنخفض للحديقة . وعلى اليسار كانت الحظيرة بِمِعْلَفٍ خارجي ، ومخزن ببناء مفرغ، وسلم مسنود إلى الحائط . ومن هذا الجانب أيضًا، تحت إحدى المظلات المكتظة

بالأدوات الزراعية، وعلى أرومات من أعلى عربة قديمة كان يقف ديك أبيض يحرس دجاجاته .

كان البناء مقفولا في هذا الاتجاه بحظائر يرتفع أمامها «الزُّبُل» كأنه ربوة عظيمة، وفي هذا الوقت كانت فتاة عريضة أكثر منها طويلة تُقَلِّب شعرها الذى فى مثل لون التبن كان ماء المزابل يملأ نعلها، وكانت تغسل قدميها العاريتين وترفع كعبيها الأصفرين كالزعفران على فترات، وقد ظهرت من تحت تنورتها المرفوعة رَبَلَاتٌ ساقياها^(١) ضخمة وقصيرة .

وبينما كان «فيليب ديماهيس» يشاهدها مبهوراً، لاهياً بلعبة الطبيعة الغربية التى كونت هذه الفتاة العريضة، نادى صاحبُ الفندق قائلاً :

— هيه أيتها القُرْمَة ! اندهبى وأحضرى بعض الماء !

التفتت، وأبدت وجهًا قرمزيًا ، وفمًا عريضًا حيث تنقصه إحدى الأسنان . كان لابد من قرن أحد الثيران لفتح ثغرة فى هذه الأسنان القوية. وتضحك وهى حاملة مِذْرَاتِها على كتفها. كانت ذراعاها تشبهان — فى حجمهما — فخذين تلمعان تحت أشعة الشمس .

أعدت المائدة فى القاعة السفلية، حيث كان الدجاج يُشْوَى تحت حجارة الموقد المزدان ببنادق قديمة . وكانت الصالة طولها أكثر من عشرين قدمًا، ومنقوشة بالجير، ولم تكن مضاءة إلا بالنوافذ الزجاجية التى توجد

(١) الرَبَلَات ، جَمْعُ رَبْلَةٍ ، وهى كل لحمة غليظة . أو باطن العبد

بالبا، ولونها أخضر باهتًا، ونافذة واحدة محاطة بالورود، والتي بقربها تجلس الجدة تدير دولا ب مَغْزَلْها. وكانت تضع فوق رأسها منديلًا مُحَرَّمًا من عهد وصاية «دوق أورليانز». وكانت عقد أصابع يدها متسخه بالتراب، تُمسك بها المِغْزَل. وكان الذباب يحط على أطراف جفنيها، ولكنها لا تطرده. وهى كانت بين ذراعى والدتها حين شاهدت لويس الرابع عشر يمر فى عربته .

ومنذ ستين عامًا سافرت إلى باريس . وقد قصّت على النسوة الثلاث الواقفات أمامها بصوت ضعيف أنها رأت مبنى البلدية، والتويليرى، والسامرى، وأنها عندما كانت تعبر «لوبيون رويال»^(١)، كان يوجد قارب يحمل تفاحًا إل السوق، وكان به ثقب، فانساب التفاح منها إلى الماء ، وتحوّل سطح النهر إلى اللون الأحمر القانى .

وكانت قد علمت بالتغيرات الجديدة التى حدثت فى المملكة، وخاصة عن الشقاق الذى وقع بين «الأكليروس» المحلف، وغير المحلف. وكانت تعرف أيضًا أنه كانت توجد حروب ومجاعات، وظهور علامات فى السماء. ولم تصدق قط أن الملك قد مات، كانت تقول : لقد هربوه عن طريق أحد الأنفاق، وسلموا للجُلاد رجلاً من العامة بدلًا منه .

وعند قدمى الجدة يوجد مهد به آخر مولود من عائلة «بواترين، جانو»، وكانت أسنانه فى طور النمو . رفعت «تيفينان» المهد وابتسمت للطفل الذى يتحرك بصعوبة، فقد أنهكته الحمى والمرض ، ولا شك أن

(١) الكوبرى الملكى .

مرضه شديد، لأنهم استدعوا له الطبيب، المواطن «بيليبور» الذى كان فى الحقيقة نائباً احتياطياً فى الجمعية الوطنية . ولم يكن يدفع مطلقاً كشف الطبيب .

كانت المواطنة «تيفينان» - المدربة على أبيها - فى كل مكان، كانت منكدة من الطريقة التى تغسل بها «الأورمة» الأوانى المنزلية، كانت تجفف الأقداح والشوك . وبينما كانت المواطنة «بواترين» تنضج الحساء وتتذوقه كمضيفة ماهرة، كانت «إيلودى» تقطع رغيف خبز وزنه أربعة أرطال إلى شرائح، وهو ما زال ساخنًا من الفرن، وعندما رآها «جاميلان» تفعل ذلك، قال لها .

- قرأتُ منذ بضعة أيام كتابًا كتبه شاب ألماني لا أتذكر اسمه، والذى تُرجم إلى الفرنسية ترجمة ممتازة، نقرأ فيها عن فتاة اسمها «شارلوت» التى - مثلك يا «إيلودى» - كانت تقطع فطائر - ومثلك - تقطعها بنعومة، وبطريقة جميلة جدًا، حتى أنه عندما رآها «ويرزير» الشاب^(١) وقع فى حبها .

سألته «إيلودى» . وهل انتهى ذلك بالزواج ؟

- أجاب «إيفاريست» لا، انتهى ذلك بموت «ويرزير» الأليم .

تناولوا عشاءهم بشهية لأنهم كانوا جائعين، ولكن الطعام كان متوسطًا. واشتكى «جان بليز» من ذلك، لقد كان نهماً جدًا، ويرى أن

(١) آلام ويرزير الشاب أو آلام مرتز (١٧٧٤) . لها ثلاث ترجمات فرنسية

الطعام الجيد سُنَّة الحياة، ولا مراة في أن من يخضع لنظام معين فذلك يكون المجاعة بعينها . والثورة قلبت أنية الطهى في جميع المنازل، والعامّة من المواطنين ليس لديهم شيء يقتاتون به . أمّا الناس المهرة – مثل جان بليز – فهم يتكسبون كثيرًا من شقاء الناس ، حيث يذهبون عند صاحب المطعم ويوضحون فكرهم وهم يتخمون بالطعام .

أمّا بالنسبة إلى «بروتو» الذى – فى العام الثمانى للحرية – كان يعيش على القسطل ، وعلى فتات الخبز، فقد ذكره بأنه كان يتناول عشاءه عند «جريمودى لارينبير» عند مدخل «الشانزليزيه»، ورغبة منه فى أن يحصل على لقب «ذوّاق» – أمام طعام الكرنب المطبوخ بودك الخنزير ، والذى تطهوه السيدة «بواترين» – كان يشارك فى الآراء عن طرق الطهى، والقواعد التى تتعلق بالذوق .

ولما صرّح «جاميلان» بأن أحد الجمهوريين يحتقر ملذات المائدة، أعطى المعالج العجوز ، هاوى الآثار القديمة، الإِسْبارطىّ الصغير الصفة الحقيقية للطعام السائل الأسود (١).

وبعد العشاء، يحمل «جان بليز» – الذى لم ينس الأعمال الجدية – أدواته ليعمل فى أكاديميته المتنقلة رسومات تخطيطية للفندق الذى رأى أنه غاية فى الرومانسية فى تلفه . وبينما كان «فيليب ديماهيس» و «فيليب ديبوا» يرسمان الحظائر جاءت «الأورمة» تقدم الطعام للخنازير . ويقترب المواطن «بيلليبور» ضابط الصحة، الذى خرج فى نفس الوقت من

(١) نوع من الطعام السائل ، مثل العصيدة .

الصالة السفلية حيث كان يعالج بواترين الصغير ، يقترب من الفنانين، وبعد أن قدم لهم إطراءه لمواهبهم التي شرفت الأمة كلها ، أشار إلى «الأورمة» وهي وسط خنازيرها وقال :

- « هل تَرَوْنَ هذه المخلوقة ؟ إنها ليست فتاة كما تعتقدون ، بل هي فتاتين. أقول ذلك صراحة ، لقد أدهشنى هيكلها العظمى ففحصتها. ولاحظت أن معظم عظام هيكلها مزدوجة . لكل فخذ عظمتان ملتحمتان معاً ، ولكل كتف ، عَظْمَتَا عضد . وكذلك لها عضلات مزدوجة. وفي رأيي أنها تَوَّءَمٌ ملتصقتان بشدة، أو بتعبير أفضل : منصهرتان معاً .

هذه الحالة مهمة، وقد عرضتها على الأستاذ «سان هيلير» الذي عبر لي عن امتنانه. إن هذا الذي ترون عبارة عن وحش أيها المواطنون، وهؤلاء الناس يسمونها «الأورمة»، فكان أولى بهم أن يسمونها «الأورمتين»، لأنهما اثنتان. والطبيعة فيها كثير من هذه العجائب ... عمتم مساء أيها الرسامون !. هذه الليلة ستذهب عاصفة ...

وبعد تناول العشاء على ضوء الشموع، كَوْنُ جَمْعُ «بليز» في فناء الفندق - يصحبه الابن والابنة بواترين - فريقاً للعبة «الاستغماية» يعبر فيها السيدات الصغيرات والرجال الشباب عن حيوية يفسرها سِنُّهم بما فيه الكفاية، حتى لا نبحت عَمَّا إذا كان العنف وتقلبات الزمن قد نبهت حماسهم .

وعندما أسدل الليل ستاره تماماً اقترح «جان بليز» أن يلعبوا في الصالة السفلية ألعاب الأطفال. وطلبت «إيلودي» لعبة «صيد القلب» التي

لقيت قبولا من المجموعة. وإرشادات الفتاة رسم «فيليب ديماهيس» بالطباشير على الأثاث والأبواب والحوائط سبعة قلوب، بناقص قلب عن عدد اللاعبين، لأن «بروتو» العجوز اتخذ مكانه بالمعروف بين أفراد الفرقة.

كانوا يرقصون في حلقة «الدائرة تأخذ حذرهما» وبإشارة من «إيلودي» جرى كل واحد منهم ووضع يده على أحد القلوب المرسومة. «جاميلان» كان مشتتًا، ووجد أن كل القلوب قد تم الاستيلاء عليها، وأعطى رهانه المُدَيَّةَ الصغيرة التي اشتراها من سوق «سان جيرمان» بستة أفلس، والذي كان قد قطع الخبز بها من أجل الأم الفقيرة. وأعادوا اللقات من جديد، ولم يجد «بليز»، و «إيلودي»، و «بروتو»، و «تيفينان» قلوبًا، وكل منهم أعطى رهانه، خاتمًا، أو شبكة للشعر، أو كتابًا صغيرًا مجلدًا بجلد الماعز، أو سوارًا، ثم بعد ذلك أجرى السحب على الرهونات في حجر «إيلودي»، وكل فرد لكي يسترد رهانه ينبغي عليه أن يبين مواهبه الاجتماعية، إمَّا أن يشدَّوْ بأغنية، أو يُقْرِضَ بعض الأشعار.

«بروتو» ألقى خطابَ رئيس فرنسا، في أول أغنية عن «جان دارك»:

«إننى دينيس^(١) وقديس مهنتي

أحب الغال ... » .

(١) دينيس : مُبَشِّرُ إنجيلي في بلاد الغال ، وأول أسقف بياريس في القرن الأول أو الثاني ، وقُتِلَ في سان دينيس .

ومع أن المواطن « بليز » أقل علمًا بالأدب فإنه قد سرد - دون تردد -
إجابة « ريشموند » :

« سيدى القديس ، لم يكن من العناء

أن نهجر مجال السماء » .

وحينئذ قرأ الجميع بمتعة العمل الفنى لأريوست الفرنسى ، وكان
أكثر الرجال وقارًا يبتسمون من غراميات « جان » و « دينوا » ، والمغامرات
العاطفية لأنيببىس و « مونروز » ، ومغامرات الجمار المجنح .. وكان جميع
المثقفين يعرفون عن ظهر قلب أجمل ما فى هذه القصيدة الفلسفية المسلية.

و « إيفاريست جاميلان » نفسه - بالرغم من شدة طبعه عندما كان
يأخذ من حجر « إيلودى » مديته الرخيصة كان ينشد عن طيب خاطر ،
دخول « جريسبوردون » إلى الجحيم والمواطنة « تيفينان » شدة - دون
صحة - أغنية « نينا » . « عندما يعود المحبوب » . و « ديماهيس » غنى على
لحن « الفريدوندين » :

« البعض قد أخذوا خنزير أنطوان ،

هذا الراهب الطيب ،

والبسوه عباءة

وجعلوه راهبًا ،

ولم يكلفه ذلك سوى اليسير ... » .

كان « ديماهيس » حينئذ مشغول البال ، ففى هذا الوقت كان يحب

النسوة الثلاث بشدة ، واللائى لعب معهن «لعبة الرهان» ، وكان يرمق كل واحدة منهن بنظرات هادئة ومُحْرِقة . كان يحب «تيفينان» لرقتها ، وليونتتها ، وفنها الراقى ، وغمزاتها ، وصوتها الذى يمس نياط القلب . وكان يحب «جوليان هازارد» ، بالرغم من شعرها عديم اللون ، وأهدابها البيضاء ، وقوامها النحيل ، لأنه كان مثل «دينوا» الذى تحدث عنه «فولتير» فى العذراء «جان دارك» ، كان دائماً مستعداً بكرمه أن يمنح الأقل جمالا علامة حب بقدر ما تبدو له ، حتى لا تشغل نفسها بأى شىء ، ومن ثم الأكثر قبولا .

كان خالياً من أى زهوٍ ، ولم يتأكد مطلقاً أنه سيلاقى قبولاً ، ولم يكن متأكداً أن يناله قط . وكذلك كان يهب نفسه لكل مُصادفة ، منتهزاً اللقاءات السعيدة والمرحة فى لعبة «الرهان المطلوب» ، فتبادل بعض الحديث الودى مع «تيفينان» التى لم تغضب منه ، ولكنها لم تستطع مطلقاً أن تجيبه بسبب نظرات الغيرة فى عيون المواطن «جان بليز» .

وتحدّث أيضاً مع المواطنة «إيلودى» بحديث أكثر عاطفة ، وهو يعرف أنها مرتبطة بجاميلان ، ولكن لم يكن الوضع مُلحاً لأن يمتلك قلباً لنفسه فقط ، و «إيلودى» لا تستطيع أن تحبه ، ولكنها ترى أنه ظريفٌ ، وهى لم تنجح فى أن تخفى ذلك عنه . وأخيراً حمل رغباته الجامحة كلها ليقدمها إلى أذن المواطنة «هازارد» التى كانت ترد عليه وهى فى حيرة يمكن أن تعبر عن إذعان إجبارى ، كما أنها عبر عن لامبالاة عابسة وعدم اكتراث ، و «ديما هيس» لا يعتقد أبداً أنها لا تبالى .

ولا يوجد في «الفندق» سوى غرفتين للنوم في الطابق الأول، وعلى نفس الممشى، والغرفة التي توجد على اليسار كانت مزينة بأوراق الزهور، وبمرآة في حجم اليد، وقد تعرض إطارها المذهَّب إلى إساءة الذباب منذ طفولة لويس الخامس عشر. هنا - تحت قبة سرير بنسيج هندي مشجر - ينتصب سريران تزيينهما وسائد محشوة بريش الطيور، ولحاف محشو بالريش، وأغطية سراير. هذه الغرفة كانت محجوزة للمواطنات الثلاث.

وعندما حان وقت الانصراف حَمَلَ كُلٌّ من «ديماهيس» والمواطنة «هازارد» شمعدانه، وتبادلا تحية المساء في الردهة. أَمَّا النَّحَاتُ العاشق فأعطى ابنة بائع الألوان ورقة، راجياً فيها أن تلحق به عندما يكون الجمعُ نائماً، وذلك في المخزن الذي يقع بأعلى غرفة المواطنات الثلاث.

وكان متبصراً وعاقلاً، فقد تفقَّد مداخل وقسمات الفندق، وتفقَّد المخزن الممتلئ بحزم البصل، وفاكهة مجففة، وصناديق، وحقائب قديمة. وَرَأَى أيضاً سريرًا تالفاً وغير صالح للاستعمال، ومرتبّة من القش مبقورة، حيث كانت تتقافز منها البراغيت.

وفي مواجهة غرفة المواطنات كانت توجد غرفة بها ثلاثة أسرّة، صغيرة نوعاً ما، حيث لابد أن ينام المواطنون المسافرون حسب راحتهم. ولكن «بروتو» الذي كان سياريتي (أى: محباً للملذات) ذهب إلى المخزن لينام على حشائش العلف المجففة.

أَمَّا بالنسبة إلى «جان بليز» فقد اختفى. ولم يلبث «ديبوا» و«جاميلان» أن ناما. ويرقد «ديماهيس» على السرير، ولكن عندما خيم

سكون الليل على الفندق كأنه صفحة المياه النائمة، نَهَضَ النَّحَاتُ وارتقى
الدرج الخشبي الذي كانت درجاته تطلق تحت أقدامه العارية

كان باب المخزن مُوَارَبًا، وكانت تنبعث منه حرارة خانقة، وروائح
نَفَّاذة من فاكهة عفنة. وعلى السرير التالف كانت تنام «الأورمة» فاتحة
فَاحًا، وقيمصها منحسر، وساقاها مبتعدتان عن بعضهما. كانت
ضخمة، وشعاع من القمر يتسلل من المَنُور، مختلطًا بلون السماء
واللون الفضي على بشرتها التي تبدو بين القشور والقاذورات الملطخة
بماء المزابل بَضَّةً، وتضوى بالشباب.

ألقي «ديماهيس» بنفسه عليها، فاستيقظت مذعورة، كانت خائفة،
وصاحت، ولكن بمجرد أن أدركت ما هو المراد منها اطمأنت، ولم تُقاوم
أو تعترض، وتظاهرت بأنها غارقة في سُبات شبه عميق، يحرمها من
الوعي بالأمور، ولكن يسمح لها ببعض الإحساس....

وعاد «ديماهيس» أدراجه إلى غرفته، حيث نام حتى أشرقت شمس
النهار نَوْمًا هادئًا وعميقًا. وفي اليوم التالي - بعد آخر نهار في العمل -
واصلت المجموعة الطريق إلى باريس.

وعندما دفع «جان بليز» إلى صاحب الفندق بحوالة حكومية، اشتكى
المواطن «بواترين» من أنه لم يكن يرى إلا «النقود المربعة»، ووعد بشمعة
جميلة إلى الشخص الذي سوف يُعيد القطع الذهبية.

وقدَّمَ أزهارًا إلى المواطنين، وذلك أنه أَمَرَ «الأورمة» فصعدت على
سلم، لابسة خُفًا، وترفع ثوبها عن ساقها، وتظهر رِبَلَات ساقها

اللامعتين ، وقطفت - بدون ملل - الورود المتسلقة التى تغطى الحائط .
ومن يديها العريضتين سقط وإبلً من الورود كالسيل على تنورات
«إيلودى» المنبسطة ، و « جوليان » ، و « تيفينان » . وتُمَلَأُ العربية منه،
ويعود الجميع إلى منازلهم يحملون باقات منه بين أحضانهم ، فيعطر
شذاه سباتهم ويقتلهم .



في صباح السابع من سبتمبر توجهت المواطنة «روشيمور» إلى المُحَلَّف
«جاميلان»، حيث إنها تريده أن يهتم ببعض المشتبه فيهم من معارفها،
وفي الردهة قابلت «بروتو ديزيليت» الذى كانت تحبه فى أيام يُسرهِ . وكان
«بروتو» يحمل اثنتى عشرة دسنة من الدُمى التى يصنعها بطريقته
ليسلمها إلى تاجر اللعب فى شارع «لالوا». كان مضطراً أن يحملها بطريقة
سهلة، بأن يعلقها على طرف عصا، مثل الباعة الجائلين .

وقد كان يتصرف بظرف مع جميع السيدات، حتى مع هؤلاء اللائى
أنهكنه بجاذبيتهم، كما هى الحالة بالنسبة إلى السيدة «روشيمور» ، فهى
على الأقل مُرَجَّةٌ إليها اللوم بالخيانة، والغفلة، وعدم الإخلاص، والبدانة،
وهو لم ير أنها جذابة .

وعلى كل حال فقد قابلها على «بَسْطَةِ السلم» القذرة، ذات البلاط
المفكك، مثلما كان سابقاً على سالام مدخل ديزيليت، ورَحَّبَ بها ، وطلب
منها أن تشرفه بزيارة مخزنه. صعدت السلم بخفة، ووجدت نفسها

تحت « صقالة » تحمل أعمدتها المنحنية سقفاً من القرميد به كُوة .
ولا يستطيع المرء أن يظل واقفاً في هذا المكان، فجلست على المقعد الوحيد
الموجود في هذا المكان، وجالت ببصرها للحظة على القرميد المفكك،
وسألت، مندهشة وحزينة :

- هل تعيش هنا يا «موريس» ؟ ألم تَحْشَ المزعجين ؟ لابد أن يكون
المرء عفريتاً أو قطة ليصل إليك .

أجابها قائلاً أنا لا أمكث فيه كثيراً ، ولا أخفى عليك أن المطر يسقط
أحياناً على سريري الحقيق ، وذلك مانع ضعيف . وفي الليالي الهادئة أرى
منها القمر الذي هو صورة وشهادة لغراميات البشر . لأن القمر
ياسيدي ، جُعل في كل وقت ليشاهده المحبون، وفي اكتماله أصفرَ شاحباً
ومستديراً ، يُلهم العاشق بجوهر رغبته وأمانيه .

أجابته المواطنة قائلة فهمت

وقال «بروتو» مستطرداً : تصدر عن القطط ضوضاء جميلة من هذا
المزrab، ولكن يجب أن نستميح عذراً للحب، فلها أن تموء وأن تتواعد
على الأسقف، فقد امتلأت حياة البشر بالآلام والجرائم .

كان الاثنان من التعقل بحيث أنهما تلاقيا كأصدقاء افترقا في اليوم
السابق ليذهب كل منهما لينام، وعندما صارا غريبين ، كل منهما عن
الآخر، تبادلوا الحديث معاً بودٍّ، ودون كلفة .

كانت مدام «روشيمور» تبدو مهمومة بسبب الثورة، التي كانت دائماً
مبتسمة لها ومثمرة، الآن تحمل إليها الهموم والقلق، وحفلات عشائها

أصبحت أقل تَأَلُّفًا، وأقل بهجة . وفقدت نغمات قيثارها تأثيرها المتألق على الوجوه الحزينة، وهجر موائد اللعب عندها أغنى أغنياء من الشخصيات الهامة . والكثير من معارفها المقربين الآن أصبحوا مشبوهين وقد اختفوا، وقُبِضَ على صديقها الممول «مورهاردت» وتم اعتقاله، ومن أجله جاءت إلى المحلف «جميلان» لتترجاه، بل هى نفسها كانت مشتبه فيها. بعض الحرس الوطنى قد قاموا بتفتيش مسكها، قلبوا أدراج خزانها، ورفعوا بعض رقائق «الباركيه»، كما بقروا بعض المراتب بضربات من «السُّنكى». ولم يجدوا أى شىء، وقدموا لها اعتذارهم، وشرّبوا نبيذها . وقد كادوا أن يمروا بالقرب من رسائلها مع أحد المهاجرين يدعى «م. ديكسبيل» وقد أنبأها بعض أصدقائها من اليعقوبيين بأن «هنرى» الجميل حبيب قلبها، أصبح معرضاً للشبهة بسبب عنفه الذى يتجاوز حدوده ليظهر بمظهر المخلص .

كانت جالسة متكئة بمرفقيها على ركبتيها ، وتسند خديها بكفّيها وهى واجمة . وتسال صديقها القديم ، الجالس على الحشية :

— ما رأيك ؟ مَنْ وَرَاءَ كل ذلك يا «موريس» ؟

●أعتقد أن هؤلاء الناس أعطوا أحد الفلاسفة وهواة العروض مادة دسمة للتأمل واللاهو، ولكن من الأفضل بالنسبة لك يا عزيزتى أن تكونى خارج فرنسا .

— موريس ، إلى أين سيؤدى بنا ذلك ؟

● هذا يا «لويز» ما سألتينيه ذات يوم حينما كنا في عربة على شاطئ «الشير»، على طريق ليزيليت، عندما كان جوادنا الذى كان ملجمًا قد جمع بنا جموحًا مخيفًا.. فما أشدَّ حُبَّ النساء للاطلاع !

والآن أيضًا تريدين معرفة إلى أين نحن ذاهبون ؟ فاسألى العرَّافين عن ذلك، فأنا لستُ كاهنًا أو عرَّافًا يا صديقتى . وحتى الفلسفة الأكثر صلاحًا ما هى إلا معونة ضعيفة لمعرفة المستقبل . هذه الأمور سوف تنتهى ، لأن كل شىء ينتهى، ويمكن التكهن فيها بمنافذ متعددة: انتصار التكتل، ودخول الحلفاء باريس، فهم ليسوا بمنأى عنها، ومع ذلك فإننى أشك فى وصولهم إليها .

هؤلاء الجنود - جنود الجمهورية - يقاتلون بحمية لا يستطيع أحد أن يخمدها . وقد يتزوج «روبسبير» من مدام «رويال» ويطلق على نفسه اسم حامى المملكة أثناء القصور الشرعى للويس السابع عشر .

صاحت المواطنة وقد نفذ صبرها لتتغمس فى هذه المغامرة الجميلة : هل تعتقد ذلك ؟

واستطرد «بروتو» قائلاً : إن «الفاندية» قد تتغلب عليه، وأن جمهورية الكهنة قد تتأسس ثانية على أكوام من الأطلال، وتكدسات من الجثث. لن تستطيعى يا صديقتى العريضة أن تدركى أن الإمبراطورية التى يحرسها الأكليروس بكثرة الحمير ، عفواً أقصد بكثرة «الأنفس»، زلة لسان. إن الأكثر احتمالاً - فى اعتقادى - أن المحكمة الثورية سوف تؤدى إلى تدمير النظام الذى أسسته، فهى تهدد العديد من الرعوس،

وهؤلاء الذين تخيفهم لا يُحصى عددهم، إنهم سيجتمعون، ومن أجل تدميره سوف يدمرون النظام. وأعتقد أنك قد سَعَيْتَ لتعيين «جاميلان» في هذا المنصب، فهو رجل فاضل، وسوف يصبح مخيفاً. وعلاوة على ذلك فأعتقد أن هذه المحكمة التي أُنشئت لإنقاذ الجمهورية هي التي سوف تفقدها.

كانت الجمعية الوطنية تريد - مثل الملكيّة - تريد أن يكون لها أيام أعياد خاصة بها، وكذلك تكون لها محكمتها الخاصة بها، وتتوفر أمنها عن طريق قضاة مُعَيَّنِينَ عن طريقها، ومُلْزَمِينَ بتبعيتها. ولكن أعياد الجمعية الوطنية تبدو أدنى من أعياد الملكية، وأن محكمتها الثورية أدنى سياسة من محكمة لويس الرابع عشر المحرقة!

كان يسود محكمة الثورة شعور بعدالة وضيعة، ومساواة سطحية تجعلها في الحال مضحكة ومقوتة، ومثيرة لنفور الناس أجمعين.

هل تعلمين يا «لويز» أن هذه المحكمة التي سوف تدعو ملكة فرنسا وواحد وعشرين من مُشرَّعيها للمثول أمامها، قد أدانت بالأمس خادمة مذنبة لأنها هتفت. «يعيش الملك!» بنية سيئة، وبفكرة هدم الجمهورية؟ إن قضاتنا جميعاً المتشحين بالسواد المزين بالريش يسرون على نهج «وليم شكسبير»، العزيز جداً على الإنجليز، والذي أدخل على المسرحيات التراجيدية لمسرحه، هزليات غير مُتقنة.

سألته المواطنة حسناً يا مورييس.. هل أنت دائماً سعيد بالحب؟

أجاب بروتو : يا للأسف ! الحمام يحط على البرج الأبيض، ولا يحط
مطلقاً على برج مقوَّض .

قالت له : إنك لم تتغير إلى اللقاء يا صديقي !

في هذا المساء ، كان «هنرى» جندي الخيالة (الفارس)، متوجّهاً عند
مدام «دى روشيمور» من غير أن يُطلَب منه ذلك، فوجدها تختم خطاباً
قرأ عليه عنوانَ المواطن «رولين» في «فيرنون» .

كان ذلك - كما يعرف - خطاباً إلى إنجلترا . و «رولين» كان قد تسلّم
بريد مدام «دى روشيمور» عن طريق حوذى البريد وأرسله إلى
«دييب»^(١) عن طريق بائع سمك. ثم سلمه قائد أحد القوارب - ليلاً - إلى
سفينة بريطانية كانت تطوف بالساحل، وتسلمه أحد المهاجرين (م. دى
اكسبيلي) في لندن، وعندما رآه مُهمّاً، سلمه إلى مكتب «سان جيمس» .

«هنرى» كان شاباً وسيماً، و «أخيل» لم يكن جامعاً لمثل تلك الوسامة
ومثل تلك القوة عندما تقلّد أسلحته التي قدمها له «أوليس»، ولكن
المواطنة «روشيمور» التي كانت فيما مضى متأثرة بسحر جمال الشاب
بطل مجلس العموم تحولت عنه فكراً وروحاً، منذ أن أخطرت بأن هذا
الجندي الشاب يمكن أن يتسبب في شبهتها وتدميرها .

«هنرى» كان يشعر أنه ربما لن يستطيع التحكم في قواه ، وألاّ يحب
مدام «روشيمور»، ولكن الذى كان يؤله أنها لا تخصصه مطلقاً بأى ميزة،

(١) دييب . مدينة فرنسية .

وقد كان يعتمد عليها لاستيفاء بعض النفقات التي كانت المخابرات الجمهورية قد كلفته بها .

وأخيرًا، عندما فكر في أقصى ما يمكن أن توضع فيه النساء، وكيف يتغيرن بسرعة من الحنان الشديد إلى أقصى درجات الجمود والبرود، وكم من اليسير عليهن أن يُصَحَّين بأعز ما لديهن، وأن يُدَمَّرْنَ من يُحِبِّين إلى درجة العبادة، وقد رواه الشك في أن هذه المرأة «لوز» يمكنها في يوم الأيام أن تزج به إلى السجن لتتخلص منه. وقد رأى أن من الحكمة أن يغزو هذا الجمال المفقود مرة أخرى، ولهذا فقد جاء مسلحًا بكل وسائل سِحره .

كان يقترب منها ، ثم يبتعد ، ثم يقترب مرة أخرى، يمسها ، ثم يبتعد عنها، حسب قواعد الإغراء في رقصات الباليه، ثم ألقى بنفسه على المقعد، وبصوته الذي لا يُقهر، والذي يصل إلى قلوب النساء، امتدح لها طبيعة الوحدة، واقترح عليها - وهو يتنهد - نزهةً في «إيرمينوفيل»^(١) .

حينئذٍ ضربت على قيثارتها بعض الأنغام، وصوبت حولها بعض النظرات، التي تتم عن الضيق ونفاد الصبر .

وفجأة نهض «هنري» وانتصب عابسًا وحانقًا، وأخبرها أنه سيذهب إلى الجيش، وبعد بضعة أيام سيكون أمام مدينة «موبيج». ودون أن تبدى أى دهشة أو ارتياح أجابته بإشارة من رأسها .

(١) إيرمينوفيل قرية فرنسية مدفون فيها حاك جاك روسو .

فقال «هنرى» : ألن تهتئيننى على هذا القرار ؟

- أهنئك على ذلك .

كانت تنتظر صديقاً جديداً أُعجبت به إلى أقصى درجات الإعجاب، وكانت تعتقد أنها ستحصل منه على مكاسب كثيرة، كانت تنتظر «ميرابو» المبعوث من جديد، أو «دانتون» المهذب، والذى صار مُمولاً، أو أحد السباع الذى كان يتحدث عن إلقاء جميع الوطنيين فى نهر السين. وفى كل لحظة كانت تنتظر أن تسمع رنين الجرس، فتسرى فى جسدها رعشة. وحتى تجعل «هنرى» ينصرف تظاهرت بالتثاؤب، والتزمت الصمت، وتصفحت نوتة موسيقية كانت معها، ثم ثأبت مرة أخرى، وعندما رأت أنه لا يريد الانصراف قالت له إنها يجب أن تخرج . وانصرفت ودخلت غرفة زينتها .

صاح عليها بصوت متأثر :

- وداعاً يا «لويز» !.... ربما لا أرك إلى الأبد ؟ وعبت بيديه فى درج المكتب المفتوح يتصفح ما يجده .

وبمجرد أن وجد نفسه فى الشارع فض الرسالة المرسلة إلى المواطن «رولين» وقرأها باهتمام. فى الحقيقة كانت الرسالة تحتوى على لوحة عجيبة عن حالة الفكر العام فى فرنسا . تتحدث عن الملكة وعن «تيفينان»، وعن الحكمة الثورية، وأحاديث كثيرة ودية عن «بروتو ديزيليت» الطيب.

وبعد أن أنهى قراءة الرسالة ووضعها في جيبه تردد للحظات، ثم اتخذ قراره، وحَدَّث نفسه قائلاً: إن خير البر عاجله. وتوجه إلى قصر «التويليرى»، وتسلل إلى غرفة الانتظار للجنة الأمن العام.

في هذا اليوم، في الساعة الثالثة بعد الظهر، كان «إيفاريسست جاميلان» يجلس على مقعد المحلفين بصحبة أربعة عشر زميلاً يعرف معظمهم، إنهم أناس بسطاء، أشرافٌ ووطنيون، وعلماء وفنانون، وحقوقيون، أحد الرسامين كان مثله، ومصورٌ آخر، الاثنان يتمتعان بالموهبة. وهناك جراح، وإسكافي، وماركيز سابق، قَدَّمَ العديد من الأمثلة على وطنيته، وطبَّاعٌ، ومن صغار التجار، وعَيَّنة من عيَّات سكان باريس كانوا يجلسون هناك، كل منهم بزيَّه الخاص، عاملاً كان أو من البورجوازيين، شعرهم مقصوص على طريقة تيتوس (قصير من الأمام ومن الخلف على طريقة الإمبراطور تيتوس)، أو يرتدون الكاتوجان (وهو عبارة عن ضفائر مجدولة ومنسدلة على الرقبة والصدر)، والقبعة المقرنة ساقطة على رءوسهم حتى العيون، أو القبعة المستديرة موضوعة على مؤخرة الرأس، أو القلنسوة الحمراء التي تُخفى الأذنين

البعض كانوا يرتدون «الجاكت» ورداءً وسروالاً، كما في العهد السابق، وآخرون يرتدون سِتْرَةً قصيرة وسروالاً مخططاً على طريقة اللامتسرولين. وفي أقدامهم أحذية (بوت) أو أحذية (بالإبزم)، أو خِفَاف، فكانت شخصياتهم تمثل جميع نوعيات الملابس الرجالي السائدة حينئذ. ونظرًا إلى أنهم جميعًا قد جلسوا على مقاعدهم كثيرًا وتعودوا على ذلك،

فإنهم يبدون في راحة تامة على مقاعدهم، في حين كان «جاميلان» يحسدهم على هدوئهم. ويخفق قلبه، ويشعر بطنين في أذنيه، وعيناه تختلجان، وكل ما يحيط به يبدو له في لون داكن .

وعندما صاح الحاجب قائلاً : «محكمة» ، اتخذ ثلاثة من القضاة مقاعدهم على منبر صغير أمام منصدة خضراء ، مُرتدين قبعة بإشارة وطنية، تعلوها ريشات سوداء، وروب الجلسة بشرط ثلاثي الألوان، وتتدلى على صدورهم ميدالية فضية ثقيلة . ويجلس أمامهم - أسفل المنبر - نائب المدعى العام مرتدياً بدلة مماثلة. وكان الكاتب يجلس بين هيئة المحكمة، وكان مقعد المتهم شاغراً. كان «جاميلان» يرى هؤلاء الناس مختلفين عَمَّا كان يراهم من قبل، كان يراهم أكثر جمالاً ، وأكثر وقاراً، وأكثر مهابةً، بالرغم من أنهم يتناولون حالات شائعة، ويتصفحون أوراقاً ، وينادون على الحاجب ، أو يميل الواحد منهم إلى الخلف ليستمع إلى بعض البيانات من مُحلِّف ، أو ضابط في الخدمة . وخلف القضاة كانت ألواح حقوق الإنسان معلقة، وعلى يمينهم وعلى يسارهم - على الحوائط الإقطاعية القديمة - تمثالان نصفيان لكلٍّ من «لوبيلتييه دو سان فارجو»، و «مارات». وفي مواجهة مقعد المتهمين - في نهاية القاعة - تنتصب المنصة العامة . وبعض النسوة يُزَيَّنُّ الصف الأول، منهن الشقراوات، ومنهن السمراوات، أو الشهباءات، كُنَّ يرتدين على رءوسهن غطاءً رأسٍ يُغطيه خمارٌ ، كما يظل أيضاً خدودهن، وعلى صدورهن - حسب الموضة للصدور الممتلئة - ينعدق منديل أبيض حيث تنحرف «ياقته» على المريلة الزرقاء . كن يرتكن بأذرعهن معقودة على

حافة المنصة. ومن خلفهن كان يوجد بعض المواطنين المتناثرين على المقاعد، يرتدون أزياءً مختلفة ومتنوعة، تضافى على الدهماء طبعاً غريباً ومثيراً للإعجاب. وعلى اليمين - عند المدخل تقريباً، خلف أحد الحواجز الثابتة - يمتد مكان يقف فيه الجمهور. كان العدد هذه المرة قليلاً. إن القضية التي يتناولها قطاع المحكمة لا تهم سوى عدد صغير من الحاضرين، ولا شك أن القطاعات الأخرى التي تجتمع في نفس الوقت تستدعى قضايا تهم كثيراً من الناس .

ذلك ما كان يُطمئن «جاميلان» قليلاً، والذي يوشك قلبه أن يضعف ولن يتحمل جو الجلسات الكبيرة الملتهية . عيناه تتعلقان بأدق التفاصيل، كان يلاحظ وجود القطن في أذن الموثق، ووجود بقعة حبر على ملف النائب. وكان يرمق بكل دقة تيجان الأعمدة المنحوتة في زمن ضاعت فيه كل معرفة بأصول الفن القديم، فتعلو الأعمدة القوطية باقات من الزهور ونبات الآس والشوك. غير أن نظراته كانت تعود دون انقطاع إلى هذا المقعد العتيق، المزين بالقטיפية الحمراء المتآكلة ، والمسودة في المسندين. وكان يوجد أفراد من الحرس الوطنى بأسلحتهم يسدون جميع المنافذ .

وأخيراً ظهر المتهم يحرسه رماة القنابل اليدوية، ومع ذلك كان غير مقيد الأعضاء كما حدد القانون . كان رجلاً في حوالى الخمسين من عمره، نحيفاً، ضامراً، أسمر اللون، أصلع الرأس، أجوف الخدين، رقيق الشفتين، ولونهما بنفسجى، وكان يرتدى ملابس حسب الموضة القديمة.

كانت عيناه تتألقان كأنهما من الأحجار الكريمة، وتظهر خدوده لامعة، وذلك لأنه كان مصاباً بالحمى . وجلس . كانت ساقاه المشبكتان نحيلتين إلى درجة كبيرة، ويدها الكبيرتان المعقوتان يلفهما معاً . وكان يُسمَّى «مارى أدولف جيليرج» وكان متهمًا بتبديد في أعلاف الجمهورية . أدانته قرار الاتهام بتهم كثيرة وخطيرة، ولم تكن أى واحدة منها مؤكدةً . وبسؤاله، عنها نفى معظم هذه التهم، وفسر الأخرى تفسيراً ملائماً له . كانت لهجة مختصرة وباردة، وبصفة خاصة كان لبقاً، ويوحى بأنه رجل لا تأمل أن تحصل منه على شيء . كانت عنده إجابة لكل سؤال . وعندما يوجه إليه القاضى سؤالاً محرّجاً تظل قسماً وجهه هادئةً، وثابت القول، مع إسناد يديه على صدره، متقلصتين من القلق.

لاحظَ «جاميلان» ذلك ، وهمس في أذن جاره، وهو رسام مثله :
- أنظرُ إلى إبهاميه !

ويأتى الشاهد الأول ببعض الاتهامات المُفحمة . وعليها تُبنى جميع الاتهامات، وهؤلاء الذين نُودى عليهم فيما بعد، أوضحوا العكس، فى صالح المتهم . كان نائب المدعى العام محتدًا، ولكنه التزم الصمت، وتحدث الدفاع بلهجة حقيقية، والتي كانت تعنى بالنسبة للمتهم بعض التعاطف الذى لم يعرفه من قبل .

رُفعت الجلسة، واجتمع القضاة فى غرفة المداولات . وفى الغرفة - بعد مناقشات غامضة ومشوشة - انقسموا إلى مجموعتين متساويتين فى

العدد تقريبًا، فنرى من جهة، غير المتحيزين، والخاملين، وأصحاب البراهين، لا تحركهم أى عاطفة، ومن جهة أخرى، نجد هؤلاء الذين ينقادون خلف إحساسهم، فلا تؤثر البراهين فيهم إلا قليلًا، ويحكمون بقلوبهم، أى بعواطفهم، وهؤلاء كانوا يُدينون دائمًا هؤلاء كانوا الطيبين، والمُصْطَفِين، لا يفكرون إلا في إنقاذ الجمهورية، ولا يهتمون بغير ذلك، وكان لموقفهم تأثير كبير على «جاميلان» الذى أحس أنه مُتَّحِدٌ معهم.

إن «جيليرج» هذا - كما يتصور - ما هو إلا محتالٌ حانق، نَصَاب، ضَارَبَ على علف الخيول فى سلاح فرساننا، وتبرئته تُعتبر إفلات أحد الخائنين، وبذلك تُعدُّ خيانة للوطن، وتدفع بالجيش إلى الهزيمة». وكان «جاميلان» يتصور خيالة الجمهورية على مطاياهم التى تتعثر، وتعمل فيهم سيوف فرسان الأعداء.... «ولكن إذا كان «جيليرج» هذا بريئًا؟....».

ويفكر فى الحال فى أمر «جان بليز» وهو مشكوك فيه أيضًا بالغش وعدم الأمانة فى التوريدات. وآخرون كثيرون يتصرفون مثل «جيليرج» و«بليز»، يتسببون فى الهزيمة وضياع الجمهورية! لابد من عمل يكون قدوة وعبرة.. ولكن إذا كان «جيليرج» بريئًا؟...

قال «جاميلان» بصوت عالٍ :

- « لا توجد أدلة ».

قال رئيس المحلفين وهو يرفع كتفيه تهكمًا : لا توجد أدلة مطلقًا !
طيب ، وآمين.

وأخيراً حصل على سبعة أصوات للإدانة، وثمانية أصوات للبراءة. وعادت هيئة المحلفين إلى القاعة، واستؤنفت الجلسة. كان المحلفون ملتزمين بإصدار حكمهم، كُلُّ تحدث بدوره أمام المقعد الخالي. البعض كانوا مُطنّبين، والآخرون كانوا يكتفون بكلمة، وكان من بينهم من ينطق بكلماتٍ بلهاء. وعندما جاء دور جاميلان» نهض وقال :

— أمام جريمة كبيرة مثل هذه — تجاه المدافعين عن الوطن — لا بد من وسائل الإقناع. نريد أدلة دامغة لم تتوفر لدينا، وبأغلبية الأصوات. وأعلن أن المتهم غير مذنب .

بعد ذلك مَثَّل «جيليرج» أمام القضاة، صاحبه مهمة من المشاهدين يُنبئونه ببراءته. لقد أصبح رجلاً آخَرَ، انفردت قسّمات وجهه بعد انكماشها، وابتلت شفّتيه الجافتين، كان مظهره يوحى بالاحترام، ويعبر وجهه عن البراءة .

قرأ رئيس الجلسة بصوت متأثر قرار براءة المتهم، وضجت القاعة بالتصفيق، والحارس الذي كان يصطحب «جيليرج» ارتّمى في أحضانه، والرئيس ناداه وعانقه معانقة الإخوة، والمحلفون قَبَّلُوهُ ، و «جاميلان» بكى بكاءً حارًّا .

وفي فناء القصر الذي تضيئه آخر أضواء النهار كانت هناك معمعة مهتاجة. وفي اليوم التالي أعلنت القطاعات الأربعة في المحكمة ثلاثين حكماً بالإعدام. وعلى دَرَج السُّلم الكبير كانت بعض الحائكات يجلسن

القرفصاء ينتظرن رحيل العربات. أما «جاميلان» فكان ينزل الدرج في وسط المحلفين والحاضرين، لا يسمع أى شيء إلا حكم العدالة والإنسانية، والتهانى التى هنا بها نفسه لأنه عثر على البرءاة .

وفي الفناء كانت «إيلودى» متشحة بالبياض، دامعةً مبتسمة، وارتمت بين أحضانها، وظلت صامته، وعندما استردت نبرات صوتها، قالت له :

- أنت جميل يا «إيفاريست»، وطيب، وكريم ! فى هذه القاعة كانت رنة صوتك كلها رجولة وهدوء، وقد نفذت فى كيانى موجاتها المغناطيسية وكهربتنى. كنت أتأملك فى مقعدك. لم أرَ سواك. ولكنك يا صديقى لم تكن تكهنت بحضورى ؟ ألم يدلك شيء على أنى كنت موجودة ؟ كنت جالسة فى المنصة، فى الصف الثانى على اليمين. يا إلهى ! كم هو جميل فعل الخير! لقد أنقذت هذا البائس ، ولولاك لَأَنْتَهَى أمره وأصبح من الهالكين. وأنت رددته إلى الحياة، وإلى حب ذويه .

فى هذا الوقت كان عليه أن يباركك . يا «إيفاريست»، كم أنا سعيدة وفخورة بأننى أحببتك ! وسَارًا مَعًا متلاصقين تتشابك أيديهما، ويجوبان الشوارع، ويشعران بأنهما خفيفان، كأنهما طائران .

ذهبا إلى متجر «لامور بانتر»، ووصلا حتى الكنيسة الصغيرة، قالت «إيلودى» :

- دعك من المتجر أرى الآن نَمْرَ به .

وأدخلته من باب العربات، وصعد معها إلى الشقة. وعلى «بسطة» الدَّرَج أخرجت من حقيبتها الصغيرة مفتاحًا كبيرًا من الحديد ، وقالت :

- «إيفاريست»، هذا المفتاح يشبه مفتاح السجن ، ستكون أنتَ سجينى.

عبرا غرفة الطعام، وأصبحا في غرفة الفتاة . كان «إيفاريست» يشعر بأن على شفتيه النضارة الحارّة لشفتى «إيلودى». اعتصرها بين ذراعيه. مالت برأسها ، وتسبلت عيناها، وانسدل شعرها، ومال قَدُّها، شبه مُغْمَى عليها ، وانفلتت منه وجرت، وأغلقت مزلاج الباب

كان الليل قد أسدل عندما فتحت «إيلودى» الباب لعشيقتها، وقالت له بصوت خافت في الظلام :

- وداعًا يا حبيبى ! حان وقت عودة والدى ، إذا سمعت أى صوت على السلم فاصعدْ بسرعة إلى الطابق العلوى، ولا تنزل إلا بعد أن يزول الخطر، خوفًا من أن يراك أحد . ولكى يُفتح لك باب الطريق انقُرْ نافذة البواب ثلاث مرات. وداعا يا حياتى ، وداعًا يا روحى !

وعندما وَجَدَ نفسه فى الشارع شَاهَدَ نافذة غرفة «إيلودى» منفرجة قليلا، وامتدت يَدٌ صغيرة وقطفت زهرة قرنفل حمراء سقطت عند قدميه كأنها قطرة دم .



ذات مساء كان «بروتو» العجوز يحمل اثنتى عشرة دسّة من الدُمى التى يصنعها إلى المواطن «كايو»، بشارع «لالوا». بائع اللعب، هادىء ولطيف عادة، وهو قابيع فى وسط عرائسه وصوره المضحكة، ومع ذلك استقبله البائع بغلظة ، وقال له :

- احذر أيها المواطن « بروتو » وانتبه ! ليس هذا وقت الضحك ،
وليست كل مداعبة مقبولة ، فقد زارنى بالأمس عضو فى لجنة أمن
القطاع فى متجرى، وشاهد عرائسك ، ورأى أنها ضد الثورة .

قال بروتو : كان يسخر !

- أبداً أيها المواطن ، أبداً . إنه رجل لا يسخر أبداً . قال إن هذه
الشخصيات الصغيرة فيها الصورة القومية مُنفَّذةٌ بخيانة، ويمكن
التعرف فيها على «كاريكاتير» لكل من «كوثون»، و «سان جوست»،
و«روبسبير»، واستولى عليها . وفى ذلك خسارة كبيرة لى ، هذا بخلاف
الخطر الذى أتعرض له .

- ماذا ؟ هؤلاء «الكولان»، و «الجيل»، و «الاسكاراموش»، وهؤلاء
«الأرلوكان»، وهؤلاء «الكوليت»^(١) الذين رسمتهم كما رسمهم «بوشيه»
منذ خمسين عاماً، يتحولون إلى «كوثون»، و «سان جوست» مُقلِّدين ؟
لا يوجد رجل عاقل يدعى ذلك .

واستطرد المواطن «كايو» : من الممكن أن تكون فعلت ذلك دون قصد ،
ومع ذلك فلا بد دائماً من الشك فى رجل ذكى مثلك، ولكن الأمر خطير .
هل تريد مثلاً على ذلك ؟ «ناتوال» الذى يدير مسرحاً صغيراً فى
«الشانزليزيه» أُلقي عليه القبض أول أمس بتهمة اللاوطنية، لأنه قدم
تمثيل الجمعية الوطنية بالعرائس .

(١) أسماء شخصيات كوميدية من فرقة الكوميديا الإيطالية، ونماذج فلاحين فى الأوبرا الكوميدية .

قال «بروتو» : وهذه لطفة أخرى. واستأنف وهو يرفع الحجاب عن دميّاته الصغيرة . انظر إلى هذه الأقنعة وهذه الوجوه ! هل يعبرون عن شيء آخر سوى شخصيات كوميدية ورعوية ؟ كيف تسمح لنفسك أن تقول - أيها المواطن «كايو» - أننى أمثل الجمعية الوطنية ؟

كان «بروتو» مندهشاً ، ومع أنه ينسب كل شيء إلى كثير من الحماسة البشرية، فإنه لم يكن يتصور قط أنها تصل إلى حد الاشتباه في عرائس «الاسكاراموش» و «الكولينيت». فكان يعترض لبراءته وبراءتهم . غير أن الوطنى «كايو» لم يُصْغِ إليه ، وقال :

- أيها المواطن «بروتو»، احملْ عرائسك، وأنا أقُدِّرُك وأحترمك، ولكننى لا أريد أن يُوبخنى أحد أو يُسبب لى القلق بسببك، فأنا أحترم القانون، وأريد أن أظل مواطناً صالحاً ، وأن أعامل بهذه الصفة . عِمْ مساءً أيها المواطن «بروتو» وارجع بعرائسك .

عادَ العجوز «بروتو» أدراجَه قاصداً مسكنه، وحاملاً معه مشبوهيه على كتفه على طرف عصاه ، ويسخر منه الأطفال الذين كانوا يعتقدون أنه بائع «مبيد الجرذان». كانت أفكاره حزينة، ولا شك أنه لا يعيش من دخل هذه العرائس فقط، فهو يرسم صوراً بعشرين فلساً للصورة الواحدة عند أبواب العربات، أو فى أحد براميل الأسواق بصحبة مُرقعى الثياب، وكثير من الشباب الذين يرحلون من أجل الجيش يريدون أن يتركوا صوراً لعشيقاتهم الصغيرات. ولكن هذه القطع الفنية الصغيرة قد سببت له ألماً عظيماً، وكان يجب عليه أن يصنع منها الكثير من الصور

بمقدار ما يصنع من عرائسه. وأحياناً كان يخدم سيدات السوق كسكرتير، ولكن ذلك يعنى الانغماس في مؤامرات ملكية، والمخاطر كانت ضخمة. تذكر أنه كان يوجد في شارع «نيف - دى بيتى - شان» القريب من ميدان «فاندوم» سابقاً، بائع لعب آخر يسمى «جولى»، وقرر أن يذهب إليه من اليوم التالى ليعرض عليه ما رفضه «كايو» الرعديد .

هطل مطر خفيف ، ويسرع «بروتو» الذى كان يخشى تلف عرائسه، في السير، ولما كان مَعْبُرُ «لوبون - نوف» مظلمًا وموحشًا انعطف في ركن ميدان «نيونفيل»، وشاهد على ضوء شمعة على أحد الحواجز، رجلاً عجوزًا ونحيفًا يبدو عليه الإرهاق الشديد من التعب والجوع، ومع ذلك كان يحتفظ بمظهره المحترم .

كان يرتدى لاوية ممزقة، ولم يكن معه قبعة، ويبدو عليه أنه يبلغ أكثر من ستين عامًا ، عندما اقترب من هذا البائس تعرف عليه «بروتو»، إنه الأب «لونيجمار، الذى أنقذه من حبل المشنقة، منذ ستة أشهر ، عندما كانا يقفان هما الاثنان في الطابور أمام المخبز في شارع أورشليم .

ويرى «بروتو» عَرَضَ خدمةٍ على هذا الراهب، فاقترب منه «بروتو» وأفهمه أنه رجل الأعمال الذى كان يقف بجانبه في وسط السوق، يوم المجاعة الكبيرة، وطلب منه أن يكون معيناً له، فقال له «بروتو» .

- يبدو عليك الإرهاق يا أبى ، خُذْ قطرة من المشروب المنعش .

وأخرج «بروتو» من جيب سترته الحمراء المائلة للسواد قارورة صغيرة بها مشروب «العرقى»، والذى كان مع كتابه عن «لوكريس».

- اشرب ، وسأُعينك على الوصول إلى مسكنك .

أَبْعَدَ الأب «لونجيمار» بيده القارورة وحاول أن ينهض، ولكنه سقط ثانية على الحاجز، وقال بصوت ضعيف :

- سيدي ، تأكد أنني منذ ثلاثة أشهر كنت أقيم في «بيكبوس»، وعلمت أنهم جاءوا ليعتقلوني أمس، في الساعة الخامسة صباحًا، فلم أَعُدْ إلى مسكني، ولا يوجد لي أى مأوى حاليًا، وهِمْتُ على وجهي في الطرقات، وأنا الآن قد نَالَ منى التعب والإرهاق .

قال بروتو : حسنًا يا أبى، شرفنى بأن تشاطرني منزلى .

قال البرنابى : إنك تدرك جيدًا بأننى مشبوه يا سيدي .

- وأنا أيضًا مشبوه، وكذلك الدُمى التى أصنعها ، وذلك ما هو أسوأ من أى شىء، وأنت تراها معروضة تحت هذه الغلالة الرقيقة، فى المطر الخفيف الذى نعانى منه. واعلم يا أبى أنى بعد أن كنتُ رجلُ أعمالٍ، أقوم الآن بصنع العرايس لكى أتعيش منها .

أمسك الأب «لونجيمار» باليد التى مدها إليه هذا الممول السابق، وقَبَلَ الضيافة التى قَدَّمَهَا له . وقَدَّمَ «بروتو» له فى بيته الخبز والجبن والنبيد الذى وضعه فى المزراب لكى يبرده، لأنه مُتَرَفًّا .

وبعد أن خفف من جوعه ، قال الأب «لونجيمار» :

- سيدي ، واجب على أن أحيطك بالظروف التى جعلتنى أهرب ، حتى وجدتني إلى جانب هذا الحاجز . إننى طُرِدْتُ من ديرى ، وصرتُ أعيش

من الدخل الضعيف الذى تصرفه لى الجمعية، وكنت أعطى دروسًا خاصة فى اللغة اللاتينية والرياضيات، وكنت أكتب عن اضطهاد الكنيسة الفرنسية . وألفت أيضًا كتابًا أوضح فيه أن قَسَمَ ولاء الكهنة الدستورى يتعارض مع الانضباط الكنسى. وتطورات الثورة قد انتزعت منى تلاميذى، ولم أستطع أن أحصل على إعانتى لعدم توافر شهادة الوطنية التى يتطلبها القانون. وتلك هى الشهادة التى سوف أطلب من البلدية، استحقاقى لها، وبما أننى عضو فى المنظمة التى أسسها المبشر «سان بول» بنفسه ، والذى استحق لقب مواطن رومانى ، فإننى أحببت أن أتأسى خطاه كمواطن فرنسى صالح، يحترم جميع الشرائع البشرية، والتى لا تتعارض مع الشرائع الإلهية. وتقدمت بطلبى للسيد «كولان» الجزار الذى يبيع لحم الخنازير، وضابط البلدية المكلف بتخليص البطاقات التى من هذا النوع . فسألنى عن حالتى، وأجبته بأننى كنت راهبًا. وسألنى عمًا إذا كنت متزوجًا ، وبإجابتي بأننى لم أكن متزوجًا، قال لى : إن ذلك أسوأ بالنسبة لى . وأخيرًا، وبعد أسئلة متنوعة، سألنى عمًا إذا كنت أثبت وطنيتى فى ١٠ أغسطس ، أو ٢ سبتمبر، أو ٣١ مايو . وأضاف : « لا يمكن إعطاء شهادات إلا إلى هؤلاء الذين أثبتوا وطنيتهم بسلوكهم فى هذه المناسبات الثلاث ».

لم أستطع أن أجيبه إجابة شافية، ومع ذلك أخذ اسمى وعنوانى، ووعدنى بأنه سيجرى تحقيقًا فى حالتى بأقصى سرعة، ولقد أوفى بوعده، وكانت النتيجة أن اثنين من مفتشى لجنة الأمن العام فى «بكبوس»، حضرا

بقوة مسلحة، وزاروا سكنى وأنا غائب عنه ليققادوني إلى السجن، ولم أعرف الجُرم الذى أُتُّهمُ به. ولكن، أعلم أنه يجب أن يُرثى للسيد «كولان»، حيث إن عقله مضطرب لأنه يُوبَّخ أحد رجال الكنيسة بأنه لم يثبت وطنيته فى العاشر من أغسطس، أو الثانى من سبتمبر، أو الحادى والثلاثين من مايو. إن أى رجل يفكر هذا التفكير يستحق الإشفاق عليه .

قال «بروتو» : أَمَّا أنا فلا أملك أى شهادة ، ونحن الاثنان مشبوهان. ولكنك مُنْهَك القوى. اخلد أنت إلى النوم يا أبى، وغداً سوف نتبادل الرأى فى مسألة أمانك .

وَأعطى ضيفه المرتبة الصوفية لينام عليها، واحتفظ هو بالمرتبة القش. وأصر الراهب أن يأخذها هو لينام عليها، وإلا فسوف ينام على البلاط. وبعد أن انتهيا من ترتيباتهما أطفأ «بروتو» الشمعة، اقتصاداً وحذراً .

قال له الراهب : سيدى ، إننى أَقْدِرُ ما تفعله من أجلى، ولكن وأسفاه ! مهما عبَّرت لك عن امتنانى فلن أستطيع أن أوفيك حقك ! وليكافئك الله على ذلك ! وسيكون ثوابك عظيماً . ولكن الله لا يُثيب على ما نفعله من أجله سبحانه إلَّا ما يكون عن فضيلة طاهرة وطبيعية . لذلك أرجوك يا سيدى أن تفعل فى سبيله ما أنت قائم بعمله من أجلى.

أجابه بروتو : يا أبى، لا تحمل أى هَمٍّ، فأنا لا أنتظر أى عرفان. إن ما أفعله لم أفعله من أجل حبك، فمهما تكن تستحق الحب يا أبى فأنا معرفتى بك محدودة جداً حتى أحبك، وأنا لا أفعله إلَّا من أجل حب

الإنسانية لا أكثر ، بالرغم من أننى لست بسيطاً مثل « دون جوان »^(١) لأُصدّق مثله أن الإنسانية لها حقوق، وهذا الاعتقاد في أحد العقول الحرة مثل عقلى يُحزننى .

إننى أصنع ذلك بدافع الأناية التى توحى للإنسان بجميع تصرفات الكرم والإخلاص وذلك يجعل الإنسان يندب سوء حظه في سوء حظ الغير، وذلك بِحُثِّه على مد العون لإنسان مُشرفٍ على الموت يشبهه في الطبيعة والمصير، فيعتقد أنه ينقذ نفسه بإنقاذه. كما أفعله عن بطالةٍ أيضاً ، لأن الحياة تكون حتى هذه الدرجة غُثَّة، ويجب أن ينصرف عنها بأى ثمن، وأن العمل الطيب يكون متعة تافهة تُقبل عليها لعدم وجود غيرها أطيب منها .

كما أنى فعلت ذلك أيضاً بكبرياء، ولأتميز عنك، وفعلته أخيراً بروح تنظيمية، ولأوضح لك إلى أى درجة يمكن أن يكون أحد الملحين قادراً .

أجاب الأب «لونجيمار» قائلاً : لا تَمَنَّ علىَّ يا سيدى ، فإن الله أعطانى الكثير من النِّعم ولم يمنحك مثلاً حتى هذه الساعة، ولكنى لستُ أقل منك قدراً، وأدنى منك فى الاستحقاقات الطبيعية. اسمح لى فوق ذلك أن أتفوق عليك بميزة، لأنك لا تعرفنى فأنت لا تحببى، وأنا يا سيدى بدون معرفتك أحبك أكثر من نفسى، فإن الله يأمرنى بذلك .

هكذا تبادلا الحديث، وجثا الأب «لونجيمار» على ركبتيه على البلاط، وبعد أن تلا صلواته تمددَ على المرتبة القش ونام في هدوء .

(١) دون جوان · رجل أسطورى .



5

كان «إيفاريست جاميلان» يتخذ مقعده في المحكمة للمرة الثانية، وقبل افتتاح الجلسة تبادل الحديث مع زملائه من المحلفين حول ما وصلت إليه أنباء الصباح، ومن هذه الأخبار ما هو كاذب، ومنها ما هو غير مؤكد، ولكن ما يمكن الاحتفاظ به كان صعباً، وهو أن الجيوش المتحالفة، تُهيمن على جميع الطرقات، وتسير معاً، وأن «الفانديه» منتصرة، وأن «ليون» ثائرة، و«طولون» سُلِّمَت للإنجليز الذين أنزلوا فيها أربعة عشر ألف رجل. وكان ذلك بالنسبة للقضاة أحداثاً عائلية، بقدر ما هي أحداث تهم العالم أجمع. وهم على يقين بالهلاك إذا هلك الوطن، فهم يعملون لصالح الشعب، وهو عملهم الخاص. ومصلحة الأمة مختلطة بمصلحتهم، تُملئ شعورهم وعواطفهم وسلوكهم.

تَسَلَّمَ «جاميلان» وهو في مقعده رسالة من «تروبير»، سكرتير لجنة الدفاع، كانت الرسالة عبارة عن إعلان تعيينه عضو لجنة المتفجرات وملح البارود :

«عليك أن تُنقِّب في جميع كهوف القطاع لتستخرج منها جميع المواد الضرورية لصناعة البارود . ربما يكون العدو غداً على أبواب باريس، ويجب على أرض الوطن أن تمدنا بالبارود الذي سنقذفه على الذين يعتدون عليها. أبعث إليك بتعليمات الجمعية الوطنية التي تتعلق بمعالجة ملح البارود ، مع السلام والإخاء» .

في هذه اللحظة أُدْخِلَ المتهم، وكان من آخِرِ القواد الذين هُزِمُوا، وسلمتهم الجمعية الوطنية إلى المحكمة، وكان أكثر غموضاً . وعندما رآه «جاميلان» أصابته رعشة، كان يعتقد أنه يرى هذا الرجل العسكري للمرة الثانية، والذي كان مختلطاً بالجمهور، كان قد رآه منذ ثلاثة أسابيع خلت يُحاكَم ويُرسَل إلى المقصلة. كان نفس الرجل بمظهره العنيد وقصر نظره، وكانت نفس القضية، كان يجيب بطريقة مأكرة وعنيفة، كانت تُفسد أفضل إجاباته .

إن محاكماته وجدله التافه والاتهامات التي نسبها إلى مرءوسيه جعلته ينسى أنه يضطلع بمهمة تستحق الاحترام، وهى الدفاع عن شرفه وحياته . وفي هذه القضية كل شيء كان غير مؤكد، ومُتَنَزَّع فيه . وضع الجيوش ، عدد الجنود ، الذخائر، الأوامر الصادرة ، الأوامر الواردة ، تحركات الفرق ... لم يكن أى شيء معروفاً ، ولم يعرف أحد شيئاً عن هذه التصرفات المشوشة العقيمة، والبعيدة الهدف والتي انتهت إلى كارثة. ومن الغريب أن كل واحدٍ ممن هنالك - ومنهم المحامى، والمتهم، والقضاة والمحلفون - لم يعترف أى أحد على غيره ولا على نفسه، فكلُّ كان لا يعرف شيئاً .

كان القضاة يفضلون وضع خطط ، وأن يبحثوا أمر التكتيك والخطة ، المتهم أهمل تأهباته الطبيعية من أجل الممر . بالأجاج، وكانت المناقشات تدور دون هدف، و «جاميلان» - طوال هذه المناقشات - كان يرى على طُرقات الشمال الوعرة عربات الذخيرة المتوحلة، والمدافع المقلوبة في الأخاديد، وعَبَر جميع الطرقات تنساب في فوضى فِرَق الجنود المهزومة، في حين فرسان العدو ينفذون من كل مكان عن طريق الممرات المهمة .

وكان يُسمع من هذا الجيش المهزوم صيحات هائلة تتهم الجنرال. وفي ختام المناقشات، كان الظل يعم القاعة، ووجه «مارات» غير المميز كان يبدو كأنه شبح على رأس الرئيس .

وهيئة المحلفين التي كانت مكلفة بنطق الحكم كانت منقسمة ، وأعلن «جاميلان» بصوت أجش يكاد يختنق في حلقه - ولكن بلهجة حاسمة - أن المتهم مذنبٌ بخيانة الجمهورية. وسَرَتْ هممة استحسان مرتفعة بين أفراد الجماهير، وجاءت تمتدح فضيلته الفتية .

وعند الخروج على درجات السلم كان يتجمهر جمع غفير من الثرثارات، المؤسومات بالشارات الوطنية، وكان «جاميلان» يسمع اسمه الذي بدأ المترددون على المحكمة يعرفونه. وهجمت بعض الحائكات يُلَوِّحْنَ في وجهه بقبضات أيديهن ويطالبن برأس النمساوية.

وفي اليوم التالي كان على «إيفاريست» أن يُصدر حكماً على سيدة مسكينة، الأرملة «ما يريون»، حاملة الخبز، كانت تتجول في الطرقات

تدفع أمامها عربة صغيرة، وتُعلّق مِحْزَةً (قطعة خشب تحز عليها بالسكين حساب الخبز الذى توزعه). كانت تكسب يومياً ثمانية فلسات .

كان مظهر نائب المدعى العام ينم عن عنف غريب حيال هذه البائسة، والتي يبدو أنها صاحت قائلة : «عاش الملك !» عدّة مرات، وتفوهت بكلمات ضد الثورة فى المنازل التى توزع عليها الخبز كل يوم، وأنها شريكة فى مؤامرة تهدف إلى تهريب المرأة «كابه». وعندما سألها القاضى اعترفت بالأعمال المنسوبة إليها، سواء ببساطة أو بتعصيب، وجاهرت بإحساساتها الملكية بحماس شديد ، وَأَوْدَتْ بنفسها.

كانت المحكمة الثورية تنصر مبدأ المساواة، وكانت توضح أن موقفها حيال الحَمَّالين والشغالات متساوٍ مع موقفها حيال الأرستقراطيين والمالين، و «جاميلان» لم يخطر بباله قط أنه يستطيع أن يكون غير ذلك فى عهد نظام حكم شعبى، وكان قد ارتأى أن استثناء الشعب من التعذيب ازدراء وغطرسة، واعتباره هكذا يعنى أنه غير جدير بالعقاب. واقتصار المقصلة على الارستقراطيين فقط كان يبدو له نوعاً من الامتياز الجائر .

بدأ لجاميلان أن يجعل من العقاب فكرة دينية إيمانية، بأن يُضفى عليها فضيلة واستحقاقات خاصة . وكان يعتقد أنه ينبغى إعدام المجرمين، وأنه يُعَدُّ ظُلماً لهم حرمانهم منه وأعلن أن السيدة «مايريون» مذنبه، وتستحق العقاب السامى، ويأسف فقط على أن المتعصبين الذين تسببوا فى هلاكها مذنبون أكثر منها، وأنهم ليسوا هنا حتى يتقاسموا معها مصيرها .

كان «إيفاريسست» يتوجه كل مساء تقريبًا إلى اليعقوبيين الذين كانوا يجتمعون في الكنيسة القديمة للدومينيكان، والمعروفين عند العوام باليعاقبة بشارع هونوريه .

وفي أحد الأفنية، حيث ترتفع شجرة الحرية (شجرة صفصاف)، حيث حفيف أوراقها مثل التمتمة ، والكنيسة قائمة على طراز هويل وكثيب، مُثَقَلَة بالقرميد بأعلاها، وتبدو جبهتها من «الجمالون» العارى، وبها ثقب على شكل كُوَّة بيضاوية، وباب مقوس يعلوه العَلَمُ بالألوان الوطنية، ومُعَمَّمة بغطاء الحرية.

اليعقوبيون - وكذلك الرهبان الفرنسييسكان (لى كورديلييه)^(١)، والرهبان (لى فويان)^(٢) اتخذوا مَقَرَّ واسمَ «الرهبان المشتتين»، وَعَدُّوا «جاميلان» مواظبًا منذ زمن قصير على حضور جلسات الكورديلييه (الرهبان الفرنسييسكان) لَمْ يجد عند اليعقوبيين لا خِفَافٍ ولا سُرَّةٍ، ولا صِيحَاتٍ كاتباع دانسون. فى نادى «روبسبير» كان يشهود الحذر الإدارى، والوقار البورجوازى. ومنذ أن ذهب صديق الشعب كَان «إيفاريسست» يتابع دروس «ماكسميليان» الذى يهيمن فكره على جميع

(١) لى كورديلييه رُهبان جمعية أصدقاء حقوق الإنسان والمواطن تأسست فى أحد أديرة الرهبان الفرنسييسكان ١٧٩٠. أكثر راديكالية عن اليعقوبيين وفى ١٧٩٤ تم تصفية النادى، وأُلغى فى ١٧٩٥.

(٢) لى فويان جمعية أصدقاء الدستور، مقرها دير سابق للرهبان فى الخامس عشر من يوليو ١٧٩١ بانشقاق اليعقوبيين، وهم ملكيون معتدلون، كان يرأسها لافاييت، وبابى، وبارنان، واخفقوا بعد العاشر من أغسطس ١٧٩٢

اليقوبيين، ومن هنا - عن طريق الكثير من الشركات الفرعية - امتدت إلى جميع أنحاء فرنسا

وأثناء قراءة المحضر كان يجول ببصره على الحوائط الجرداء، التي - بعد أن أوتُ إليها الأبناء الروحيين لأعظم محقق في محكمة التفتيش في الهرطقة - ترى المتحمسين من المحققين في الحرائم ضد الوطن .

هنا - ودون فخر - كانت تجرى وتُمارَس أكبر سلطات الدولة ، وكانت تُحكَم العاصمة والإمبراطورية، وتُملَى المراسم والقرارات على الجمعية الوطنية .

هؤلاء الحرفيون في النظام الجديد للأحداث ، والقائمون باحترام القانون، ظلوا ملكيين في عام ١٧٩١ ، ويريدونه أيضاً أن يظل عند عودة «فارين»^(١)، باتصال مباشر بالدستور. وأصدقاء النظام القائم - حتى بعد مذبحة «شان دي مارس»، ثوريون ضد الثورة، وأغراب عن الحركات الشعبية، يُغذون في نفوسهم العميقة والقوية حُبَّ الوطن، والذي كان قد أوجَدَ أربعة عشر جيشاً، وأقام المقصلة .

إن ما يعجب «إيفاريست» فيهم يقظتهم، وروح الشك، والفكر العقائدي، وحب النظام، وفن الهيمنة، وحكمة إمبريالية . والجمهور الذي كانت تتكون منه القاعة لم يصدر عنه سوى غممة جماعية ومنتظمة، مثل حفيف أوراق شجرة الحرية الى ترتفع عند المدخل .

(١) فارين مدينة فرسيه

وفي هذا اليوم الموافق أحد عشر فنديمير^(١)، صعد إلى المنصة ببطء شاب صغير، منحدر الجبهة، ثاقب النظر، مدبب الأنف، حاد الذقن، مجدور الوجه، بارد المظهر، وكانت تنتشر عليه ذرات الصقيع، ويرتدى زياً أزرق اللون يُظهر قامته. كان متكلفاً في مظهره، ويتصرف بحساب، كأنه يريد أن يقول للبعض - ساخراً - بأنه كأحد أساتذة الرقص الذي تُقدَّمُ إليه تحية من الآخرين باسم «أورفيه الفرنسي»^(٢).

ألقى «روبسبير» خطاباً بليغاً بصوت واضح ضد أعداء الجمهورية، وطعن ببراهين لاهوتية هائلة «بريسو» ومؤامراته. تحدث وقتاً طويلاً بغزارة، وبانسجام، وألقى بالصاعقة على المتآمرين الذين يزحفون على الأرض.

سَمِعَ «إيفاريست» وَفَهَمَ، وكان - حتى ذلك الحين - يتهم «الجيروند» بالإعداد لإعادة تأسيس الملكية، أو بنصرة حزب «أورليانز»، وتأمل خراب المدينة البطولية التي خلّصت فرنسا، والتي سوف تُنقذ العالم في يوم من الأيام.

والآن وقد اطلع على حقائق سامية ونقية بعين الحكيم، فسَمَتُ بروحه فوق الأحداث الشائنة معصومة من أخطاء الحواس، في منطقة اليقين المطلق، فالأحداث بذاتها ممزوجة ومملوءة بالتشوش، والأمور المعقدة هي التي يحار فيها المرء، وبسّطها له «روبسبير»، وقدم له الخير والشر

(١) فنديمير - الشهر الأول من السنة الجمهورية في فرنسا

(٢) أورفيه . شاعر وموسيقي .

فى صيغ بسيطة وواضحة. يعرضها فى الكلمتين : فيدرالية ، ولا انقسامية، ففى الوحدة واللا انقسام يكمن الخلاص ، وفى الفيدرالية يكمن الهلاك الأبدى . كان «جاميلان» يُحسُّ بالبهجة العميقة التى يحسّها المؤمن الذى يعرف الكلمة التى تُنقِّذ، والكلمة التى تُهلك .

ومن بعد ذلك ستعرف محكمة الثورة - مثل المحاكم فيما مضى - الجريمة المطلقة والجريمة الشفهية، ولأن «إيفاريست» كان متديناً فكان يتلقى هذه الرؤى بحماس كئيب، وكان قلبه يتحمس ويتمتع بفكرة مستقبلية من أجل التمييز بين الجريمة والبراءة، أى أنه سوف يكون لديه رمز يميز به بينهما . أيا كنوز الإيمان ، إنك تحلين محل كل شىء ! .

أمّا الحكيم «ماكسميليان» فقد أنار له الطريق للأهداف الخبيثة لهؤلاء الذين يريدون أن يساووا بين الأموال، وأن يُقسِّموا الأراضى، ويُلغوا الغنى والفقر، ويُقيموا حياة كفافٍ موفق للجميع .

كان مُنخدعاً بِحُكْمِهِمْ، وفى بداية الأمر أقرَّ أهدافهم التى رأى أنها تتفق ومبادئ الجمهورىِّ الحقيقى، ولكن «روبسير» بأحاديثه إلى اليعقوبيين كَشَفَ له عن دسائسهم، واكتشف أن هؤلاء الناس الذين تبدو أهدافهم صافية، يرمون إلى قلب نظام الجمهورية، ولا يُنذرون الأثرياء إلا من أجل أن يوجدوا للسلطة الشرعية أعداء قادرين وشرسين .

وفى الواقع، أن مبدأ التملك إذا ما هُدِّد فإن الشعب بأسره ، بقدر ما هو مرتبط بما يمتلك - حتى ولو كان قليلا - ينقلب على الجمهورية فى التوُّ والحين . وإنذار المصالح بالخطر يعنى التآمر، فَتَحَّتْ ستار إعداد

السعادة العالمية، وسيادة العدالة يتآمر هؤلاء الذين يقترحون - كهدف جدير بمجهود المواطنين - تساوى الناس فى المال والأموال والأرزاق، كانوا خونة ونصابين، وخطورتهم أكبر من خطورة الفيدراليين.

ولكن أهم ما كَشَفَتْهُ حكمة «روبسبير» من أجل «إيفارست» هو جرائم وفضائح الإلحاد . جاميلان لم يُنكر قط وجود الله، وإنما كان مؤمنا بالله، وكان يؤمن بالعناية الإلهية التى ترعى البشر ، وكان معترفًا بأنه لم يدرك الخالق إلا مُبْهَمًا . وكان متمسكًا جدًا بحرية الوعى، فسَلَّم عن طيب خاطر بأن بعض الشرفاء فى وسعهم أن يسيروا على نهج ذوى الصلاح مثل «لاميترى»، و«بولانجيه»، و«البارون دولباك»، و«لالاند»، و«هيلفيتيوس»، والمواطن «ديبوى» بأن يؤسسوا أخلاقًا طبيعية، وأن يجدوا فى أنفسهم مصادر للعدالة، وقواعد لحياةٍ فاضلة .

وشَعَرَ أيضًا بالتعاطف مع الملحدّين، عندما رآهم يُهانون ويُضطهدون. وقد أضاء له «ماكسميليان» فكره، وأزال ل غشاوته .

وببلاغته الفاضلة (هذا الرجل العظيم) أَمَاطَ له اللثام عن حقيقة الإلحاد وطبيعته، وأهدافه وآثاره، وأوضح له أن هذه العقيدة التى تكونت فى الصالونات الصغيرة الأرستقراطية هى من أخط الاختراعات التى تخيلها أعداء الشعب ، لكى يُثَبِّطُوا عزمته ويُسَخِّرُوهُ، وأنه من الإجرام أن تنزع من قلوب البؤساء الفكر الذى يواسيهم بخلاصٍ مُجَرٍّ، ويُسَلِّمُهُم إلى عواطف مدمرة - دون مُرشد ، ودون ضوابط - تدمر الإنسان وتجعل منه عبدًا حقيرًا، وأخيرًا، فإن الأبيقورية (الانغماس فى

الملذات) الملكية لهيفيتيوس تؤدي إلى الخلاعة ، وإلى القسوة، وإلى جميع الجرائم والآثام .

ومنذ أن تلقى المواطن العظيم هذه الدروس صار يمقت الملحدّين، خاصة عندما يكونون صرخاء ومبتهجين، مثل «بروتو» العجوز .

وفي الأيام التالية كان على «إيفاريسست» أن يحكم - بلا انقطاع - في أمر أحد أهل الثقة سابقًا ، بأنه قد دمر غلالًا ليُجَوِّع الشعب، ثلاثة من المهاجرين الذين عادوا ليشعلوا نار الحرب المدنية في فرنسا، وفي أمر فتاتين من باليه إيجاليتيه (قصر المساواة)، وأربعة عشر متآمرًا من بريتون، وفي أمر نساء ، وشيوخ، وشباب، سادة وخدم .

الجنائية معترف بها، والقانون صريح . ومن بين المذنبين امرأة في العشرين من عمرها ، يُزَيَّنْها رونق الشباب تحت ظلال نهايتها القريبة، وجمالها الساحر. كانت تربط شعرها الذهبي بفيونكة زرقاء ، وشاحها الخفيف يكشف عن رقبة بيضاء وبضّة . كان «إيفاريسست» يوافق دومًا على الموت . وجميع المتهمين - باستثناء جنائني عجوز - أُرسِلوا إلى منصة الإعدام (المُقْصَلَة) .

وفي الأسبوع التالي حصد «إيفاريسست» وقطاعه خمسة وأربعين رجلًا، وثمانين عشرة سيدة .

وكان قضاة محكمة الثورة لا يُميزون بين الرجال والنساء ، مستوحين ذلك من مبدأ قديم قَدِم العدالة نفسها . وإذا كان الرئيس

«مونتانيه» قد تأثر بشجاعة وجمال «شارلوت كورداي»^(١) وحاول أن يُنقذها بإفساد القضية، وفَقَدَ مقعده لهذا السبب، فإن النساء كُنَّ يُسْتَجَوِبْنَ دون مُحاباة، وفقاً للقاعدة العامة لجميع الحاكم.

وكان المحلفون يخشونهم، ويحترسون من كيدهن، وما تعودنَ عليه من الخداع، ووسائل الإغراء لديهن. ولما كانت شجاعتهن لا تقل عن شجاعة الرجال، فإنهن طالبن المحكمة بمعاملتهم مثل الرجال. وكان معظم هؤلاء الذين يحاكمونهن قليلى الافتتان أو ذوى افتتان مؤقت، لا يتأثرون مطلقاً بهن.

كانوا يصدرن أحكامهم - سواء بالإدانة أو البراءة - على هؤلاء النسوة وفقاً لما يُمليه عليهن ضميرهم، ومعتقداتهم، وحماسهم، ووفقاً لحبهم المرن أو العنيف للجمهورية. وكانت هؤلاء النسوة يُبدِينَ تأنقاً فى تسريحات شعورهن حسباً تسمح لهن حالتهن البائسة. ولكن كان من بينهن عدد صغير من الفتيات، وكذلك عدد صغير من الجميلات، أَذْبَلْنَ السجن والهموم، وأجهدن ضوء القاعة الساطع، وحالات القلق التى تستولى عليهن أَلَتْ جفونهن الذابلة، وبشرتهن الوردية، وشفاههن البيضاء المتوترة.

ومع ذلك فإن هذا المقعد المشئوم قد استقبل أكثر من مرة سيدة شابة جميلةً برغم شحوبها، على حين تغشى عينيها ظلالٌ حزينة، تشبه غلالات اللذة الحسية. وأمام هذا المنظر يكون المحلفون إمّا مشفقين وإما

(١) قاتلة «مارات».

أشدّاء وسواء على المحلّف لأنّ أم اشتدّ عند هذا المنظر، وساء عليه أبحت من خلال حواسه المعطلة في أسرار هذه المخلوقة التي تصورها في آنٍ واحد حية وميتة ، فإنه - وهو يحرك صوراً شهوانية ودامية - كان يتلذذ بوحشية في تسليم هذا الجسد الشهي إلى الجلاء ، وذلك ما يجب أن نكتمه، ولكن لا يمكن إنكاره إذا عرفنا الرجال .

«إيفاريست جاميلان» فنان فاطر وعالم ، لا يعترف إلّا بالجمال القديم، والجمال يوحى إليه بقدر كبير من الاحترام، لا بالارتباك. وكان لذوقه الكلاسيكي بعض من الصرامة في أن يعثر على امرأة حسب هواه. لم يكن حساساً بقدر متساوٍ، لا إلى جمال الوجه وألوان «فراجونارد»، ولا إلى أشكال «بوشيه». ولم يحدث قط أن شعر بالرغبة إلا في حب عميق.

ومثل معظم زملائه في الحكمة، كان يصدق أن النساء أخطر من الرجال كان يبغض الأميرات السابقات، واللائى كان يراهن في أحلامه يملأهن الرعب يُعِدْنَ مع اليزابيث والنمساوية^(١) رصاصات لاغتيال الوطنيين . وكان يمقت أيضاً كل الصديقات الجميلات للممولين، والفلاسفة، ورجال الأدب ، لتمتعهنّ بملاذّ جسّية وفكرية، وعيشهن في وقت كان يحلو فيه العيش .

كان يبغضهن دون أن يعترف بذلك ، وعندما كان يحاكم إحداهن، فإنه كان يدينها ، وذلك عن حقد ، معتقداً أنه حَكَمَ عليها بالعدل ، وفي

(١) اليرابيت أخت لويس السادس عشر . والنمساوية هي : ماري أنطوانيت ملكة فرنسا

سبيل خلاص الشعب وسلامته، وشرفه وحيائه الرجالى، وحكمته الفاترة، وإخلاصه للدولة، وما يتحلّى به من فضيلة، كان يدفع تحت المقصلة رُءوسًا شَجِيَّةً .

ولكن ماذا تعنى هذه البعقرية الغريبة ؟ منذ عهد قريب كان لابد من البحث عن المذنبين، والاجتهاد فى الكشف عنهم فى مكائهم، وانتزاع الاعتراف منهم بارتكاب الجريمة والآن ، فإن الأمر لم يَعدُ صيدًا بمجموعة من كلاب الصيد الضخمة، لمطاردة فريسة فرعة.. هكذا ، من كل جهة تُقدِّم الضحايا نفسها . فهؤلاء نبلاء ، وعذارى ، وجنود ، وعاهرات يُقدِّمون إلى المحكمة، وينتزعون من القضاة إداناتهم البطيئة، يطالبون بالموت كحق يتألفون عليه للتمتع به. وكأنه لم يُكتَفَ بهذه الكثرة التى مُلِئَتْ بها السجون بسبب حماسة الواشين، واجتهاد المدعى العام ومعاونيه فى أن يزجوا بهم إلى المحكمة، بل صار من الواجب أيضًا تدبير أمر التعذيب لهؤلاء الذين لا يريدون الانتظار .

وآخرون كثيرون متعجلون أكثر، بل أكثر تسرعًا ، يحسدون القضاة والجلادين على قتلهم، فيقتلون أنفسهم بأيديهم ! وتعذل صولة الحب الجنونى للقتل، صولة الحب الجنونى للموت .

وعند البوابة عسكري شاب ، جميل ، قوى، عاشق ، تركّ فى السجن معشوقةً يحبها لدرجة العبادة ، قالت له : «عش من أجلى !»، لكنه لم يرد أن يعيش، لا من أجلها، ولا من أجل الحب ، ولا من أجل المجد. وأشعل غليونه بورقة اتهامه. وكان جمهوريًا، لأنه يستنشق الحرية بكل كيانه،

وقد جعل من نفسه ملكياً قبل أن يموت. المحكمة تجتهد في تبرّته، لكن المتهم أقوى ، ويضطر القضاة والمحلفون إلى الإنعاز .

وكان فكر «إيفاريست» يمتلئ بالقلق ، فقد كان شاككاً بطبيعته، يمتلئ بالأوهام والشكوك من دروس اليعقوبيين، ولدى رؤية الحياة . وفي جنح الليل خرج وهو يتابع طريقه ليتوجه إلى «إيلودي»، كانت الطرقات سيئة الإضاءة، وكان يعتقد أنه في كل منفذ يرى في القبو لوحة الحوالات الحكومية المزيفة، وفي نهاية دُكان الخبّاز أو البقال يكشف مَحالّ تكتظ بتخزين المُون المحتكرة من خلال الزجاج اللامع للمطاعم، ويُخَيّل إليه أنه يستمع إلى محادثات المضاربين الذين يتسببون في خراب البلد بإفراغهم زجاجات نبيذ «بون» أو «كابليس»، وفي الشوارع الضيقة التي تفوح منها الروائح الكهرية كان يلمح الساقطات مستعدات لأن يطأن بأقدامهن الشعار الوطني بتهليلات من الشباب الأنيق . ويرى في كل مكان، متأمّرين وخونة . وكان يقول في نفسه : «أيتها الجمهورية ! ليس لك غير مُعين واحد في السُرِّ والعلانية : المقصلة المقدسة ، فهي التي تُنقذ الوطن !.....» .

كانت «إيلودي» تنتظره في غرفتها الزرقاء الصغيرة، التي تعلو متجر «لامور بانتر»، وحتى يعرف أنه يستطيع الدخول كانت تضع على إفريز نافذتها رشاشتها الصغيرة الخضراء، بالقرب من أُصيص القرنفل .

إنه الآن يُسبب لها الفزع، فهو يبدو لها كأنه وحش ، ولكنها كانت تخشاه وتحبه حتى العبادة . وفي كل ليلة كان يعتصر كُلُّ منهما الآخر بلا

وعى : العاشق الدموى والفتاة الشبية ، كانا يتبادلان القبلات المتأججة
فى صمت .



مع بزوغ الفجر ينهض الأب «لونجمار»، بعد أن نظَّفَ الغرفة، ثم
يذهب إلى كنيسة صغيرة بشارع «دانفيرا»، كان يخدم فيها كاهن غير
محلف . كان يوجد فى باريس آلاف من الخلوات المتشابهة، حيث
«الأكليروس» المتمرد يجتمع سرّياً فى مجموعات مؤمنة صغيرة، ومع أن
شرطة القطاعات كانت جذرةً وكثيرة الشكوك فإنها كانت تغضُّ طرفها
عن أحضان الكنيسة المتخفية، خوفاً من الرعايا الغاضبين، ومراعاةً لما
تبقى من احترام للأشياء المقدسة .

ودَّعَ الراهب البارنايبتى مُضَيِّفَهُ الذى وجد صعوبة بالغة فى حَمْلِهِ على
العودة لتناول العشاء، ووعده أخيراً بأن الطعام لن يكون وافراً
ولا ناعماً.

بَقِيَ «بروتو» وحيداً ، فأوقد فرنًا صغيراً من الطين ليُعدَّ عشاء الراهب
والأبيقورى (الذواقه) .. كان يُعيد قراءة «لوكريس»، ويتأمل حالة البشر .
هذا الحكيم لم يُفاجأ بوجود أناس بؤساء كانوا عبيداً لا قيمة لهم
لقوى الطبيعة، وفى حالات لا معقولة وصعبة، ولكنه كان من الضعف
بحيث كان يعتقد أن الثوريين كانوا أكثر خُبناً وأكثر حماقة من الآخرين
فى خيالهم . باختصار، لم يعرف التشاؤم طريقه إليه قط ، ولا يعتقد أن

الحياة سيئة بوجه عام، فهو مُعجب بالعديد من جوانب الطبيعة، وخاصة الآلية السماوية (علم حركات الكواكب)، والحب الطبيعي، ويتكيف مع مشاغل الحياة منتظرًا يوم القيامة، حيث لن يشعر أبدًا بالمخاوف ولا بالرغبات.

لَوْن «بروتو» بعض العرائس بعناية، وصنع «زيرلين» دمية تشبه «تيفينان»، وكانت هذه الفتاة تُعجبه، وكان يُثنى بأبيقوريته على نظام الذرات التي كونتها.

هذه الاهتمامات شغلته حتى عودة الراهب البارناييتي، فقال له وهو يفتح له الباب :

– قلت لك يا أبى إن وجبتنا ستكون خفيفة. ليس لدينا سوى القسطل.
كما أنه أيضًا لابد أن يكون مُنبَّلاً.

صاح الأب «لونجيمار» وهو يبتسم.

– لا توجد وجهه الذمّه. يا سيدى، إن أبى كان رجلاً شريفاً وفقيراً، وكان لا يملك سوى بيتٍ خرب، وبستان برى، وغابة صغيرة من شجر القسطل. كان يتغذى هو وزوجته وأبناؤه الاثنا عشر بالقسطل الأخضر الكبير، وكنا جميعاً أقوياء وأشداء. وأنا كنت أصغرهم سنّاً، وكنت شقيّاً، فكان أبى يقول مازحاً بضرورة إرسالى إلى أمريكا لأعمل قرصانا

آه يا سيدى ! ما أذكرى رائحة حساء هذا القسطل ! إنها تُذكرنى بمائدتنا المتوّجة بالأطفال، حيث كانت أمى تبتسم.

وبعد أن انتهى من تناول وجبته، توجه «بروتو» إلى «جولى»، بائع لعب بشارع «نوف - دى - بيتى - شان»، والذي أخذ عرائس رفضها «كايو»، ولم يطلب منها اثنتى عشرة دستة فقط كما كان يفعل «كايو»، بل طلب أربعاً وعشرين دستة للبداية فى التعامل.

وعندما وصل «بروتو» إلى الشارع الملكى سابقاً، رأى فى ميدان «لاريفوليسيون» مثلثاً من الصُّلب يتألق بين حاملين من الخشب، كانت تلك هى المقصلة. كان جمع غفير وهائل ومبتهج من الناس يتجمع حول المقصلة، وينتظر العربات الممتلئة. وسيدات يحملن أطباق عرض الحلوى وينادين حلوى «نانتير» وبائعو المنقوع يقرعون أجراسهم الصغيرة. وعند سفح تمثال الحرية، كان هناك رجل عجوز يعرض صوراً بصرية على مسرح صغير تعلوه أرجوحة، حيث يقوم قرد بعمل حركات توازن. وكان يُشاهدُ تحت المقصلة كلاب تلعق الدماء التى سالت فى اليوم السابق.. غَيَّرَ «بروتو» طريقه إلى شارع «هونوريه».

ويدخل منزله حيث كان البارنابيتى يقرأ فى كتاب الصلوات، فجفف المنضدة كل عناية، ووضع عليها علبة ألوانه، وكذلك الأدوات والمواد التى يستعملها فى عمله.

قال «بروتو» مخاطباً إياه. إذا رأيت يا أبى أن هذا الاهتمام غير جدير بالصبغة المقدسة التى أنت عليها، فأرجوك أن تساعدنى فى صناعة العرائس، فقد أوصانى السيد «جولى» بصنع طلبية كبيرة جداً منها، وأثناء قيامى بتلوين هذه الصور التى شكَّلتها الآن، أكون فى غاية

الامتحان لك إذا قُمتَ بقص رءوس وأذرعة وسيقان وجذوع وفق هذا النموذج، وها هو ذا، ولن تستطيع أن تجد أفضل منها، فهي مُصمَّمةٌ على طريقة « فاتو » و « بوشيه ».

قال «لونجيمار» : في الواقع يا سيدي أننى أعتقد أن «فاتو» و«بوشيه» كانا مُختَصَّينِ بابتكار مثل هذه النماذج، وكان من الأجدر - من أجل مجدهم - أن يلتزموا بعمل عرائس بريئة مثل هذه العرائس . سيكون من دواعى سرورى أن أساعدك ، ولكنى أخشى ألا أكون ماهراً بما فيه الكفاية من أجل ذلك العمل .

كان الأب «لونجيمار» على حق في أن يشك في مهارته بعد العديد من المحاولات اليائسة. كان يجب الاعتراف بأن عبقريته لم تساعده لِيُقَطَّعَ بشفرة السكين دوائر مناسبة من كارتون رقيق ، ولكنه عندما سأل «بروتو» أن يعطيه خيطاً ومِثْكَاً^(١) أَبْدَى جدارة في أن يزود هذه الكائنات الصغيرة بالحركة، والتي لم يكن على دراية بتشكيلها وتعليمها الرقص، وكانت عنده نية طيبة في تجربتها بعد ذلك، بأن يعمل على تنفيذ بضع خطوات لكل منها برقصة الجافوتا (الرقصة الفرنسية الريفية)، وعندما تجاوزت مع اهتماماته، لاحت على شفثيه الغليظتين ابتسامة عريضة . وذات مرة عندما جذب الخيط بقدر معين لإحدى عرائس «إسكاراموش» قال :

(١) المِتْكَ ما تُدْخَلُ به التَّكَّةُ في السروايل (المعجم الوسيط) .

- سيدى ، هذا القناع الصغير يذكرنى بقصة فريدة، وقد كان فى ذلك سنة ١٧٤٦ ، وذلك أننى أنهيت تدريبى الكهنوتى، تحت إشراف الأب «ماجيتو»، وهو رجل متقدم فى السن، ذو معرفة متعمقة، وعادات قاسية. وفى ذلك العصر ربما نتذكر أن العرائس كانت مخصصة فى البداية لتسلية الأطفال، وكانت لها تأثير على النساء ، وكذلك على الرجال ، شباباً ومُسنين، تجذبهم إليها بطريقة غير عادية .. كانت تنتشر بكثرة فى باريس. وكانت مَحَالَّ البائعين تكتظ بها، وكنا نرى منها عند الأشخاص ذوى الكفاءة، ولم يكن نادراً أن نرى منها فى الطرقات، أو فى نزهة شخص وقور يُرقص عروسته.

إن العمر، والطبع، ومهنة الأب «ماجيتو» لم تقه قط من العدوى . عندما كان يرى كل فرد مشغولاً بتحريك رَجُلٍ من الكرتون، كانت أصابعه تُعَبِّرُ عن نفاد صبر ، وَعَبَّرَ فى الحال عن تَكْدُّره .

وذاث يوم - من أجل أمر مُهم - قام بزيارة للسيد «شوفيل» (محام فى البرلمان)، وَلَحَّ دُمِيَّةٌ مُعَلِّقَةٌ على المدفأة، فراودته رغبة مغرية بأن يجذب الخيط ، ولم يحقق ذلك إلا بعد جهد عظيم . ولكن هذه الرغبة العابثة طارده، ولم تتركه يهدم. وقد استحوذت عليه هذه الرغبة وفى دراساته، وفى تأملاته، وفى صلواته فى الكنيسة، وفى مجلس الكهنة، وعلى كرسى الاعتراف، وعلى المنبر. وبعد بضعة أيام أفناها فى اضطراب مخيف، عرض هذه الحالة غير العادية على رئيس النظام، الذى كان لحسن الحظ موجوداً فى باريس. وقد كان طبيبياً مرموقاً، وأحد أمراء كنيسة ميلانو،

فنصح الأب «ماجيتو» بأن يُشبع رغبة ساذجة في أساسها، ومُرعة في نتائجها، والإفراط فيها يُهدد بالتسبب في اضطرابات خطيرة في النفس التي تقع فريسة لها .

ووفقاً لهذا الرأي عاد الأب «ماجيتو» إلى السيد «شوفيل»، والذي استقبله - مثل المرة الأولى - في مكتبه ، وعندما وجد «الدمية» معلقة على المدفأة، اقترب منها بحماس، وطلب من مضيفه أن يتفضل بالسماح له بأن يجذب الخيط ولو للحظة. سمح له المحامى بذلك عن طيب خاطر، وأسرَّ له بأنه أحياناً يقوم بترقيص «اسكاراموش» (ذلك كان اسم الدمية)، وهو يُعدُّ مرافعاته، وأنه في اليوم السابق أيضاً قد أعد خاتمة المرافعة لصالح سيدة مُتهمة زوراً بأنها سَجنت زوجها . الأب «ماجيتو» أمسك بالخيط وهو يرتعد، ورأى تحت يده «اسكاراموش» يتحرك كأنه ممسوس مُعزَّم عليه ضد الشيطان، وهكذا أشبع رغبته، وتخلص من حالة هذه الرغبة العابثة .

قال «بروتو» : إن قصتك هذه يا أبى لم تدهشنى، فهذه الحالات موجودة، ولكنها ليست دائماً وجوهاً من الكرتون التي تُسبب هذه الحالات .

ومع أن الأب «لونجيمار»، كان راهباً فإنه لا يتحدث مطلقاً عن الدين، و «بروتو» يتحدث عن ذلك دون انقطاع، ولما كان يشعر بعطف نحو الراهب البار نابيتى فإنه كان يتلهى بأن يداعبه بإثارتته، وأن يُكدر صفوه باعتراضات في مبادئ مختلفة من العقيدة المسيحية

وذات مرة ، بينما كانوا يصنعوا معاً دُمى زيرلين واسكاراموش (١)،
قال «بروتو» :

– عندما كنت أنظر إلى الأحداث التى وضعتنا فى الموقف الذى نحن فيه، أَحَارٌ فى معرفة أى الأحزاب أَجَنُّ مِنْ الأخرى فى ميدان الجنون العام، لم أَنَاً بنفسى عن الاعتقاد بأنها ترجع إلى البلاط .

أجاب الراهب قائلًا : سيدى ، إن جميع الرجال يصبحون من المعتوهين ، مثل نَبُوخذ نَصْر ، إذا تركهم الرب ولم ينظر إليهم ، ولكنك لا تجد فى أيامنا هذه رجلًا لم ينغمس فى الجهل والخطأ إلى أقصى حد مثل السيد الأب «فوشيه»، ولا رجلًا لم يكن شؤمًا على المملكة مثله.. لا جَرَم أن الله كان شديد الغضب على فرنسا من أجل أن يرسل إليها السيد الأب «فوشيه» .

● يبدو لى أننا رأينا شريرين آخرين غير هذا البائس « فوشيه » .

– السيد الأب « جريجوار » كان يبدى كثيرًا من الدهاء .

● و «بريسو»، و «دانتون»، و «مارات»، ومئات غيرهم.. ماذا تقول عنهم يا أبى ؟

– سيدى، هؤلاء من العلمانيين.. إن العلمانيين لا يستطيعون أن يتحملوا نفس مسئوليات الرهبان، وهم لا يفعلون الشر من علٍ، وجرائمهم ليست عامة

(١) أسماء لعب

● وما قولك يا أبى عن ربكم وسلوكه فى الثورة الحالية ؟

- لا أفهم مقصدك يا سيدى .

● قال أبىقور : إن الرب يريد أن يُحرّم الشر ولا يستطيعه ، أو أنه قادر ولا يريده ، أو أنه لا يقدر على ذلك ولا يريده ، أو أنه يريده ويستطيعه ، فإذا كان يريده ولا يستطيعه فهو غير قادر ، وإذا استطاعه ولا يريده فهو ضال ، وإذا كان لا يستطيعه ولا يريده فهو غير قادر وشرير ، وإذا كان يريده ويستطيعه فلماذا لا يعمله يا سيدى ؟

ورمق « بروتو » متحدّثه بنظرة قانعة .

أجاب الراهب قائلاً : سيدى ، لا شىء أدعى إلى الشقاء من المشاكل التى تثيرها أنت . إننى عندما أتحرى أسباب الجحود يُخَيَّلُ إلىَّ أننى أرى بعض النمل يعترض بعض القشّات كعائق فى مواجهة سيلٍ عَرمٍ يندفع من أعالى الجبال ، اسمح لى بِأَلَّا أناقشك ، فَلَدَيَّْ من الأسباب الكثيرة ، والمواهب القليلة ما يحملنى على ذلك ، ومع ذلك ، فإنك قد تجد ذمّك الذى توجهه عند رئيس الدير القس « جينيه »^(١) وعند عشرين آخرين ، وسأقول لك فقط إن كل ما ذكرته عن « أبىقور » ما هو إلا حماقة وجهالة ، لأنه ذَكَرَ الربّ كأنه إنسان وله صفاته . إن هؤلاء الجاحدين ، من « سيلز » وحتى « بايل » و « فولتير » قد أفسدوا الحمقى بمثل هذه التناقضات .

قال « بروتو » : انظر يا أبى إلى أين يقودك اعتقادك ؟ لست مسروراً

(١) راهب كاتب ، وجدلى فريسى ، ولد سنة ١٧١٧ ، ومات سنة ١٨٠٣

أن يوجد في لأهوتك كل الحقيقة، وأيضاً لا تريد أن تقابل أى حقيقة في أعمال العباقرة الذين يفكرون تفكيراً آخر غير تفكيرك أنت .

أجاب «لونجيمار» : أنت مخطيء تماماً يا سيدى ، فأنا على العكس، أعتقد أنه لا يوجد شىء في عقل الإنسان يكون كله خطأ تماماً ، الملاحدون يحتلون الدرك الأسفل من المعرفة، وفي هذه الدرجة أيضاً تبصر شعاعاً من العقل، وقبساً من الحقيقة، وحتى عندما يغرق الإنسان في المتاهات فإن له رأساً وضع الله فيه الذكاء .

قال « بروتو » : حسنًا يا سيدى ، قد لا أكون في غاية الكرم ، وسأعترف لك بأننى لا أجد في عمل اللاهوتيين ذرةً من الفكر السليم '

ومهما يكن من أمرٍ ، فإن «بروتو» كان ينكر أنه يريد أن يهاجم الدين، الذى يعتقد أنه ضرورى للشعب ، كان يتمنى فقط أن يكون وعظمه من الفلاسفة وليسوا من رجال الجدل . وكان يأسف على أن اليعقوبيين يريدون استبداله بدين أكثر فتوة ، وأشد خبثاً .. أن يستبدلوا به دين الحرية، والمساواة ، والجمهورية، والوطن .

وكان قد لاحظ أن الأديان في عنفوان شبابها كانت أكثر صولة وقسوة ، وأنها هدأت عندما شاخ بها العمر .

وأيضاً يتمنى الإنسان أن نحفظ بالكاثوليكية التى افترست الكثير من الضحايا في عهد قوتها ، والتى همدت الآن تحت وطأة السنين، فصارت تقنع بشهية متوسطة، ترتضى بأربع أو خمس وجبات شواء من الهرطقة (الملاحدة) في مائة عام .

وأضاف قائلًا : وفضلا عن ذلك ، فقد تكيفت مع كل ما هو لاهوتى ومسيحى . كان لىّ مرشدٌ للإيليت ، وفى كل يوم أحد تقام فيه الصلاة كان يحضرها جميع الذين أدعواهم ، وكان أغلبهم من الفلاسفة ، وفتيات الأوبرا المولعات بالعبادة . كنت حينئذ سعيدًا ، ولى أصدقاء كثيرون .

صاح الأب «لونجيمار» قائلًا . أصدقاء ! أصدقاء !.... آه ! هل تعتقد يا سيدى أن هؤلاء الفلاسفة والأخذان كانوا يحبونك ؟ لا أعتقد ذلك .. فإن أحدهم قد لا يميز أحد المعابد التى بُنيت لتمجيد الرب .

استمر الأب «لونجيمار» فى الإقامة لمدة ثمانية أيام عند «بروتو» دون أى قلق . كان يتابع بقدر الإمكان واجب جماعته ، وينهض من فوق فراشه المصنوع من القش ليصلى وهو جاثٍ على ركبتيه على البلاط ليقيم فروض الليل . بالرغم من أن الاثنين لا يتوافر لديهما سوى فضلات من الطعام ، فعزم على الصوم والتقشف . ويلاحظ الفيلسوف هذا الزاهد مبتسمًا لهذه المشقة ، فيسأله ذات يوم .

– هل تصدق حقًا أن الربَّ يرضى ويحب ما تفعله، ويُسرّ لرؤيتك هكذا تعاني من البرد والجوع ؟

أجابه الراهب قائلًا إن الربَّ ضرب لنا مَثَلَ الألم بنفسه .

وفى اليوم التاسع من إقامة الراهب «البارنابيتى» فى مخزن الفيلسوف ، خرج هذا الفيلسوف عند الشفق حاملا عرائسه إلى «جولى» ، بائع اللعب ، بشارع «نوف دى بيتى شان» ، وعندما عاد كان سعيدًا لأنه

باع كل السرائس ، فلما كان في ميدان «كاروسيل» سابقا، اندفعت نحوه فتاة بعباءة من الساتان الأزرق مبطنة بِقُرُو ، وهى تعرج، وارتمت بين ذراعيه، وقبلته على طريقة المتوسلات في كل وقت

كانت تتحدث بصوت لاهث ومنخفض ، خشية أن يسمعها المارة
 - حنانيك ورُحماك خُذْنِي معك أيها المواطن، وَاخْفِنِي إنهم في
 غرفتي في شارع «فرومنتو»، فبينما كانوا يصعدون اختبأتُ عند «فلورا»
 جارتى، وقفزتُ إلى الطريق من النافذة حتى التوت قدمى..... إنهم جاءوا
 يريدون إيداعى في السجن وليقتلونى. . في الأسبوع الماضى، قتلوا
 «فيرجينى» .

أدرك «بروتو» أنها تتحدث عن مندوبى اللجنة الثورية للقطاع، أو
 مفتشى لجنة الأمن العام. كان مجلس العموم في ذلك الوقت به مُدْعٍ
 فاضل، هو المواطن «شوميت»، الذى كان يُطارَد العاهرات على أنهن من
 أشد أعداء الجمهورية. كان يريد أن يبعث من جديد العادات والتقاليد
 الحميدة .

والحق أن أنسات باليه - ديجاليتيه (قصر المساواة) كانت وطنيتهم
 محدودة، وكُنَّ يأسفن على الحالة السابقة ولا يُخفين ذلك دائماً ،
 والكثيرات منهن تم إعدامهن بالمقصلة كمتآمرات، ومصيرهن المأساوى
 قد أثار المنافسة الشديدة بين مثيلاتهن .

وسأل المواطن «بروتو» المتضرعة عن سبب إصدار الأمر باعتقالها،
 فأقسمت أنها لا تعرف شيئاً ، ولم تفعل شيئاً يستوجب ذلك . فقال لها .

— حسنًا يَا بَنَّتِي، أَنْتِ إِذَنْ لَسْتِ مشبوهة ، وليس هنالك ما تخشيه ،
انذهبي ونامى ، ودعيني فى هدوء .

حينئذ اعترفت بكل شىء قائلة :

— لقد انتزعتُ شارتي الوطنية ، وهتفتُ : « عاش الملك ! » .

فاصطحبها متأبطًا ذراعها فى الطرقات المقفرة ، قالت :

— ذلك لم يكن لأنى أحب الملك ، واعلم أننى لم أَرَهُ ولم أتعرف عليه قط ،
وربما لم يكن رجلاً كبقية الرجال ، أو يختلف عنهم اختلافاً كبيراً . ولكن
هؤلاء أناسٌ من الأشرار ، فهم يُظهرون القسوة على الفتيات اللائى لا
حول لهن ولا قوة . إنهم يُضايقوننى ويؤذوننى ويوسعوننى سباً بشتى
الطرق ، وهم يريدون منى ألا أمارس مهنتى . وليست لى أى مهنة أخرى .
تصور أننى حقاً لا أمتهن أى مهنة غيرها ، وإذا لم أمارس هذه .. فماذا
يريدون ؟ إنهم يعاملون الصُّغارَ ، والضعفاءَ ، وباعة اللُّبنِ ، والفحامين ،
والسَّقَّائينَ ، والغسَّالات بكل شدة وضراوة ، ولن ينصلح حالهم إلا إذا
أثاروا ضدهم الطبقة الفقيرة .

نظر إليها .. كان لها مظهر طفلة . ويذهب عنها الخوف . وكانت
مبتسمة ، وتعرج عرجاً خفيفاً . سألها عن اسمها . كان اسمها
«أثينايس» ، و تبلغ من العمر ستة عشر عاماً .

وعرض عليها «بروتو» أن يوصلها إلى حيث تريد . هى لا تعرف أى
شخص فى باريس ، ولكن لها خالة ، تعمل شغالة فى «باليزو» يمكن أن
تقيم عندها .

ويتخذ « بروتو » قراره ، ويقول لها :

– هلم بنا يا صغيرتى .

واصطحبها متأبطاً ذراعها .

عاد إلى منزله . ووجد الأب «لونجيمار» يقرأ في كتاب الصلوات، فقدم إليه «أثينايس»، وكان يمسكها من يدها ، وقال :

– أبى ، هذه فتاة من شارع «فرومانت»، صاحبت «يحيا الملك!»، وشرطة الثورة في إثرها . ليس لها أى مناص .. هل تسمح بأن تقضى الليل هنا ؟

أغلق الأب «لونجيمار» الكتاب الذى كان يقرأه وقال :

– إذا صدق حدسى عن سؤالك فأنت تسألنى عمّا إذا كانت هذه الفتاة التى تُعتبر مثلى (تحت طائلة قرار اعتقال) تستطيع أن تقضى ليلتها من أجل سلامتها المؤقتة فى نفس الغرفة التى أقيم فيها .
– نعم يا أبى .

● وبأى حق أعترض على ذلك ؟ وإذا كنت تعتقد أننى مُتَكَدِّرٌ من وجودها ، فَمِنْ أين لى أن أدرى أننى أكثر منها قيمة ؟

واضطجع طوال الليل على مقعد بمسندين قديم ومتهاك، مؤكداً أنه سينام عليه مستريحاً، فى حين نامت «أثينايس» على المرتبة، وأطفأت الشمعة .

كانت أجراس الكنائس تدق كل نصف ساعة، وكل ساعة، ولم يغمض له جفن، وكان يشعر بأنفاس الراهب والفتاة، ويطلع القمر، الذي هو صورة وشاهد على غرامياته السابقة، باعثاً بأشعته الفضية على السقف، حيث أضاء الشعر الذهبي، والحواجب الذهبية، والأنف الدقيق، والفم المستدير الأحمر للفتاة «أثينايس» التي كانت نائمة وهي مضمومة الأصابع.

ويقول في نفسه :

« ها هي ذى ، عدوة لدودة للجمهورية ! »

عندما استيقظت «أثينايس» كان النهار قد استبان، وكان الراهب قد انصرف ، و « بروتو » كان يقرأ «لوكريس» بجوار النافذة الصغيرة. كان يتتقف بدروس الوحي اللاتيني ليعيش دون خوف، ودون رغبات ، ومع ذلك كان يفترسه الندم والأسى .

وعندما فتحت «أثينايس» عيونها شاهدت في دهشة عوارض المنزل الخشبية فوق رأسها، ثم تذكرت ، فتبسّمت لمنقذها ، ومدت يديها الصغيرتين الجميلتين القذرتين لتداعبه وأشارت بأصبعها - وهي منتصبه على فراشها - إلى المقعد المتهالك ، حيث قضى الراهب ليلته عليه ، وقالت .

- هل انصرف ..؟ . قل، ألم يذهب للوشاية بى ؟

● لا ، يا صغيرتى . لا يوجد في العالم رجل أشرف من هذا العجوز المجنون

فسألته «أثينايس» عن جنون هذا الرجل الطيب، وعندما قال لها «بروتو» إنه الدين، فوجهت إليه اللوم لئلا يتحدث هكذا عنه، قائلة له: «إن مَنْ لا دين له يُعدُّ أسوأ من البهائم. وأما بالنسبة إليها، فهي تصلى الله دائماً، آملة أن يعفو عنها ويغفر لها خطاياها، وأن يتغمد بها برحمته.

وعندما لاحظت أن «بروتو» يُمْسِك بكتاب، اعتقدت أنه كتاب صلوات، فقالت له:

– هكذا أنت تقرأ صلواتك! إن الله سوف يثيبك على ما قمت به معي.

أوضح لها «بروتو» أن هذا الكتاب ليس للصلوات، وأن هذا الكتاب يرجع تاريخ كتابته إلى ما قبل أن تدخل فكرة الصلاة في الدنيا، فاعتقدت أنه تفسير للأحلام، وسألته عما إذا كان يتضمن تفسير حُلُم غير عادى رأيته في منامها.

إنها لا تعرف القراءة، ولم تكن تعرف – عن طريق السمع – إلا هذين النوعين من الكتب.

أجابها «بروتو»: إن هذا الكتاب لا يُفسَّر سوى حلم الحياة!

ولما لمست صعوبة هذه الإجابة، عذلتُ عن أن تفهمها وغمرت طرف أنفها في الإناء الخزفي الذى يحل – بالنسبة إلى «بروتو» – محل الأحواض الفضية التى كان يستخدمها فيما مضى. ثم ساوت شعرها أمام المرأة بعناية فائقة

وكانت ذراعاها البيضاوان معقودتين فوق رأسها، وكانت تتلفظ ببعض الكلمات حيناً بعد حين، قالت:

- لقد كُنْتُ ثريًّا .

● وما الذى جَعَلَكَ تعتقدن ذلك ؟

- لستُ أدري ، ولكنك كُنْتَ مترفًا ، وكُنْتَ أرسقراطيًّا ، إننى متيقنة من ذلك .

ثم أخرجتُ من جيبها تمثالًا صغيرًا من الفضة للعدراء مريم كنيسة صغيرة من العاج ، كما تُخْرِجُ قطعة سُكَّرٍ ، وخيطًا ومِقْصًا ، وقداحة ، ومثبرين أو ثلاثة ، وبعد أن أخذت ما يلزمها ، شرعت فى ترفيع تنورتها التى كانت ممزقة فى مواضع كثيرة .

قال لها «بروتو» : من أجل سلامتك يا صغيرتى ضَعِى هذا على غطاء رأسك ، ثم ناولها شارة وطنية ثلاثية الألوان .

أجابته قائلة : سأفعل ذلك يا سيدى عن طيب خاطر ، ولكن لن أفعله محبة فى الأمة ، بل محبة لكَ أنت .

وعندما تهنّدمتُ وَبَدَتْ بأفضل هيئة ، أمسكت بطرفى تنورتها ، وانحنت باحترام - كما تعلمت فى القرية - وقالت لبروتو :

- سيدى ، إننى خادمتك المتواضعة .

كانت على أتم استعداد أن تُرضى مُضيفها فاعِلَ الخير بأى طريقة ، ولكنها وجدت أنه من اللائق ألا يطلب شيئًا ، وأنها لا تعرض شيئًا .. كما بدّا لها أن من اللائق أيضًا أن يفترقا هكذا وفقًا لأصول الذوق .

وضع «بروتو» في يدها بضعة حوالات حكومية من أجل أن تستقل العربية إلى « باليزو ». كان ما أعطاه يساوى نصف النقود التي معه، وبالرغم من أنه معروف بإسرافه على النساء، فهو لم يتقاسم ماله مع أى سيدة من قبل .

سألته عن اسمه .

– اسمى « موريس » .

فتح لها الباب آسِفًا :

– الوداع يا « أثينايس » .

فقبلته قائلة :

– سيدى «موريس»، عندما تُفكر فيّ، سَمِّنِي «مارت»، فذلك هو اسمى الأول، والاسم الذى يطلقونه علىّ فى القرية... الوداع ، وشكرًا.... إننى خادمك المطيعة يا سيدى «موريس» .



كان لابد من تفريغ السجون المكتظة، وكان لابد من إصدار الأحكام دون هدنة، وبلا هوادة. كان القضاة – مثل أسلافهم الملكيين – يجلسون فى هدوء مخيف ، ويحتفظون بوقارهم أمام حوائط مغطاة بشعارات فاشستية، وأغطية رأس حمراء اللون – مثل أقرانهم – على زهور الزنبق (كانت زهرة الزنبق رمزًا للملكية فى فرنسا).

المدعى العام ونوابه مُنْهَكُونَ من الإرهاق ، وبحالة سيئة من أثر السهر ومعاقرة العرقى (مشروب كحولى)، لا ينفضون عن كاهلهم هذا الإرهاق إلا بمجهود عتيق، وسوء حالتهم الصحية جعلت منهم شخصيات مأساوية .

المحلفون، من أصول وطباع مختلفة، جبناء أو كرماء، منافقون أو مخلصون، ولكن جميعهم - حيال الخطر الذى يُحْدِقُ بالوطن والجمهورية - إما يشعرون أو يتظاهرون بأنهم يشعرون بنفس الغم والجَزَع، وأنهم يحترفون بنفس اللهيب، وجميعهم قَسَاءٌ، إمَّا عن فضيلة، وإمَّا عن خوف. وهم جميعاً يُشْكَلون مخلوقاً واحداً ، أو رأساً واحداً غاضباً أَصَمَّ، أو نفساً واحدة، أو دابةً غامضة إذا قامت بأعمالها بطريقة طبيعية، تسفر عن فيض من حالات الموت.

وسواءً كانوا قساةً أو بواسِلَ بالإحساس فإنهم تهزهم فجأة حركة شفقة مباغتة، فقد بَرَّءُوا، أحد المتهمين، وكانوا منذ ساعة قد أدانوه بسخرية. كلما تقدموا فى مهمتهم كانوا يتبعون - بلا رحمة - دوافعهم العاطفية .

إنهم يُصدرون أحكامهم وهم محمومون، وفى غفوة، نتيجة للإفراط فى العمل، وتحت تحريضٍ مِمَّنْ هم بالخارج، وبأوامر من الحاكم، وتحت تهديد اللامتسولين لهم، والحائكات المندفعات فى المنصات، وفى الحرم العمومى ، وفقاً لشواهد دامغة عن قرارات اتهام هذيانية، وفى جو فاسد

يُثقل على العقول، ويسبب طنينَ الأذان وضرباً للأصداغ، ويغشى العيون بغلالة من الدماء .

وتسرى إشاعات غامضة بين أفراد الشعب عن بعض المحلفين المرشحين بأموال من المتهمين، ولكن هيئة المحلفين ردت على هذه الشائعات باعتراضات ساخطة، وإدانات صارمة .

وأخيراً، هؤلاء كانوا رجالاً، لا هم أسوأ ولا أفضل من الآخرين. والبراءة - في معظم الأحيان - سعادة وليست فضيلة، وأى فرد قبل أن يضع نفسه مكانهم يتصرف مثلهم، ويقوم بهذه المهام الخائفة بروح متواضعة .

و«أنطوانيت» التي طال انتظارها. جاءت أخيراً لتجلس بثوبها الأسود على المقعد المشئوم، في وسط جوقة حقدٍ وكرهية، وأن المصير المحتوم الذي سوف يتضمنه الحكم كان معروفاً مقدماً، وهو الذي أدى إلى احترام الشكليات.

وكانت المتهمة تجيب على الأسئلة القاتلة تارة بتحفظ غريزي، وأخرى باستعلائها الذي جُبِلَتْ عليه، ومرة - بفضل فضيحة من أحد وشاتها - تُجيب بعظمة أم من الأمهات . كانت الوشاية أو الإهانة فقط هي الشيء الوحيد المسموح به للشهود، والدفاع يجمد من الخوف.

كانت المحكمة مجبرة على أن تحكم حسب القواعد والأصول، كانت تنتظر حتى ينتهى كل ذلك، لكى تلقى برأس النمساوية إلى أوروبا .

وبعد ثلاثة أيام من إعدام «مارى - أنطوانيت»، تم استدعاء «جاميلان» تلبية لرغبة المواطن «فورتينيه تروبير»، الذى كان يحتضر على بُعد ثلاثين خطوة من المكتب العسكرى، حيث كان يُسَلِّم روحه على سرير من السُّيُور فى خَلْوَة أحد البارنابيين المُبعدين، ورأسه الأدكن كان غاطساً بين طيات الوسادة، وعيناه - اللتان لم يعد يرى بهما - كانتا تدوران فى مُقلَّتيهما الزجاجيتين نحو «إيفاريست»، وأمسكت يده الهزيلة بيد الصديق وضغطت عليها بطريقة غير مُنتظرة. وكان قد نَقِيَ دَمًا ثلاث مرات فى يومين. حاول أن يتكلم، كان صوته فى البداية واهناً وغير واضح، كأنه همهمة، ثم علا وتضخم :

- فاتينى (١) ! فاتينى !... جوردان (٢) هاجم العدو فى معسكره... وفك حصار «موبوج»، واستولينا على «مارسيان» (٣) واستردناها... وكل شىء سيكون على ما يرام ... وابتسم .

لم تكن تلك أحلام مريض أو تهيؤات المرض، بل كانت رؤية واضحة للحقيقة التى أنارت هذا العقل الذى حلت عليه الدياجير الأزلية. ومن بعد ذلك، كان يبدو أن الغزو قد توقف : الجنرالات كانوا مرهوبين، فَرَأَوْا أنه ليس هناك أفضل من الانتصار، وذلك ما يحققه التجنيد التطوعى، فقد أَمَدَّهُ بجيش كبير العدد مُدَرَّب ومنضبط، وإذا ما بُذِل مجهودٌ آخر فإن الجمهورية يمكن أن تُنقِّذ .

(١) بلدة فى شمال فرنسا .

(٢) قائد فرسى .

(٣) مدينة فى شمال فرنسا

وبعد نصف ساعة من الإنهاك اُضْمَحَلَّ وجه «فورتينيه تروبير»، ثم عادت إليه الحيوية مرة أخرى، وارتفعت يده وأشار بأصبعه إلى قطعة الاثاث الوحيدة الباقية في الغرفة، مكتب صغير من خشب الجوز، وبصوته اللاهث الضعيف، الذى يتحكم فيه فِكْرٌ جِلِيٌّ قال :

- أَيْ صَدِيقِي ، إِنْنِي مِثْل «أوداميداس» أَوْصِيكَ بديونى، وهى ثلاثمائة وعشرون جنيهاً، ستجد حسابها فى هذا الدفتر الأحمر... الوداع يا «جاميلان»، لا تغفل عنها، واسهر على سلامة الجمهورية. الأحوال ستكون مُرضية.

وأسدل الليل ستاره على الخَلْوَة، وكانت أنفاس المحتضر تتردد ، ويدها تفرك الملاءة. وعند منتصف الليل نطق بكلمات متقطعة :

- المزيد من ملح البارود..... سَلِّمِ البنادق.... الصحة ؟ جيدة جداً...
أَنْزِلُوا هذه الأجراس

وَلَفَظَ أنفاسه الأخيرة فى الساعة الخامسة صباحاً. وبأمر القطاع عُرِضَ جسده فى الكنيسة السابقة للبارنابيت، عند سفح هيك الوطن، على سرير ميدان، وجسده ملفوف فى عَلمٍ ثلاثى الألوان، ويحيط بجبهته إكليل من البلوط .

ويحيط بسريره اثنا عشر عَجُوزًا يرتدون التوج (ثوب رومانى فضفاض)، وحاملين سَعْفًا (جريد نخل) فى أيديهم، واثنتا عشرة فتاة يسحبن غلالات طويلة ويحملن زهورًا، وَيُحِطْنَ بالفِرَاش. وعند قدمى الميت طفلان يمسك كل منهما مَشْعَلًا مُنْكَسًا. تَعْرِفُ «إيفاريست» على

أحدهما ، كانت ابنة بوابته «جوزيفين» التى - بجاذبيتها الطفولية،
وجمالها الساحر - كانت تُذكره بجنيّات الحب والموت اللائى كان
الرومان ينحتونها على توابينهم .

توجه الموكب إلى جبانة «سان - أندريه - ديزار» بالأناشيد الوطنية،
وكانت الأحوال مرضية. وبعد أن طبع «إيفاريست» قبلة الوداع على
جبين «فورتينيه تروبير» انخرط فى البكاء. وبكى على نفسه هو، حاسداً
هذا الذى يرقد للراحة الأبدية لاكمال مهمته .

وعندما عاد إلى منزله، تسلم إعلاناً بأنه عُيِّن عضواً فى المجلس العام
لمجلس العموم وقد رُشح لهذا المنصب منذ أربعة أشهر، وكان قد تم
انتخابه دون منافس، وبعد اقتراعات عديدة بما يقرب من ثلاثين صوتاً
انتخابياً. لم يكن هناك تصويت، كانت الإدارات مقفرة، وكان الأثرياء
والفقراء لا يبحثون إلا عن التخلُّص من المهام العمومية.

أعظم الأحداث لم تكن تحدث على حماس أو تطُّع ، وأصبح الناس
لا يُطالعون صُحفاً، وكان «إيفاريست» يشك فى أن من بين سبعمئة ألف
نسمة (هم سكان العاصمة) ثلاثة أو أربعة آلاف فقط هم الذين لهم روح
جمهورية.

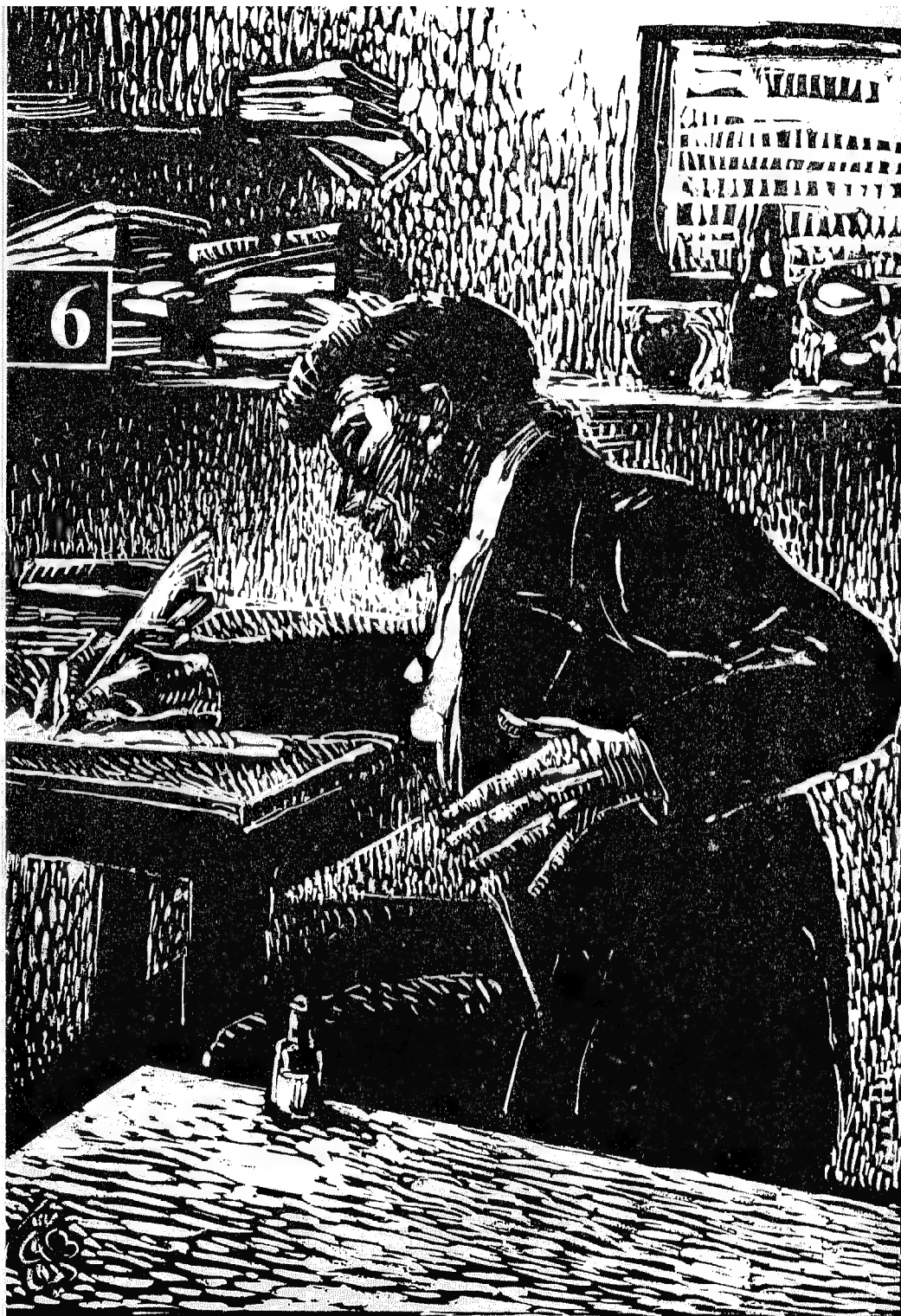
فى هذا اليوم، الواحد والعشرون متُّلوا أمام القاضى. هم مذنبون أو
أبرياء من بؤس وجرائم الجمهورية.. هم واهمون، طائشون، طموحون
وخطّاءون، معتدلون وقساة، فى آن واحد، ضعفاء فى القسوة والحلم،

متعجلون لإعلان الحرب، ومتباطئون في إدارتها، هم زاحقون إلى المحكمة
بالقدوة التي ضربوا مثلاً لها .

لم يكن لديهم شباب الثورة المتدفق ، كان لديهم منها الجمال والمجد .
هذا القاضى الذى سوف يسألهم بتحيز واضح، هذا المدعى ممتقع
الوجه، يجلس هناك خلف طاولته الصغيرة يُجَهِّز لموتهم وإذلالهم، هؤلاء
المحلفون الذين يريدون فى الحال أن يخنقوا دفاعهم ، وهذا الجمهور -
جمهور المنصات - يُمطرهم بوابل من السبِّ والسخرية . قاضٍ ،
ومحلفون ، وشعب ، منذ عهد قريب صفقوا لبلاغتهم، وهتفوا لمواهبهم
وفضائلهم، ولكنهم نسوا كل شيء .

كان «إيفاريست» يجعل من «فرجينو» رجل الدين الذى يستشير ه ،
ومن «بريسو» وسيطه ، ولكن «إيفاريست» نسى تمامًا ، وإذا كانت هناك
بعض آثارٍ من إعجابه القديم، فذلك لكى يدرك أن هؤلاء الوحوش قد
خدعوا أفضل المواطنين .

وفى عودته إلى منزله - بعد الجلسة - سمع «إيفاريست» صرخات
ممزقة صادرة من الصغيرة «جوزيفين» التى كانت أمها تضربها لأنها
لعبت فى الميدان مع أطفال الشوارع السوقية، واتسخ ثوبها الأبيض
الجميل الذى ارتدته من أجل جنازة المواطن «تروبير» .



6

كان «إيفاريست» طوال ثلاثة أشهر يقدم كل يوم للوطن ضحايا من المشاهير أو من المغمورين، ثم تكون عنده قضية خاصة به عن متهم أصبح مُتَّهَمُ الخاص .

منذ أن اتخذ مقعده في المحكمة ترصد بلهفة - من بين جموع المتهمين التي تمر أمام عينيه - الشخص الذي غرَّر بإيلودي ، والذي رسم له صورة - في مخيلته الخصبية - ذات قسمات محددة . تخيله شاباً جميلاً ، وقحا ، وكان على يقين أنه كان مُهاجراً في إنجلترا . وقد اعتقد أنه اكتشفه في شاب مهاجر اسمه «موبيل» ، والذي عند عودته إلى فرنسا كان مضيفه قد وُشِيَ به ، وتم اعتقاله في أحد فنادق «باسي»^(١) ، وأن نيابة «فوكييه» - تانفيل» العامة أحيطت علماً بهذه القضية مع ألف قضية أخرى .

عُثر على خطابات عنده اعتبرها الاتهام أدلة على تأمره بالاشتراك مع أعوان «بيت» ، ولم تكن في الحقيقة سوى رسائل مرسلة إلى المهاجر من بعض رجال البنوك من لندن ، والذي كان يودع عندهم أموالاً .

(١) باسي أحد أحياء باريس

«موبيل» كان شابًا، وجميلاً، وكان يبدو مشغولاً بالمغامرات العاطفية خاصة. ووجد في بطاقته أثر علاقات مع إسبانية، وكانت إسبانيا في ذلك الوقت في حرب مع فرنسا، مع أن هذه الرسائل كانت - في الحقيقة - شخصية، وإذا كانت النيابة العامة لم تُصدر قرارًا بأنه لا وجه لإقامة الدعوى، فقد كان ذلك بموجب هذا المبدأ بأن العدالة لا يجب مطلقاً أن تتسرع في إطلاق سراح أى سجين.

أطلع «جاميلان» على التحقيق الذى أُجْرِىَ مع «موبيل» في غرفة المجلس، وفوجئ بأوصاف الشاب الذى تخيلَه فيما سبق تنطبق على الرجل الذى غرَّر بإيلودى، ومنذ ذلك الوقت وهو لم يبرح مكتب كاتب المحكمة ساعات طويلة ليدرس الملف بدقة. وتزايدت شكوكه بطريقة غريبة عندما وجد في مفكرة قديمة تخص المهاجر عنوان محل «لامور بانتر» مرفقة بعنوان محل «لوسانج فير»، وصورة للدروفينة سابقاً، وكذلك كثير من محلات الصور واللوحات، ولكن، عندما علم أنه كان يوجد في نفس هذه المفكرة بعض تويجيات زهرة قرنفل حمراء، مغطاة بعناية فائقة بورقة حرير، فكر في أن القرنفل الأحمر هو الزهرة المفضلة عند «إيلودى»، والتي تزرع منها على إفريز نافذتها، وتضع منها في شعرها، وتهديها (وهو يعرف ذلك) كدليل على الحب. «إيفاريست» لم يُساوره شك حينئذ لكى يتأكد بنفسه، فقرر أن يستقهم من «إيلودى»، ومع ذلك فقد كان يخفى عنها ظروف اكتشاف المجرم.

ولما كان يصعد الدَّرَج في منزله شم من بداية السلالم رائحة فاكهة،

ووجد «إيلودي» في الرسم، كانت تساعد المواطنة «جاميلان» في عمل مربى السفرجل. وبينما كانت ربة البيت العجوز تُشعل الفرن كانت تقدح زناد فكرها في وسائل توفير الفحم والسكر الأسمر دون أن تضر بجودة المربى. وكانت المواطنة «بليز» على مقعدها المصنوع من القش متمنقة بمريلة من الكتان الأسمر، وأمامها فواكه ذهبية اللون ملء حجرها، تقشرها وتقطعها إلى قطع وتلقى به في قِدْرٍ نحاسية. وكانت أطراف غطاء رأسها منسدلة إلى الخلف، وخصلات شعرها الأسود تتثنى على جبهتها الندية، وكان ينبعث منها سحر أليف ورقة طبيعية توحيان بالأفكار الحلوة والشهوة الهادئة .

رفعت عيونها الجميلة - دون أن تتحرك - إلى حبيبها بنظرات جميلة كالذهب السائل ، وقالت :

- انظريا «إيفاريسست»، نحن نعمل من أجلك، وسوف تأكل طوال الشتاء مربى السفرجل اللذيذة التى تقوّى معدتك، وتبهِج قلبك .

اقترب منها «جاميلان» ونَطَقَ بهذا الاسم في أذنها :

- « جاك موبيل ... » .

وفي هذه اللحظة وصل «كومبالو» الإسكافي، وأطل بأنفه الأحمر من الباب المُوَارَب، وأحضر معه - مع الأحذية التى رَكَّب لها كعبًا - حساب تركيب النعال الجديدة . وخوفًا من أن يؤخذ على أنه مواطن غير صالح، فقد استخدم التقويم الجديد .

حَارَتِ المواطنة «جاميلان»، - التى كانت تحب أن تتأكد من حسابتها - حارت في «الفريكتيدور» (الشهر الثانى عشر من التقويم الجمهورى، ويبدأ يوم ١٨ أو ١٩ أغسطس)، وفي «الفينديمير» (أول شهر في التقويم الجمهورى).

وتنهدت قائلة .

- يا يسوع المسيح ! يريدون أن يُغيروا كل شيء . الأيام ، والشهور ، والفصول، والشمس والقمر ! يا إلهى . يا سيد «كومبالو»، ما هذا؟ زوج من الجرْمُوق (واقٍ للحذاء) في ٨ من «فينديمير» ؟

● أيتها المواطنة، ألقِ نظرةً على نتيجتك لتعملِ حساباتك .

انصرفت عنه ، ورمقته بنظراتها، ثم استدذرات في الحال ، وتمتمت وهى مكفهرة .

- لا يبدو عليها مَسْحَةٌ نصرانية .

قال . ليس هذا فقط أيتها المواطنة ، بل لا يوجد عندنا سوى ثلاثة آحاد فقط بدلاً من أربعة، وليس هذا كل شيء، فلا بد من تغيير طريقتنا في الحسابات، لن يكون هناك فَلَـس أو دُنْـيَر (أسماء عملة قديمة ضئيلة القيمة)، كل شيء سيكون كالماء المُقَطَّر .

وعقب هذه الكلمات رَفَعَت المواطنة «جاميلان» عينها إلى السقف، مرتجفة الشفتين، وقالت بِحَسْرَةٍ .

- ماذا سيفعلون أكثر من ذلك !

وبينما كانت تشكو بأنين ، مثل قديسات الصُّلبان الريفيات، حدث
أثناء غيابها أن انتشرت «دخانة» من جمر القرن وملأت الرسم، وأصبح
الجو غير صالح للتنفس بعد أن اختلطت رائحة السفرجل مع هذه
الأدخنة.

واشتكت «إيلودي» بحشجة في زورها، وطلبت فتح النافذة . وبمجرد
أن انصرف المواطن الإسكافي والمواطنة «جاميلان» عادت إلى فرنها .
ويكرر «إيفاريسست» اسم «جاك موبيل» في أذن المواطنة «بليز». فنظرت
إليه بشيء من الدهشة، وبمنتهى الهدوء، ودون أن توقف عن تقطيع
السفرجل ، قالت :

— حسنًا « جاك موبيل » ؟ ...

● إنه هو !

— من ؟ هو ؟

● أعطيتِه قرنفة حمراء .

وصرحت أنها لا تفهم شيئًا ، وطلبت منه أن يفسر لها .

— هذا الأرستقراطي ! هذا المهاجر ! هذا النذل ! هزت كتفها ونفت

أنها تعرف أى أحد بهذا الاسم، دون أن يبدو عليها أى شيء غير عادية .

والواقع أنها لم تكن تعرفه قط . ونفت أنها لم تُعطِ أحدًا زهرة قرنفل

حمراء إلا إلى «إيفاريسست»، ولكن ربما — من هذه الناحية — لم تكن
ذاكرتها جيدة .

لم يكن «جاميلان» يعرف النساء جيدا، فهو لم يتعمق جيدا في طبيعة «إيلودي»، ومع ذلك فهو كان يعتقد أنها قادرة على أن تتظاهر وأن تخدع من هو أكثر منه دهاء ومهارة . قال

– لماذا تنكرين ؟ أنا أعرف .

وأكدت مرة أخرى أنها لم تعرف أى أحد باسم «موبيل»، وعندما انتهت من تقطيع «السفرجل» طلبت قليلا من الماء، لأن يديها قد اتسخت .

أحضر « جاميلان » حوضا لها .

ونفت مجددة – وهى تغسل يديها – عدم معرفتها بهذا الشخص وكرر مرة أخرى أنه يعرف ، وفي هذه المرة التزمت الصمت .

لم تكن تدرك إلى ما يرمى سؤال «إيفاريسست»، وكانت بعيدة كل البعد عن أن تشك في أن «موبيل» هذا – والتي لم تسمعه يتحدث عنه مطلقاً – سوف يُمثل أمام المحكمة الثورية، وهى لا تفهم شيئاً عن الشكوك التى تحوم حولها، ولكنها مُتيقنة أنها لا أساس لها من الصحة، لذلك كانت لا أمل لها في تبديدها، فهى ليس لها رغبة في ذلك، وتوقفت عن الدفاع عن نفسها بعدم معرفة «موبيل»، مُفضلة أن تدع هذا الغيور شاردا في طريق زائف، حتى يرشده أدنى حدث إلى الطريق الصحيح. إن كاتبها الصغير السابق الذى أصبح فارسا طريفا محباً للوطن قد ساءت علاقته الآن بعشيقته الأرستقراطية، عندما قابل «إيلودي» في الطريق نظر إليها نظرة كأنها تقول : «هيا بنا أيتها الجميلة ! إننى أشعر حقاً بأننى سوف أُجنَّبُك أى خيانة، وأننى على وشك أن أكن لك كل احترام».

إِذَنْ لَنْ تَبْذُلَ جَهْدًا لِكَيْ تُشْفِيَ صَدِيقَهَا مِمَّا تُسَمِّيه «أَهْوَاء حَبِيبِهَا»..
و«جاميلان» لا يزال مقتنعًا بأن، «جاك موبيل» هو الذى غرر بإيلودى.
وفى الأيام التالية ستهتم المحكمة - دون تقصير - بتدمير الفيدرالية
التي تهدد - كالأفعوان - بافتراس الحرية.

كانت أيامًا عصيبة، والمحلفون كانوا منهوكة القوى، لذا تخلصوا
بأسرع ما يمكن من الزوجة «رولاند»، المُلْهَمة والمتواطئة فى جرائم حزب
«بريسوتين».. ومع ذلك، كان «جاميلان» يقضى كل صباح فى النيابة
العامة، للتعجيل بقضية «موبيل»، وكانت توجد مستندات مهمة فى
«بورردو»، وقد نَمَّا إلى عِلْمِهِ أَنَّ أَحَدَ الْمُفْتَشِينَ تَقَصَّى عَنْهَا فى الْبَرِيدِ.
وَأخِيرًا وَصَلَتْ .

وقراها نائب المدعى العام، وقال - مُمتعِضًا - لإيفاريست :

- لا يوجد فى هذه المستندات ما هو مهم، فليست إلا سذاجات وَلَغْوًا !
لو كان من الثابت أن هذا الكونت السابق (كونت دى موبيل) قد هاجر! ..
وأخيرًا نجح «جاميلان»، وتلقى «موبيل» الشاب قرار اتهامه، وتُرْجِمَ
أمام المحكمة الثورية فى التاسع عشر من برومير (٩ نوفمبر).

ومن بداية افتتاح الجلسة أبدأى الرئيس وجهًا مُقْطَبًا وِعَبُوسًا ، وكان
يحرص دائمًا على أن يبدو كذلك لِكَيْ يَحْكُمَ فى الْقَضَايَا الَّتِي لَمْ تُدْرَسْ
جَيِّدًا .

كان المدعى العام يداعب ذقنه بطرف قلمه، وكان يتظاهر بأن ضميره

صَحُّوْ ونَقْيُ. قرأ كاتب المحكمة قرار الاتهام قائلاً : لم يسبق أن استمعنا إلى أجوف من ذلك. ووجَّه الرئيس سؤالاً إلى المهاجر عمَّا إذا كان يعرف أو لا يعرف القوانين التى تتعلق بالمهاجرين.

فأجاب «موبيل» قائلاً : نعم، لقد عرفتُها ولاحظتها، وغادرتُ فرنسا وأنا مُزوَّدٌ بجوارِ سفرٍ قانونى.

وأما عن أسباب سفره إلى إنجلترا، وعن عودته إلى فرنسا، فقد فسَّرها بطريقة مُقنعة. كان وجهه هادئاً، تُظهره الصراحة، والزَّهو الذى يوحى بالإعجاب. وكانت النسوة اللائى يجلسن فى المنصة يرمقنه بنظرات مُرضية. كان الاتهام يدَّعى أنه أقام فى إسبانيا فى الوقت الذى كانت فيه هذه الدولة فى حرب مع فرنسا، ويؤكد هو أنه لم يغادر «بايون»^(١) فى هذا الوقت.

هناك نقطة واحدة فقط تظل مبهمه ، هى أنه من بين المستندات التى ألقى بها فى مدفأته - أثناء فترة اعتقاله، والتى لم يُعثر فيها إلا على مقتطفات باقية - قُرئت بعض كلمات إسبانية، واسم «نييف» .

رفض «جاك موبيل» أن يُصرِّح بأية تفسيرات بصدد هذا الموضوع. عندما أخبره الرئيس أن من مصلحة المتهم أن يُفسر، فأجابه بأنه ليس من الضرورة دائماً أن نتبع مصلحتنا .

لم يكن «جاميلان» يفكر إلا فى إقناع «موبيل» بجريمة. لثلاث مرات

(١) إحدى المدن الفرنسية

حَثَّ الرئيس على سؤال المتهم عَمَّا إذا كان يستطيع أن يُفسر سبب احتفاظه بزهرة القرنفل بكل عناية بالتَّوَجُّيات الجافة في محفظته .

أجاب « موبيل » بأنه لا يعتقد بأنه مُجَبَّرُ على أن يُجيب على سؤال لا يهم العدالة، طالما أنه لم يُعْتَرَّ على بطاقة مُخْبِأة في هذه الزهرة.

انسحبت «هيئة المحلفين إلى غرفة المداولات لصالح هذا الشاب، حيث تبدو قضية تُخفي أسرارًا غرامية. هذه المرة، الصالحون والأنقياء أنفسهم برَّءوه عن طيب خاطر. أحدهم كان من السابقين، وقد قَدِّم ضمانات للثورة، قال :

— أَمِنْ أَجل مولده تحمل عليه ؟ أنا أيضًا ، كان من سوء حظي أَنْ وُلدت أَرستقراطيًا.

أجابه «جاميلان» قائلًا : نعم ، ولكنك تنصلت منها ، أما هو فقد ظل فيها .

وتحدث بعنف عن هذا المتواطئ، هذا المبعوث من «أرف «بيت»، هذا المتواطئ التابع لكوبورج، والذي كان قد ذهب فيما وراء الجبال وفيما وراء البحار ليثير أعداء الحرية، وأنه طالب بإصرار شديد إدانة الخائن، الذي أيقظ مزاجه القلق دائمًا ، وقسوة المحلفين الوطنيين الراسخة .

قال له أحدهم بصلف :

— هناك خدمات لا نستطيع رفضها بين الزملاء .

وكان الحكمُ بالموت قد صدرَ عليه بصوت الأغلبية. والمتهم سَمِعَ الحُكْمَ هادئًا مبتسمًا . ونظراته التي كان يتفرَّس بها في هدوء جميع

الموجودين بالقاعة عندما وصلت إلى وجه «جاميلان» كانت تعبر عن
ازدراء لا يوصف .

لم يصفق أحد للحكم الذي صدر ..

وتوجّه «جاك موبيل» ثانية إلى البوابة، وكتب رسالة - وهو ينتظر
حكم الإعدام الذي يجب أن يُنفذ في المساء نفسه - على ضوء المشاعل،
كتب يقول :

« شقيقتي العزيزة، المحكمة ترسلني إلى المقصلة، لقد مَحَنَتْنِي بذلك
الفرحة الوحيدة التي أستطيع أن أشعر بها منذ موت معبودتي «نييف»،
وحرمونى من الشيء الوحيد الذى بقى لى منها، زهرة الرُّمَّان، التي
يُسمونها - ولست أدري لماذا - زَهْرَةَ قُرْنفل .

كنت أحب الفنون.. فى باريس - فى عهد البذخ - تسلمت لوحات
مرسومة ولوحات منحوتة، وهى الآن فى مكان أمين، وسوف تُسلَّمُ إليك
عندما تسنح الفرصة. أرجوك يا أختى العزيزة أن تحافظى عليها كتذكّار
منى .»

وقص خصلة من شعره، ووعها مع الرسالة التى طواها، وكتب عليها
العنوان الآتى :

إلى المواطنة «كليمانس ديزيميرى»، وبالميلاد موبيل . لاريول.

وأعطى كل ما معه من نقود إلى حامل المفاتيح، راجياً إياه أن يوصل
هذه الرسالة، وطلب زجاجة نبيذ وشرب كُؤُيسَات صغيرة، منتظراً
العربة....

وبعد العشاء جرى «جاميلان» إلى متجر «لاموربانتر»، ووثب إلى الغرفة الزرقاء التي كانت «إيلودي» تنتظره فيها كل ليلة، وقال لها :
 - لقد أُخِذَ ثَاوُكُ . انتهى «جاك موبيل». العربة التي تقوده إلى الموت
 مرت من تحت نافذتك محاطة بالمشاعل .

أدركت «إيلودي» الأمر ، وقالت :

- مسكين ! أنتَ الذى قتلته، ولم يكن حبيبي . أنا لا أعرفه... لم أره
 قط... أى رجلٍ كان هذا ؟ كان شاباً، محبوباً ... بريئاً . وأنتَ الذى قتلته..
 مسكين ! مسكين!

وسقطت على الأرض فاقدة الوعي . ولكن فى غيابة هذا الموت السهل،
 كان يغمرها فى آن واحد شعور بالهلع، وبالشهوة. كانت شبه مستفيضة،
 وكشفت جفونها الثقيلة عن بياض عينيها، وانتفخ زورها، ويداها
 النابضتان تبجثان عن عشيقها. واعتصرته بين ذراعيها، تكاد تخنق
 أنفاسه، وغرست أظافرها فى لحمه، ونفحته من شفثيها الممزقتين أطول
 وأذ القبلات، وأكثرها صمماً، وأحرّها، وأكثرها ألماً .

كانت تحبه بكل كيائها، وكلما كان يبدو لها مخيفاً وقاسياً ومتوحشاً،
 وكلما كانت تراه مخضباً بدماء الضحايا ، ازداد نَهْمُهَا وتعطُّشها إليه .

* * *

فى اليوم الرابع والعشرين من فريمير (الرابع عشر من ديسمبر
 ١٧٩٣) فى الساعة العاشرة صباحاً ، فى جو وردى قارس البرودة، حيث

تكونت ثلوج الليل، كان المواطنان «جينو» و «ديلورميل»، مندوبا لجنة الأمن العام، مُتَوَجِّهَيْنِ إلى البارنابيت، وقَصَدَا لجنة الرقابة في القطاع، في القاعة الجمعية، حيث كان يوجد في هذا الوقت المواطن «بوفيزاج» الذي كان يدس الحطب في المدفأة، ولكنه في البداية لم يَرَهُمَا، بسبب طبيعته الصامتة، وقامتة القصيرة.

وبالصوت الأجوف الضعيف دَعَا «بوفيزاج» النائبين إلى الجلوس، وشرع في خدمتهما في الحال.

سأله «جينو» عَمَّا إذا كان يعرف أَحَدًا يُدْعَى «ديزيليت» يقيم بجوار «البون - نوف»، وأضاف قائلا :

— هذا أحد الأشخاص، أنا مُكَلَّفٌ بِإِلْقَاءِ القبض عليه .

وأَبْرَزَ أمر لجنة الأمن العام .

استغرق «بوفيزاج» بعض الوقت وهويبحث في ذاكرته، ثم أجاب بأنه لا يعرف أى فرد باسم «ديزيليت»، ومن المشبوهين. ربما لا يكون من المقيمين في القطاع، وبأن بعض مناطق الميزيوم، أو لونيته، أو «مارات - و - مارسليا»، توجد أيضًا بالقرب من «البون - نوف»، وأنه إذا كان يسكن بالقطاع فلا بد أن يكون تحت اسم آخر غير الذى يتضمنه أمر اللجنة، وإلا فلن تألو جهدًا في العثور عليه .

قال «جينو» : علينا ألا نضيع الوقت ! إن رقابتنا اكتشفته عن طريق رسالة من إحدى المتواطئات معه التى اُحْتُجِرَتْ في مقر اللجنة منذ خمسة

عشر يومًا، وأن المواطن «لاكروا» لم يعلم بهذا إلا مساء أمس فقط . لقد فاض بنا الأمر، فقد وصلتنا البلاغات بكثرة من جهات كثيرة، حتى أننا في حيرة، أيهم نتبع ؟

أجاب «بوفيزاج» بفخر : البلاغات تدفقت أيضًا على لجنة المراقبة بالقطاع. بعض هذه البلاغات كان بدافع الوطنية، والبعض الآخر كان طمعًا في الحصول على ورقة مالية من فئة المائة فلّس . كثير من الأطفال وشوا بأبائهم طمعًا في الميراث .

واستطرد جينو . هذه الرسالة مبعوثة من إحدى السيدات وتدعى «روشيمور» ، سيدة مستهترة، وكان يُمثّل عندها لعبة سرية الانضباط، وتحمل الرسالة عنوان أحد المواطنين يدعى «رولين» ، ولكنها في الحقيقة مرسلة إلى أحد المهاجرين ممن يعملون في خدمة «بيت» . أخذتُ الموضوع على كاهلي لأتصل بك فيما يختص بهذا المدعو «ديزيليت» .

أخرج الرسالة من جيبه، وقال :

– تبدأ الرسالة بمعلومات مطولة عن أعضاء الجمعية الوطنية الذين يمكن – وفقًا لقول السيدة – أن تكسبهم مقابل مبلغ من المال ، أو بالوعد بوظيفة كبيرة في إحدى الحكومات الجديدة أكثر ثباتًا من هذه الحكومة .

ثم بعد ذلك قرأ هذه الفقرة

« خرجتُ من عند السيد «ديزيليت» الذي يقيم بالقرب من «البون – نوف» ، في أحد المستشفيات ، ويجب أن يكون المرء قطة أو شيطانًا ليعثر على

هذا المخزن، وكان يعيش من عائد الدُمى التى يصنعها. إنه رجل
 حصيف، لذلك، أرسل إليك يا سيدى جوهر محادثته. فهو لا يعتقد أن
 هذه الحالة ستستمر وقتاً طويلاً، وهو لا يتوقع نهايتها بانتصار
 الحلفاء، ويبدو أن الأحداث تجعله على صواب، لأنك تعلم يا سيدى أنه
 منذ قليل كانت أنباء الحرب سيئة، وأنه يعتقد في ثورة عامة الشعب،
 ونساء الطبقة الشعبية، الذين يرتبطون ارتباطاً وثيقاً بدينهم. وهو يرى
 أن الإرهاب العام الذى تسببه المحكمة الثورية سوف يجمع قريباً كل
 فرنسا قاطبة ضد اليعقوبيين، وقد قال مازحاً: هذه المحكمة التى حكمت
 على ملكة فرنسا، وحاملة الخبز، تُشبه وليم شكسبير، الذى يُعجّب به
 الإنجليز كثيراً، إلخ»، وهو يعتقد أنه ليس من المستحيل أن
 «روبسبير» يتزوج من «مدام رويال» ويجعل من نفسه حامى المملكة.

وأكون مُمتنة لك يا سيدى إذا وافيتنى بالمبالغ المستحقة لى، أى ألف
 الجنيه الإسترلينى بالطريقة المعهودة، ولكن احترس جيداً من أن تكتب
 إلى السيد «مورهاردت»، فهو قد تم اعتقاله مؤخراً وأودع السجن، إلخ،
 إلخ».

قال «بوفيزاج»: السيد «ديزيليت» يصنع الدُمى، وتلك دلالة لها
 قيمتها... مع أنه توجد مثل هذه الصناعات الصغيرة بكثرة في القطاع.

قال «ديلورميل». إننى وعدتُ أن أحضر دُمىةً إلى ابنتى «ناتالى»،
 صغرى البنات، المريضة بالحمى القرمزية، فالبقع ظهرت بالأمس، وهذه

الحُمى ليست من الخطورة ليُخشى منها، ولكنها تحتاج إلى عناية. و«ناتالى» تسبق سنّها، ولها ذكاء متوقّد، وصحتها حساسة .

قال «جينو» : وأنا لى ابن واحد، وهو يلعب بالطوق، بحلقاتٍ من براميل، ويصنع مناطيد صغيرة بالنفخ فى أكياس .

قال «بوفيزاج» : إن الأطفال يلعبون أفضل ، بالأدوات التى ليست لُعْبًا، إن ابن أخى «إيميل» طفل له من العمر سبع سنوات، وهو غاية فى الذكاء، يتسلى طول اليوم بمربعات خشبية صغيرة، يصنع منها تكوينات.... هل تستخدمونها ؟ ثم بسط «بوفيزاج» علبة نشوقه المفتوحة أمام النائبين .

قال «ديلورميل» ذو الشوارب الطويلة . الآن يجب أن نُلْقَى القبض على النذل.. إننى أشعر بشهينة مفتوحة هذا الصباح لأكل مِعْلاق الأرستقراطى (أى : مجموعة القلب والطحال والكبد والرئتين من الحيوان)، ومُسْقاة بكوب من النبيذ الأبيض .

واقترح «بوفيزاج» على النائبين أن يذهبا إلى لقاء زميله فى متجره فى ميدام «الدوفين»، ويدعى «ديبون إينيه»، والذى بكل تأكيد يعرف شخص «ديزيليت».

وساروا فى الجو القارس ، يتبعهم أربعة من رماة القنابل اليدوية من القطاع .

سأل «ديلورميل» أصدقائه : هل شاهدتم مسرحية «الحكم الأخير على الملوك»؟ إن المسرحية تستحق المشاهدة. المؤلف يصور فيها جميع ملوك

أوروبا يلوزون بجزيرة قاحلة عند سفح بركانٍ ابتلعهم . إنه عمل وطني .
أبصر «ديلورميل» في ركن شارع «هارلاي» عربية صغيرة بَرّاقة تدفعها
عجوز ترتدى معطفًا ، وغطاء رأسها عبارة عن قبعة من نسيج مدهون
بالشمع .

سأل : ماذا تباع هذه السيدة ؟

وأجابت السيدة نفسها :

- انظروا أيها السادة، اختاروا بأنفسكم، معى مسابح، ومسابح
وردية، وصُلبان، وصور للقديس «أنطوان»، وكفن السيد المسيح،
ومناديل القديسة «فيرونيك»، والحَمَل الإلهي، وأبواق وحلقات القديس
«هوبير»، وكل أدوات العبادة.

صاح «ديلورميل» قائلاً : هذه ترسانة التعصب ! وشرع في استجواب
مختصر للبائعة الجائلة التى أجابت على جميع الأسئلة :

يا بنى، إننى منذ ربعين عامًا وأنا أبيع هذه الأغراض التى تتعلق
بالعبادة.

ويُبصر أَحَدَ مندوبى لجنة الأمن العام مرتدياً زياً أزرق اللون كان
مارًا ، فالزمه باقتياد هذه العجوز المندهشة إلى البوابة.

وينصح المواطن «بوفيزاج» «ديلورميل» بأنه من الأفضل للجنة
المراقبة أن تُلْقَى القبض على هذه البائعة، وأن تقودها إلى القطاع، وأنه
فضلاً عن ذلك فلا نعرف أى سلوك يُؤخذ نحو العبادة السابقة، للتصرف

وفقًا لما تراه الحكومة، وإذا كان لابد من اتخاذ إجراء، فإمّا أن يُسمح بكل شيء، وإمّا أن يُمنع كل شيء .

وعندما اقتربوا من دكان النّجار، سمع المندوبان والمفتش ضوضاء وهتافات غضب، مختلطة بصريّر المنشار، واحتكاك الفأرة. كانت مشاحنة وقعت بين النجار «دييوان اينيه» وجاره البواب «روماكل» بسبب المواطنة «روماكل»، حيث إن النّشارة والنجارة كانت تتطاير من دكان النجار إلى حجرة البواب وتغطيها .

كان البواب متضايقًا، فركل بقدمه كلب النجار المُسمّى «موتون»، وفي نفس الوقت كانت ابنته «جوزيفين» تمسك الكلب بحنان وتقبله، ولكن «جوزيفين» غضبت من والدها، وصاح النجار بغضب :

– ايها البائس ! إننى أمنعك من ضرب كلبى .

وأجاب البواب وهو يرفع مقشّته : وأنا أمنعك من أن... ولم يتمم عبارته : فقد ضربه النجار على رأسه بالمنجرة .

ومن بعيد أبصر المواطن «بوفيزاج» بصحبة المندوبين، وجَرى نحوه وقال له :

– أيها المواطن المفتش، أنتَ شاهد الآن على أن هذا النذل يريد قتلى .

وكان المواطن «بوفيزاج» يرتدى على رأسه قلنسوة حمراء اللون، التى هى شعار وظيفته، ويمد ذراعيه فى وضع تهدئة للاثنتين، مخاطبًا كليهما قائلاً .

– مائة فُلُس لِمَنْ يرشدنا أين يوجد صانع اللُّعَب المتحركة الذى تبحث عنه لجنة الأمن العام، وهو أحد الديزيليت السابقين المشبوهين.

وأشار الاثنان – البواب والنجار – معًا إلى مسكن «بروتو»، ولم يناقشا أى شىء سوى المكافأة الموعودة للواشى .

«ديلورميل»، و «جينو».. و «بوفيزاج»، يتبعهم أربعة من رماة القنابل اليدوية، والبواب «روماكل»، والنجار «دييون»، وحوالى عشرة من الصغار، أطفال الشوارع، تسللوا من السلم حاثين خُطاهم، ثم صعدوا عن طريق سلم الطحان .

كان «بروتو» فى مخزنه يقص العرائس، فى حين كان الأب «لونجيمار» يجلس أمامه، يجمع أعضائها المتناثرة بالخيوط، وكان يبتسم عندما رأى أن أصابعه قد أجادت النُسُق والانسجام.

وعندما سمع الراهب جلبية وضوضاء على «مشاية» السلم، ارتعدت فرائصه، ليس لأنه أقل شجاعة من «بروتو» الذى ظل رابطَ الجأش، بل لأن حَيَاءَهُ الإنسانى لم يُعوّده على التماسك .

وفهم «بروتو» من أسئلة المواطن «ديلورميل» من أين جاءت الضربة، وأيقن مُؤخَّرًا أنه من الخطأ أن تثق فى النساء. وعندما طُلب منه أن يتبع المفتش، أخذ معه كتابه عن «لوكريس» وقمصانه الثلاثة، وقال وهو يشير إلى الأب «لونجيمار» .

– إنه مساعد يعاوننى فى صناعة عرائسى . وهو يقيم هنا .

ولكن الراهب لم تكن معه شهادة المواطنة، لذلك قُبِضَ عليه مع «بروتو».

وعندما مر الموكب بجوار حجرة البواب، كانت المواطنة «ريماكل» تستند على مقشّتها وتنظر إلى مَنْ يسكن عندها بعين الفضيلة التى تشاهد الجريمة بين يدي القانون. و «جوزيفين» الصغيرة تأخذ بسلسلة الكلب «موتون» الذى كان يريد أن يُلاطف الصديق الذى كان يُعطيه قطع السكر. وامتلا ميدان «ثيونفيل» بجمع غفير من المتطفلين.

وتقابل «بروتو» عند أسفل السلم مع شابة فلاحه كانت تشرع فى صعود السلم. كانت تحمل تحت إبطها سلة مملوءة بالبيض، وتمسك بيدها فطيرة ملفوفة فى قطعة قماش.

كانت «أثينايبس» جاءت من «باليسو» لتقدم إلى مُنقذها دليلاً على عرفانها بالجميل. وعندما لاحظت أن القضاة وأربعة رماة يصطحبون السيد «موريس» ظلت واجمة، وسألت عَمَّا إذا كان هذا حقيقياً، واقتربت من المفتش وقالت له بهدوء.

– لن تصحبه ! مستحيل ... إنكم لا تعرفونه ! فهو طيب، وطيبته من طيبة الرب !

دفعها المواطن «ديلورميل»، وأشار على الرماة أن يتقدموا، حينئذٍ أمطرتهم «أثينايبس» بوابل من السباب والشتائم، وانصبت أقذر الشتائم على القضاة والرماة الذين شعروا كأن جميع أوانى «الباليه – رويال» (القصر الملكى)، وشارع «فرومانتو» قد انسكبت فوق رؤوسهم.

ثم بعد ذلك وبصوت ملأ ميدان «ثيونفيل» قاطبة، وأقزع الجمع
 الغفير من الفضوليين، صاحت قائلة
 - عاش الملك ! عاش الملك !

المواطنة «جاميلان» كانت تحب العجوز «بروتو»، وكانت تعتبره
 الرجل الوحيد الذى يستحق أن يُحَبَّ وأن يُحترم. لم تقل له وداعًا عندما
 اعتقلوه، حتى لا تُجابه السلطات، وفي حالتها المتواضعة كانت ترى أن
 الجبن واجب، ولكنها تلقت فيه صدمة لم تُفَق منها .

لم تكن تستطيع الأكل، وتشكو من أنها فقدت شهيتها في الوقت الذى
 كان لديها خيرًا ما تتغذى به. كانت معجبة أيضًا بابنها، ولكنها لم تكن
 تجرؤ على التفكير في مهامه المخيفة التى يضطلع بها، وتكتفى بأنها ليست
 إلا سيدة جاهلة عاجزة عن الحكم في أمره.

وكانت الأم المسكينة قد عثرت على سبحة قيمة في قاع إحدى الحقائق
 الصغيرة، لم تكن تعرف استخدامها، ولكنها شغلت بها أصابعها
 المرتعشة. وبعد أن عاشت عمرها حتى تقدمت بها السنون دون أن
 تمارس دينها أصبحت ورعة، كانت تصلى لله طيلة اليوم، وتلازم بيتها
 من أجل سلامة ابنها، ومن أجل سلامة هذا الرجل الطيب «بروتو» .

كانت «إيلودي» تزورها دائمًا . وكانت لا تَجُرَّانِ على أن تتبادلا
 النظرات، وكل منهما قريبة من الأخرى، تتحدثان - عن قلة - عن أشياء
 لا أهمية لها .

و ذات يوم في شهر المطر، عندما كان الجليد يتساقط ندائف كبيرة
تضئ السماء، وتخنق كل ضوضاء المدينة، كانت المواطنة «جاميلان»
بمفردها في المنزل، وسمعت طرقات على الباب.

ارتعدت فرائصها ، وهى منذ عدة أشهر كانت أقل ضوضاء ترعبها.
فتحت الباب، ودخل شاب في الثامنة عشرة أو العشرين من عمره، وقبعته
على رأسه، يرتدى «ريدينجوت» أخضر اللون، متعدد الكولات، ثلاث
منهن يُغطين صدره والقامة، ويحتذى ببوت على الطريقة الإنجليزية،
وشعره قسطلُ اللون، تنسدل خصلات منه على كتفيه. اندفع في وسط
المرسم، كأنه يريد أن يستقبل كل ما يبعثه لوح النافذة من شعاع خلال
الجليد. وظل ساكناً لبعض الوقت وصامتاً، وأخيراً، وبينما كانت
المواطنة «جاميلان» تنظر إليه مذهولة إذا به يقول لها :

— ألا تعرفين اينتك ؟!...

وعقدت السيدة العجوز يديها وقالت .

— جولى .! . أهذه أنتِ ؟. يا إلهى ! هل هذا ممكن !.....

● أى نعم ، أنا أقبلُينى يا أمَّاه .

واعترضت المواطنة «جاميلان» ابتتها في حضنها، وسقطت دمعة على
كولة الريدينجوت. ولكنها استطردت بلهجة يشوبها القلق .

— أنت في باريس ؟!....

● آه يا أمى ! ليتنى ما جئت إليها بمفردى !.... أنا لا يعرفنى أحد في
هذه الملابس.

في الواقع، كان «الريدينجوت» يخفى تفاصيل جسدها، ولم تكن تبدو مختلفة كثيراً عن عديد من الشباب، الذين يرتدون مثلها هذا الزئ، ولهم شعر طويل مثلها، مفروق من الوسط.

كانت قسماات وجهها دقيقة وجميلة، ولكنها شاحبة ومنهوكة القوى، مُثْقَلَة بالهموم، ولها مظهر جرىء ورجولي. كانت نحيفة، وساقاها طويلتين مستقيمتين، وكانت تتحرك ببساطة، وكان صوتها الواضح فقط هو الذي يمكن أن يكشفها.

سألتها أمها عما إذا كانت جائعة، فأجابت بأنها ستأكل بكل ممنونية، وعندما قدمت إليها خُبْزاً ونبيداً، ولحم الخنزير، شرعت في تناول هذا الطعام وهي تستند بكوعها على المائدة. كانت جميلة وأكولة مثل «سيريس»^(١) في كهف «بوبو» العجوز. ثم تسأل أمها :

- هل تعرفين يا أمي متى سيعود «جاميلان»؟ جئتُ لأحدثه. نظرت الأم الطيبة إلى ابنتها بإحراج ولم تُحر جواباً.

- يجب أن أراه. لقد ألقى القبض على زوجي هذا الصباح وقادوه إلى «لوكسيمبورج».

وقد أطلقت اسم الزوج على «فورتونيه دي شاسيني»، وهو نبيل سابق، وضابط في فيلق «بوييه»^(٢). أحبها عندما كانت عاملة بيع ملابس في شارع لومبارد، اختطفها وصحبها إلى إنجلترا، حيث هاجر بعد العاش

(١) انة إله الزم وإله الأرض والزرع كما جاء في الاساطير

(٢) قائد فرنسي

من أغسطس . كان عاشقها، ولكنها وجدت أن من الأدب أن تسميه «زوجها» أمام والدتها، وهى ترى في نفسها أن البؤس رَوَاجَ بينهما، وأن هذا ليس بقران، إنه لم يكن سوى شقاء .

وكانا كثيرًا ما يقضيان الليل معًا على أحد المقاعد في حدائق لندن، ويلتقطون قِطْعَ الخبز من تحت طاولات المطاعم في «بيكاديللى» .

وأما جالسة صامتة لا تنبس بِنْتُ شفة، وتنظر إليها نظرات كئيبة .
 - إِذَنْ ، فأنت لا تسمعيننى يا أمى ؟ الوقت يمر سريعًا، يجب أن أرى «إيفاريست» حالا، فهو الوحيد الذى يستطيع أن يُنقذ «فورتينيه» .
 أجابت الأم . «جولى»، من الأفضل ألا تتحدثى إلى أخيك .

- كيف ؟ ماذا تقولين يا أمى ؟

❶ أقول إنه من الأفضل لِكِ ألا تتحدثى مع أخيك عن السيد «دى شاسينى» .

- أمى ، لا بد من ذلك ، ضرورى !

❷ بُنَيْتِ ، «إيفاريست» لن يغفر للسيد «دى شاسينى» أنه اختطفك .

هل تعرفين كيف كان يتحدث عنه بغضب ؟ وأى الألقاب كان يُطلقها عليه ؟

- نعم ، إنه يسميه الفاسد قالت «جولى» ذلك وهى تبتسم وتصفّر وتهز كتفها .

● يا بُنيتي، إنه أُمّين إلى درجة الموت. لقد قرر «إيفاريست» بينه وبين نفسه ألا يتحدث أبدًا عن السيد «دى شاسيني». وها قد مر عامان دون أن يذكرهما بكلمة واحدة. وشعوره لم يتغير نحوكما، وأنت تعرفيه، إنه لن يصفح عنكما .

- ولكن يا أمى، بما أن «فورتينيه» قد تزوجنى فى لندن

رفعت الأم المسكينة عينيها ويديها وقالت :

- يكفى أن «فورتينيه» من الطبقة الأرستقراطية، ومهاجر، حتى يعامله «إيفاريست» كعدو .

● أخيرًا ، أجيبينى يا أمى ، أتعقدين لو أننى طلبت منه أن يجرى اللازم مع المدعى العام ولجنة الأمن العام لإنقاذ «فورتينيه» ألن يوافق على ذلك ؟ ولكنه إن لم يوافق ، فذلك يكون وحشية منه !

- بُنيتي ، أخوك رجلٌ شريف ، وابنٌ صالح . ولكن لا تطلبى منه ... أوه ! لا تطلبى منه أن يهتم بالسيد « دى شاسيني » ... اسمعى كلامى يا «جولى» ، فهو لا يُفضى إلّا أبدًا بأفكاره ، مطلقًا ، ولكن لا يشق الأمر على فى أن أفهمه ... ولكنه قاضٍ ، وله مبادئ ، فهو يتصرف بما يُمليه عليه ضميره. لا تطلبى منه أى شىء يا «جولى» .

● أراك الآن تعرفينه جيدًا .. تعرفين أنه بارد، وبليد الإحساس، وشرسٌ ، ولا يهتم سوى الطموح، والطمع، وأنت فضّلتِه دائمًا على . عندما كنا نعيش نحن الثلاثة معًا، كُنْتُ تعتبرينه قُدوةً لى. سلوكه

المُصْطَنع، حديثه الوقور، كانا يؤثران فيك، كُنْتَ تجددين فيه جميع الفضائل، وأنا، لا تُقدِّريني مطلقاً، ودائماً تنسبين لي كل الرذائل، لأنني كنت صريحة، ولأنني كنت أتسلق الأشجار لم يكن بوسعك قط أن تطيقني، وكنت لا تحبين غيره، اسمعي! إنني أكره هذا «الإيفاريس» ابْنك، إنه منافق.

— صه يا «جولي» لقد كنتُ لكما أمّاً طيبة. وعَلَّمتُكِ مهنة، وهو لم يكن متعلقاً بي، ولم يتوقف عليّ أن تظلي فتاة شريفة، ففتزوجين وفقاً لوضعك لقد أحببتك بحنان، وما زلتُ أحبكِ. وإنني أسامحك وأحبكِ. ولكن لا تفترى على «إيفاريس»، لأنه ولد طيب، كان دائماً يعتني بي.

عندما تركتيني يا بُنيتي، وعندما تكتِ وظيفتك ومتجرك، لتعيشي مع السيد «دي شاسيني»، ماذا كنت سافعل لولا وجوده؟ لولاه لكنتُ لقيتُ حتفى كمدا وجوعاً!

❶ لا تقولي ذلك يا أمي، أنتِ تعلمين جيداً أننا كنا سنوليك كل عناية، «فورتينيه» وأنا، إلّا قد انصرفت عنا بتحريض من «إيفاريس». لا تُثيريني! إنه غير قادر على أن يقوم بعمل صالح، فهو — حتى يجعلني مُخيفة في عينيك — قد تظاهر بالعناية بك. هو يُحبك؟!... هل هو قادر على أن يُحب أحداً؟ إنه لا قلب له ولا روح. ولا موهبة له من أجل أن يرسم، لا بد له من طبيعة أرق من طبيعته.

وتجولت بنظراتها على اللوحات الموجودة في المرسم، والتي وجدتتها مثلاً كانت يوم تركتها، فتقول مستطردة:

ها هي ذى روحه ! قد أفرغها في لوحاته الباردة والكثيرة ، وها هو ذا بطله «أوريست» ، ذو النظر الضارى، والقلم الردىء ، ويبدو عليه مظهر المرفوع على الخازوق.. إنه هو بكل كيانه.... أخيرًا يا أمى، أنتِ لم تَفْهَمِي شيئًا ! لا أستطيع أن أترك «فورتينية» في السجن . أنتِ تعرفين اليعاقبة، كلهم وطنيون ، وهم عَصَبَةُ «إيفاريست» ، وسوف يعملون على قتله يا أمّاه.. أمى العزيزة، أمى الصغيرة، لا أريد أن يقتلوه لى . أنا أحبه ! أحبه ! إنه كان طيبًا جدًا معى، ونحن فى البؤس كنا معًا !

انظرى، هذا «الريدينجوت» يخصه. لم تبقي عندى «بلوزات». لقد أَعَارَنِي أحد أصدقاء «فورتينية» «جاكتًا» وكنت عند صبرى بائع ليمونادة فى «دوفر» ، فى حين كان هو يعمل عند أحد الحلاقين، وكنا نعلم أنه بالعودة إلى فرنسا فإننا نخاطر بحياتنا، ولكن سُلِّمْنَا عن رغبتنا إذا كنا نريد السفر إلى باريس للقيام فيها بمُهمة كبيرة... فوافقنا ، وكان علينا أن نقبل مهمة شيطانية .

دفعوا لنا الأجر للسفر ، وسَلَّمُونَا خطابَ ضمان لأحد رجال البنوك فى باريس، فوجدنا المكاتب مغلقة، فهذا الصيرفى كان فى السجن وسوف يُعدم بالمقصلة.. كنا صُفِّرَ اليدين. وبالنسبة لجميع الأشخاص الذين يجب أن تنضم إليهم، والذين يُمكن أن نتصل بهم، كانوا إمّا هاربين وإمّا فى السجون. لم يعد لنا باب نظرقه. ونمنا فى حظيرة فى شارع «لافام - سان - تيت»، وكان ينام فيه معنا على القش ماسح أحذية كريم. أُعْطِيَ عشيقى أحد صناديقه، وفراشة ، وعلبة تلميع ، ثلاثة أرباعها فارغة .

ولمدة خمسة عشر يومًا . كان «فورتينيه» يجنى قوتنا من تلميع الأحذية في ميدان «جريف» .

و ذات يوم وضع أحد أعضاء مجلس العموم قدمه على الصندوق ، وَلَمَّعَ له حذاءه . كان هذا العضو جزاريًا سابقًا ، وكان «فورتينيه» قد ركله بقدمه في مؤخرته ، لأنه باع لحمه وغش في الميزان . وعندما رفع «فورتينيه» رأسه ليطلب منه أجر تلميع الحذاء ، عرفه هذا النذل ، ودعاه الأرستقراطي ، وهدده باعتقاله .

تجمهرت الناس، منهم كان الطبيب ، ومنهم كان النذل ، صاحوا : «الموت للمهاجر !» ، واستدعوا شرطة الدرك . وفي هذه اللحظة كنت أحمل الحساء لفورتينيه . رأيته مصحوبًا إلى مقر القطاع ، وسُجِنَ في كنيسة «سان - جان» .. أردتُ أن أُقْبِلَهُ ، فدفعوني بعيدًا عنه . قضيتُ الليل مثل الكلب في أحد ممرات الكنيسة .. واقتادوه ، هذا الصباح.....

ولم تستطع «جولى» أن تتم كلامها ، فقد خنقتها العَبْرَات . وألقت بقبعتها على الأرض وجثت عند قدمي والدتها قائلة :

سوف يقتادونه هذا الصباح إلى السجن في «لوكسيمبورج» . أمى.. أمى.. ساعديني على إنقاذه، اشفقى على ابنتك ! وانخرطت في البكاء ، وفتحت «الريدينجوت» ولكى توضح بطريقة أفضل أنها عشيقه وابنة ، كشفت عن صدرها ، وتناولت يدي والدتها ، وضغطت بهما على نهديها المختلجين .

تنهدت الأرملة «جاميلان» وقالت . ابنتى العزيزة، أئى «جولى»، ابنتى «جولى»! وألصقت وجهها المندى بالدموع بخدى ابنتها الزوجة الصغيرة. ولبضع لحظات لَزِمَتَا الصمت، وكانت الأم المسكينة تُنْقَبُ فى ذهنها عن وسيلة لمساعدة ابنتها «جولى»، و «جولى» تراقب نظرة هذه العيون المغرورقة بالدموع .

وتسرح الأمُّ مفكرة

«ربما لو تحدثتُ إليه فقد يُفكر فى الأمر، فهو طيب وحنون . وإذا لم تكن السياسة قد جعلته قاسيا ، وإذا لم يخضع لنفوذ اليعاقبة، لما ظهرت شدته التى تُخيفنى ولا أفهم سببها .»

وأخذت رأس ابنتها «جولى» بين راحتيها قائلة .

- اسمعى يا بُنْتِى ، سأحدثُ إلى «إيفاريست»، وسأمهد ليراك ويسمك، لأن رؤيتك قد تثير غضبه، وأخشى أول رد فعل . ثم إننى أعرفه، وهذا الزئى قد يُسبب له صدمة، لأنه قاسٍ بصدد كل شئٍ يُسئىء إلى العادات والتقاليد. أنا نفسى قد أدهشنى قليلا أن أراك فى زئى صبيانى.

● أه يا أمّاه ! الهجرة ، والقلق المخيفة فى المملكة ، جعلت من هذه التنكرات فى الزئى أمراً منتشرًا ، وكان يتم التنكر من أجل ممارسة مهنة، ومن أجل ألا يُعرَف صاحبها ، ومن أجل مطابقة جواز سفر ، أو شهادة مقتبسة، وقد رأيتُ فى لندن «جيراي» الصغير يرتدى ملابس فتاة، وكان يبدو غاية فى الجمال ، كأنه فتاة جميلة، وأنت يا أمى توافقين على أن هذا التنكر أكثر مجونا من تنكرى .

– بُنيتى المسكينة، أنتِ لستِ محتاجة إلى أن تُبرر موقفك أمامى، لا هذا، ولا ذاك، أنا أمك، وستظلين دائماً بريئة بالنسبة لى. سأحدث مع «إيفاريست»، سأقول....

وتوقفت عن الكلام. كانت تعرف مَنْ يكون ابنها، فهى تشعر به وتحسه، ولكنها لا تريد أن تصدق ذلك، ولا تريد أن تعرفه.

«إنه طيب. سيفعل من أجلى ... ومن أجلك ما سوف أطلبه منه».

كانت المرأتان مُرهقتين إلى أقصى درجة، فتوقفتا عن الكلام. ونامت «جولى» ورأسها على ركبتي أمها حيث كانت تستريح وهى طفلة .

سحبته الأم المتألمة من يدها وهى تبكى من الآلام التى تشعر بها فى صمت، وفى هدوء هذا اليوم – يوم الجليد – حيث كل شىء فيه ساكن . الخطوات، والعجلات، والسماء.

وفجأة، بالسمع المرهف الذى سببه القلق، تسمع ابنها يصعد الدَّرَج. قلت : هذا «إيفاريست»!.... اختبئى أنتِ (إلى ابنتها) ودفعت بابنتها إلى غرفتها.

– كيف حالكِ اليوم ، يا أمى الطيبة ؟

وعَلَّقَ «إيفاريست» قبعته على مشجب المعطف ، وَغَيَّرَ زِيَّ الأزرق بجاكت خاص بالعمل، وجلس أمام لوحته، فهو منذ بضعة أيام خطط بقلم الفحم لوحة «النصر»، واضعاً إكليلاً على جبهة جندى مات فى سبيل الوطن. وقد اختار هذا الموضوع بحماس، ولكن الحكمة كانت تلتهم كل

أيامه، وتستولى على روحه، ويده التي ابتعدت، عن الرسم كان يشعر بها ثقيلة وكسرة.. وتمتم بأغنية «كل شيء على ما يرام»

قالت المواطنة «جاميلان» : «أنت تُغنى يا بُنى ، لابد أن قلبك مبتهج .

– يجب أن نبتهج يا أمى، فلدينا أنباء طيبة «الفانديه قد دُحرت، وهُزم النمساويون، تَغَلَّبَ جيش «الران»، على خطوط «اللوتين» و«الفيسيمبورج» (١)

اقترب اليوم الذى سوف تُبدى فيه الجمهورية المنتصرة رأفتها. لماذا تتفاقم مهارة المتأمرين كلما زادت الجمهورية قوة ؟ ولم يجتهد الخونة فى ضرب الوطن فى الخفاء ، فى حين هى ، أى الجمهورية ، تسحق الاعداء الذين يهاجمونها علناً «

كانت المواطنة «جاميلان» ترقب ابنها – وهى تخطط جوربا – من فوق نظارتها قالت .

– جاء « بير زيليوس » – موديك القديم – ليطلب الليرات العشر التى أنت مدين له بها ، فأعطيتها إياها و «جوزيفين» الصغيرة كانت تشكو بالأم فى بطنها . لأنها أكلت مربى أكثر من اللازم، والتى كان النجار قد قَدَّمها لها. وأعطيتها منقوعاً مغلياً وجاء «ديماهيس» لرؤيتك، وأسف كثيراً على أنه لم يجدك. كان يريد أن ينحت موضوعاً من تأليفك ، وقد وجد أن عندك موهبة عظيمة. هذا الصبى الشجاع شاهد رسوماتك وأُعجب بها كثيراً

(١) اللوتين بهر فى غاريا . وفيسيمبورج مدينة فرنسية

- عندما يستقر السلام وتختنق المؤامرة فستأنف لوحتي «أوريست»، أنا لم أعود على الإطراء، ولكن يوجد هنا رأس جدير بدافيد .

ورسم بخط عظيم ذراع لوحته «النصر»، وقال مستأنفاً :

- إنه يبسط جريد نخل .. ولكنه قد يزيد جمالاً لو أن ذراعيه ذاتهما يكونان من الجريد .

● إيفاريست !

- أمي ؟

● وصلتنى أخبار ... مِمَّنْ تتوقع ؟ ...

- لا أدري ...

● عن «جولي» ... عن أختك ... ليست سعيدة .

- إن ما فعلته كان فضيحة .

● لا تتحدث هكذا يا بُنى ، إنها أختك . «جولي» ليست سيئة، فهي لها إحساسات طيبة، والتي غذاها الشقاء، وهي تحبك، وأستطيع أن أؤكد لك يا «إيفاريست» أنها ترنو إلى حياة جد مثالية، ولا تفكر إلا في التقرب من ذويها، وليس هناك ما يمنعك من أن تراها ثانية . وهي تزوجت من «فورتينيه دي شاسيني» .

- كتبت إليك ؟

● لا ..

- وكيف عرفت أخبارها يا أمي ؟

● ليس عن طريق رسالة يا بنى ، هذا ...

فنهض وقاطعها بصوت رهيب .

- أُسْكُتِي يَا أُمَّاهُ ! لا تقولى إنهما عادا إلى فرنسا... وإذا كان ولا بد أن يهلكا، فعلى الأقل لا يكون ذلك بيدي ومن أجْلِهما، ومن أجلك، ومن أجلى، تظاهري بأننى لا أعرف أنهما فى باريس... لا تُجبرينى على أن أعرف، وإلا...

● ماذا تريد أن تقول يا بنى ؟ أتريد .. هل تجرؤ ؟...

- أُمى ، اصغى لى : إذا كنتُ أعرفُ أن أختى «جولى» فى هذه الغرفة.. (وأشار بأصبعه إلى الغرفة المغلقة) فإننى سأُبَلِّغُ عنها فى الحال لجنة رقابة القطاع .

وتبدو الأم المسكينة ، كعصابة رأسها بياضا، ويسقط الجورب الذى كانت تُخيطه، من يديها المرتعشتين وتنهدت، وبصوتٍ أضعف من الضعف تمتمت :

« لا أستطيع أن أصدق ، ولكنى أوقن جيدا ، هذا وحش..
«إيفاريست».

ويبدو وجه «إيفاريست» أكثر شحوبا منها، والزبد على شفثيه، وينصرف مهرولا ، يبحث عن النسيان بجوار «إيلودى» والنحاس . إنه شعور مسبق ولذيق للعدم .



7

7

بينما كان الأب «لونجيمار»، والفتاة «أثينايس» يُسالان في القطاع، كان «بروتو» بقيادة اثنين من شرطة الدرك يقودانه إلى «لوكسمبورج»، حيث رفض البواب استقباله مُتعللاً بأنه لا توجد أماكن .

ثم بعد ذلك أُقْتِدَ إلى البوابة الرئيسية، وأدخل إلى قلم الكتّاب في حجرة صغيرة، مقسمة إلى جزأين بحاجز من الزجاج . وعندما كان كاتب المحكمة يكتب اسمه في سجلات الأمر بالحبس، شاهد «بروتو» من خلال الزجاج رجلين مُستلقَيْن على فراشَيْن حقيرين، لا يتحركان، كأنهما أموات، لا ترى أعينهما المحدقة شيئاً كما يبدو، وتتناثر حولهما أطباق وزجاجات، وبقايا خبز ولحم تغطي الأرض حولهما. فَهُمَا من المحكوم عليهم بالإعدام، وينتظران العربة التي تنقلهما إلى المقاصة.

واقْتِدَ «بروتو» بعد ذلك إلى زنزانة، حيث رَأَى - على ضوء شمعة - شخصين مُضطَجعين ، أحدهما شرّس ومجدوعٌ ومُخيف، والآخر رقيق

وحلوا هذان السجينان قَدَّمَا له بعض القش العَفِن المملوء بالهوام الضارة، حتى لا ينام على الأرض الملوثة بالغائط .

ارتضى «بروتو» على أحد المقاعد في الظلمة الآسِنَة، وظل برأسه مستنداً على الحائط صامتاً جامداً. كان يتألم إلى درجة أنه لو استطاع أن يُحطِّم رأسه في الحائط لفعل ، ولكنه مُنْهَار، فهو لا يستطيع التنفس . عيناه محتجبتان، وترامى إلى أذنه صوت ضوضاء بعيدة، هادئة مثل الصمت، شعر وكأن كل كيانه يسبح في عَدَمٍ لذيق . وطوال لحظة لا تُضَاهِي ، كل شيء كان له بمثابة انسجام، وضوء مُشرق، وعطر، وهدوء ، ثم غاب عن الوجود .

وعندما استرد وعيه، أول فكرة طرأت عليه ههـى أنه أُسِفَ على الإغماءة التي أصابته، وفيلسوف حتى في غيبوبة اليأس ، فكر في أنه كان لابد له أن ينزل في أعماق غيابة السجن، منتظراً المقصلة، ومن أجل أن يجرب أقوى إحساس بالرغبة، والذي لم تتذوقه حواسه من قبل

وحاول مرة أخرى أن يفقد شعوره، ولكنه لم ينجح في ذلك، وشيئاً فشيئاً - على العكس - كان يشم الهواء النتن في الزنزانة، يُحمل إلى رئتيه، مع حرارة الحياة، والوعى بشقائه اللامحتمل.

عند ذلك، اعتقد زميلاه في الزنزانة أن صمته فيه إهانة شديدة لهما، ولما كان «بروتو» اجتماعياً بطبعه، حاول أن يُرضى فضولهما، ولكنهما عندما عَلِمَا أنه من هؤلاء الذي يُسَمُّون «سياسيين»، والذين جريمتهم ما هي إلا كلام أو فكرة، لم يُظهروا له أى احترام أو تعاطف . الأعمال

المنسوبة إلى هذين السجينين كانت أكثر صرامة : الأكثر تقدماً في السن كان قاتلاً، والآخر زوّر حوالات حكومية. وقد تَوَافَمَ الاثنان مع حالتيهما، ووجدوا فيها بعض القناعة. وفجأة استسلم «بروتو» إلى خياله وفكره بأن هناك فوق رأسه كل شيء في حركة، ضوضاء، وضوء، وحياة، وأن البائعات الجمالات في «البالية» يبتسمن من خلف ما يعرضه من عطور، وخردوات للمارة السعداء الأحرار، وهذه الفكرة قد جعلت يأسسه يتفاقم .

وعندما جنَّ الليل لم يكن مرئياً في ظلمة وصمتِ الزنزانة، ولكن مع ذلك كان ثقيلاً وخانقاً وكثيباً. غَفَا «بروتو» وهو يضع إحدى ساقيه على المقعد، ومستنداً بظهره إلى الحائط. كان يرى نفسه جالساً تحت شجرة بلوط كثيفة، حيث تغرد الطيور، والشمس الغاربة تغشى النهر بلهيب سائل، وأطراف السحب يكسوها اللون الأحمر القاني. انقضى الليل، وافترسته حُمى حارقة، وكان يشرب بنهم من ماء جَرَّتْه مما زاد من حالته سوءاً .

وفي اليوم التالي أتى السجنان، الذي يُحضر الحساء، ووعدَ «بروتو» بأن ينقله إلى البيستول (وهو قسم خاص في السجن لمن يدفع مقابل) بواسطة المال، بمجرد أن يشغل مكان، وذلك لن يتأخر أبداً .

وفي اليوم التالي، دعا المُعالج العجوز ليخرج من زنزانته. وكان «بروتو» في كل درجة صعبها شعر بأن القوة تعود إلى جسده وتذب فيه الحياة. وعندما وصل إلى البلاطة الحمراء لإحدى الغرف رأى سريرًا منصوبًا، سريرَ ميدانٍ عليه غطاء حقير من الصوف، فبكى من الفرح .

السريير المذهب حيث يتناقر اليمام، والذي كان قد أوصى بصناعاته فيما مضى من أجل أجمل راقصة بالأوبرا، لم يكن يبدو له أنسب أو مَحَطَّ أملٍ لمثل هذه البهجة.

فراش الميدان هذا كان في صالة كبيرة، متوسطة النظافة، وتحتوى على سبعة عشر فراشاً آخر، يفصلها عن بعضها ألواح خشبية عالية. والصحبة التى تقيم فيها تتكون من النبلاء السابقين، والتجار، ورجال بنوك، وحرفيين، فلم يَضِقُ الشيخ بهم ذُرْعاً، لأنه كان يتكيف مع أى فئة من الفئات فيما مضى .

لاحظ أن هؤلاء الرجال المحرومين مثله من أى مسرات والمعرّضين لهلاك على يد الجلاء، يُبْدُونَ بعضَ البهجة، وذوقاً حاداً للفكاهة. لم يكن لديه استعداد كبير ليعجب الرجال، فقد أرجع اعتدال مزاجهم إلى خفة عُقولهم، التى تحوّل بينهم وبين التفكير بعمق فى حالتهم. وتيقن من هذه الفكرة عندما لَاحَظَ أن أكثرهم ذكاء كانوا يشعرون بحزن عميق . ورأى فيما بعد - بالنسبة إلى الأغلبية - أنهم يجدون فى معاقرة النبيذ والعرقى بهجة، تُخْفى فى مصدرها العنف، وأحياناً الجنون.

الجميع ليس لديهم شجاعة، ولكن الجميع كانوا يُبدونها. «بروتو» لم يندesh، فهو يعلم أن البشر يعترفون عن طيب خاطر بالقسوة والغضب، والبخل، ولكنهم لا يعترفون أبداً بالجبن، لأن هذا الاعتراف يُعرّضهم - فى نظر البدائيين، وفى المجتمع الراقى - لخطرٍ قاتل، لذلك فهو يرى أن

جميع الشعوب شعوبَ أبطالٍ، وجميع الجيوش لا تتكون إلا من البواسل.

وكان صليل السلاح وصرير المزاليج، ونداء الدوريات، ودَبْدَبَةِ المواطنين عند باب المحكمة، يُثْمِلُ المساجين أكثر من الخمرة وإن كان يُوحى اليهم بالكآبة، والهديان، والهلح.

كان منهم من يذبح نفسه بشفرة، أو يُلقَى بنفسه من النافذة .

أقام «بروتو» في البيسول لمدة ثلاثة أيام، عندما أخبره حامل المفاتيح أن الأب «لونجيمار» يثابر على بقائه على القش الآسن، في الهوام الضارة، مع اللصوص والقتلة. فطلب نقله إلى «البيستول» في الغرفة التي يقيم فيها، حيث خَلاَ فيها سرير. ولما تعهد بأن يدفع من أجل الراهب. ولما لم يكن لرجل الأعمال السابق ثروة كبيرة، فقد تقنن في أن يرسم صوراً مقابل مبلغ من المال لكل صورة .

وعن طريق أحد السجّانين حصل على كادرات سوداء ليضع فيها الأشغال الدقيقة التي نَفَّذَهَا بمهارة. وهذه الأعمال كان عليها إقبال كبير في جَمْع من الرجال يفكرون في أن يتركوا تذكارات .

الأب «لونجيمار» كان يتمسك بشدة بقلبه وروحه، انتظاراً منه أن يُستدعى أمام المحكمة الثورية، كان يُحَضِّرُ دفاعه. ولا يفصل قضيته عن قضية الكنيسة، وقد عزم على أن يستعرض على القضاة الفوضى والفضائح التي تسبب فيها دستور «الأكليروس» المدنى حول كنيسة

يسوع المسيح، وقد عقد النية على أن يُصوّر الابنة الكبرى للكنيسة^(١) تُعلن حرباً مُدُنسة على البابا، و «الأكليروس» الفرنسى مسلوباً ومغصوباً ومكرهاً، يخضع بطريقة شنعاء لبعض العلمانيين، والرهبان - الذين هم الجنود الحقيقيون للمسيح - وقد نُهبوا واغتُصِبوا وتُشتتوا. وأن يذكر القديس «جريجوار»، و القديس «إيرينييه» العظيم، وأن يبرز مواد كثيرة من القانون الكنسى، وفقراتٍ كاملة من الفتاوى البابوية .

وظل جاثياً على ركبتيه طوال النهار عند طرف فراشه، يغمر أسنان الرّيش فى الحبر حتى آخرها، وفى سواد الدخان، وفى ثُقُل القهوة، ويُعطى بكتّابية غير مقرّوة مناديل ورق، وورق تغليف، وورق جرائد، وأغلفة الكتب، وخطابات قديمة، وفواتير قديمة، وورق اللعب، وفكر فى أن يستخدم قميصه بعد أن يغسله بالنشا.

ثم رص الورق بعضه فوق بعض، مشيراً إلى الطرطشة التى يصعب حل رموزها، قال :

- عندما أَمُتِل أمام القضاة، سوف أُعَدِّق عليهم بالمعرفة .

وذاذ يوم، بعد أن ألقى نظرة رَضاً على دفاعه الذى يتزايد بلا انقطاع، ظل يُفكر فى هدوء القضاة الذين يتمنى أن يفهمهم، فأخذ يصيح :

- لا أريد أن أكون فى مكانهم !

المساجين الذين جمعهم المصير فى هذه الزنزانة كانوا إمّا ملكيين أو

(١) يعنى بالابنة الكبرى فرنسا

فيدراليين، ووجدوا فيها يعقوبياً واحداً، وكانوا يختلفون فيما بينهم في الرأي في طريقة إدارة شئون الدولة، ولكن لم يوجد بينهم أى واحد يحتفظ بأقل ما يمكن من المعتقدات المسيحية .

كان الرهبان، والدستوريون، والجيروندان يجدون - مثل «بروتو» - أن الرب الطيب بالنسبة لهم ليس في صَفِّهم، وعظيم بالنسبة للشعب . والباقوييون كانوا قد أقاموا - بدلاً من «جيوفاح» (وهو موضوع قصة ثورة الملايكة) - إلهاً يعقوبياً، لإنزال البعقوبية من الأعلى إلى الدنيا، ولكن بما أن هؤلاء وأولئك لم يستطيعوا أن يتصوروا إمكان انحراف المرء عن الصواب في اعتقاده بأى دين ظاهر، وبما أن الأب «لونجيمار» كان لا ينقصه الفكر، فقد عدَّوه منافقاً .

ولأنه أراد أن يستعد لأن يكون شهيداً، فقد أظهر عقيدته في كل لقاء، وكلما أبدى إخلاصاً بداً لهم أنه مخادع .

وبلا جدوى كان «بروتو» يعتبر نفسه ضامناً لحسن نية الراهب. حتى «بروتو» نفسه أصبح لا يصدق إلا جزءاً مما كان يقول. كانت أفكاره غريبة، حتى لتبدو أنها مُتَصَنَّعة، ولا يقتنع بها أى شخص كلية . كان يتحدث عن «جان جاك» كنذلٍ تافه. وعلى العكس، وضع «فولتير» في مصاف الرجال المؤلَّهين، ومع ذلك لم يضعه في مصاف المحبوب «هيفيتيوس»، و «ديديرو»، و «البارون دولباك». وفي رأيه أن أعظم عبقرية في القرن كان «بولانجيه». وكان يحترم أيضاً رجل الفلك «لالاند»، و «ديبوى» مؤلف «مذكرة عن أصل النجوم».

وكان رجال الفكر في الغرفة يوجهون إلى الراهب البارنايتي المسكين آلاف السخریات الخفيفة، لم يفتن إليها مطلقاً، كانت نواييه السليمة تُحِبُّ أشراكهم.

ومن أجل أن يُبعد المساجين عن أنفسهم الهموم التي تُثقل كاهلهم، ولكي يهربوا من هموم وقت الفراغ، كانوا يلعبون لعبة الضامة، أو الورق، أو النرد، ولم يكن مسموحاً لهم بأى آلة موسيقية. وبعد العشاء كانوا يُغنون، ويُنشدون بعض الأشعار، وكانت قصة فولتير «العذراء جان دارك» تُضفى على قلوب هؤلاء البؤساء بعض البهجة، والذين لم يَمَلُّوا من إعادة الاستماع إلى المواقف الجيدة منها.

ولكن لم يكن في وسعهم أن يتخلصوا من الفكرة المخيفة التي غُرست في أعماق قلوبهم، كانوا يُحاولون أحياناً أن يجعلوا منها تسلية، وفي الغرفة ذات الثمانية عشر فراشاً - قبل أن يستسلموا للنوم - كانوا يلعبون دور المحكمة الثورية. وكانت الأدوار مُوزَّعة حسب الميول والقدرات. فيُشخَّص بعضهم المدَّعين والقضاة، ويُشخص بعض آخر المتهمين والشهود، وآخرون يُمثلون الجلاد ومساعديه. كانت القضايا تنتهى على نسق واحد، بإعدام المتهمين، بأن يتمدد المتهم على أحد الأسيرة ورقبته تحت لوح خشب. ثم بعد ذلك ينتقل المشهد إلى مقر أرواح الأموات، والذين يتحركون بخفة ورشاقة من الفرقة، ويلتفون بملايات، ويمثلون الأشباح.

ويبدو محام شاب من «بورديو» يُسمى ديبوسك، صغيراً، أَسْمَرَ، أَعْوَرَ، أَحْدَب، أَعْرَج، يمثل الشيطان المُتَهافت شخصياً، جاء مُقَرَّناً،

يسحب الأب «لونجيمار» من قدميه بعيداً عن سريريه، مُعلنًا إيَّاه أنه محكومٌ عليه بالنار الأبدية، وهالكٌ دون هواده، لأنه جعل من خالق الكون إنسانًا حسودًا، أحمقٌ، خبيثًا، عدوًّا للسرور والحب.

صاح هذا الشيطان صياحا رهيبا :

— ها ! ها ! ها ! أنتِ عَلِمْتَ أيها البوذى العجوز أن الله يحب أن يرى مخلوقاته تذوب في التوبة والندم، وأن يزهّدوا في أعظم هباته. مُحْتال، مُنافق، كافر، فلتجلّس على المسامير، ولتأكل قشر البيض إلى الأبد !

اكتفى الأب «لونجيمار» بأن يُجيب على ذلك بأنه في هذا الحديث تَفَوَّقَ الفيلسوف على الشيطان، وأن أصغر شيطان في الجحيم لا ينطق بمثل هذه الحماقات. ولما كان اللاهوت قد صقله قليلا فبكل تأكيد يُعَدُّ أقلَّ جهلاً من عالم الموسوعات.

ولكن عندما سماه المحامى الجيروندينى «كابوشين»، استشاط غضبًا، وقال : إن رجلاً غير جدير بأن يميز أحد البرنابيين، عن أحد الفرنسيّسكان، لا يستطيع أن يرى ذبابة في اللبن.

أخلت محكمة الثورة السجون، التى ملأتها اللجان دون حدود في مدة ثلاث أشهر. غرفة الثمانية عشر تجددَ نصفُها. والأب «لونجيمار» فقد شيطانه الصغير، وذلك أن المحامى «دييوسك» مثَّل أمام المحكمة الثورية وحُكِمَ عليه بالإعدام كفيدرالى، ولأنه تأمر ضد وحدة الجمهورية، وعند خروجه من المحكمة مرَّ — مثل جميع المحكوم عليهم الآخرين — في ممرٍّ يعبر السجن، ويطل على الغرفة التى ملأها حيوية وبهجة، وكان وهو

يودع أصدقائه يحتفظ باللهجة المرحّة، والمظهر الفرح الذي تعود عليه،
وقال للأب «لونجيمار»

– عفوا يا سيدى ، سامحنى على أنى جذبتك من قدميك من على
سريرك، فلن أعود لمثل ذلك ثانية

ثم استدار إلى «بروتو» العجوز وقال له:

– الوداع ، سوف أسبقك إلى العدم. سوف أتبرع للطبيعة بعناصرى
التي أتكوّن منها، آملاً أن تستخدمها استخداماً طيباً فى المستقبل، لأنه
يجب الاعتراف بأنها لم تكلّ بالنجاح معى .

ثم نزل إلى قلم المحكمة، تاركاً «بروتو» محزوناً ، والأب «لونجيمار»
يرتعد، وصار أخضّر اللون مثل ورق الشجر، أقرب إلى الموت منه إلى
الحياة حين رأى الزنديق يضحك وهو على شفا الهاوية (أى الهلاك).

وعندما هلّ شهر جيرمينال (يوليو) بأيامه المشرقة صار «بروتو» –
الذى كان شهوانياً – ينزل عدة مرات فى اليوم إلى الفناء الذى يؤدى إلى
القسم الخاص بالسيدات، بالقرب من النافورة، حيث تأتى السجينات فى
الصباح ليغسلن ملابسهن. وكان هناك حاجز يفصل بين القسمين، ولكن
الحواجز لم تكن مُحْكَمة حتى تمنع الأيدى من أن تتلاقى ، أو تمنع
الشفاة من أن تتلاثم .

وفى هزيع الليل الهادىء يهرع فيه كل اثنين معاً. حينئذ، وفى الخفاء،
يحتمى «بروتو» بالسلم، ويجلس على إحدى الدّرجات، ويُخرج من جيب

«الريدينجوت» كتاب «لوكريس»، ويقرأ على ضوء شمعة بعض الحكيم المفرجة للكرب، ومن ذلك : «عندما تتوقف حياتنا، لا يستطيع أى شىء أن يؤثر فينا، حتى السماء والأرض والبحار عند اختلاط بقاياها...». ومع أنه كان يتمتع بحكمته القوية، فقد كان «بروتو» يحسد الراهب البارنابيتى على هذا الحمق الذى كان يحجب عنه الكون .

كان الإرهاب - من شهر إلى شهر - يتفاقم، وفى كل ليلة كان السجانون - وهم سكارى، ومعهم كلاب الحراسة يتنقلون من زنزانة إلى أخرى، يحملون قرارات الاتهام، ويصيحون على أسماء لفقوها، يُوقظون السجناء بصوتٍ مفرع، ومن أجل عشرين ضحية مذكورة أسماؤهم يُروغون مائتين.

فى هذه الممرات المملوءة بالظلمات الدامية، كان يمر فى كل يوم - دون أى شكوى - عشرون، أو ثلاثون، أو خمسون مُداناً من الشيوخ والنساء، والشُبَّان، وحالات متنوعة الطُّباع والشعور، حتى أن المرء كان يتساءل عمّا إذا كان اختيارهم لم يتم حسب القرعة.

وكان هناك من يلعب الورق، ويشرب نبيذ بورجونيون، ومن يخططون، ومن لهم لقاءات غرامية فى المساء عند الحاجز .

المجتمع تجدد كله تقريباً، والآن يتكون جزء كبير منه من «المتطرفين» ومن «الساخطين»، ومع ذلك فإن غرفة الثمانية عشر فراشاً لا تزال باقية، لإقامة الأناقة واللباقة، فيما عدا اثنين معتقلين وُضِعَا فيها حديثاً، نُقلوا من «لوكسيمبورج» إلى البوابة الرئيسية، ومشكوك فى أنهما من

«الخِرَاف» أى : من الجواسيس، وهما المواطنان «نافيت» و «بيليه»، لم يكن يوجد سوى أناس أشراف بينهم ثقة متبادلة.

وكان يُحتفل فيها بانتصارات الجمهورية، وكأس الشراب فى الأيدي، ويتلاقى فيها كثير من الشعراء ، كما يتلاقى فيها فى كل اجتماع رجال لا عملَ لهم. وأكثرهم مهارة، همالذين يؤلفون قصائد غنائية عن انتصارات جيش الران، وينشدونها بتفخيم، وكانوا يُصفقون بجِدَّة لها، و «بروتو» فقط كان يمدح بفتور كُلاً من المنتصرين وشعرائهم .

قال ذات يوم : ذلك - منذ هوميروس - هُوسٌ غريبٌ من الشعراء أن يحتفلوا بالعسكريين. الحرب لم تكن قط فَنًّا، والمصادفة وحدها هى التى تقرر مصير المعارك. فلايد من انتصار أحد القائدين الاحمقين المتقابلين. وانتظروا إلى يوم من الأيام ، فإن أحد هؤلاء الذين يحملون السيوف والذى تُعظمونه ، فإنه سيبتلعكم جميعًا كما يبتلع طائر الكركى الضفادع كما تذكر الحكاية. وحيئنذ سيكون بحق إلها ! لأن الآلهة تتعرف على بعضها عند الاشتهاء.

لم يتأثر «بروتو» مطلقًا بمجد الجيوش ، ولم يبتهج قط بانتصارات الجمهورية، والتى كان قد تكهن بها ، ولم يُحب النظام الجديد الذى يؤيده النصر. لم يكن مسرورًا ، وعلى الأقل كان شعوره بذلك يسود .

وذات صباح أُعلن أن مفتشى لجنة الأمن العام سيقومون بتفتيش دقيق عند المتهمين، وقد يعثرون على حوالات حكومية، وأشياء ذهبية وفضية، سكاكين مقصات، مثلما جرت تفتيشات فى «لوكسيمبورج»

وأنه عُنِزَ على خطابات وأواق وكتب. حينئذ حَاوَلَ كل فرد في أن يجد مخبأً ليضع فيه أثمن ما عنده. وَدَسَّ الأب «لونجيمار» مرافعته في أحد المزاريب. وخبأ «بروتو» كتابه «لوكريس» في رماد المدفأة.

وعندما جاء المفتشون - يُعلقون شرائطهم ثلاثية الألوان حول رقبتهم - ليقوموا بعملية التفتيش، لم يعثروا على شيء يستحق أن يأخذوه. وبعد رحيلهم جَرَى الأب «لونجيمار» إلى المزارب واسترد ما لم تبلمه المياه أو الريح من مرافعته. وأخرج «بروتو» من الرماد كتابه عن «لوكريس»، وقد صار أسود اللون بسبب سواد الدخان.

وقال: «فلنتمتع بساعتنا التي نعيشها، وذلك لأنى أتطير ببعض الدلالات على أن الوقت من الآن فصاعدًا محسوبًا علينا بدقة شديدة».

وفي إحدى الأمسيات الجميلة من المَرْغَوَى (صفة الشهر التاسع من تقويم الجمهورية، من ٢٠ مايو إلى ١٨ يونيو) بينما هَلَّ الهلال في السماء شاحبًا عند طرفيه الفضيّين، ورجل الأعمال العجوز من عادته قراءة «لوكريس» على إحدى درجات السلم الحجري، إذ سمع صوتًا يناديه، صوتَ امرأة، صوتًا لطيفًا لا يعرف صاحبتَه، فنزل إلى الفناء، ورأى خلف الحاجز شكلاً لا يعرفه ولا يعرف صوته، وكان يُدْكَرُه بكل النساء اللائى أحبهن. وَأَضْفَتَ عليه السماء اللون اللازوردى والفضى. وفجأة تعرف «بروتو» على الممثلة الكوميديّة الجميلة من شارع «فايدو»، «روز ثيفينان».

– أنتِ هنا يا صغيرتى ! إنَّ فرحتى برؤيتك هنا قاسية بالنسبة لك .
منذ متى، ولماذا أنتِ هنا ؟

● منذ أمس . وأضافت هامسة .

أَبْلَغُوا عني على أننى مَلَكِيَّة، واتهمونى بأننى تأمرت لتخليص الملكة،
وبمجرد أن علمتُ بوجودك هنا بدأت فى الحال أبحث عنك . فاسمعنى
يا صديقى.... وذلك لأنك تريد حقاً أن أناذك بهذا الاسم.. إننى أعرف
شخصيات لها مكانتها، ولدىّ – كما أعرف – تأثيرات حتى على لجنة
الخلاص الشعبى. سوف أطلب تحرك أصدقائى ، وسوف يُخلصوننى ،
وأنا بدورى سوف أُخلصك .

ولكن «بوتو» بصوت متأثر قال :

– استحلفك بكل عزيز لديك يا صغيرتى لا تفعل شيئاً ! لا تكتبى ،
ولا تلتمسى من أحد ، ولا تطلبى أىَّ شىء من أى إنسان، أتوسل إليك أن
تتنسى ذلك .

ولما كان يبدو عليها أنها لم تستوعب ما قاله، فقال مستطرداً، وهو
يتوسل أكثر .

– التزمى بالصمت يا «روز»، وتَنَاسَى وهنا الخلاص . وكل ما سوف
يفعله أصدقائك لن يكون إلا سبباً فى تعجيل موتك. تَرَيْتِى، فقد لا يمضى
وقت قصير حتى يتم إنقاذك كما أتمنى.. . لا تثيرى القضاة وهيئة
المحلفين ومن يُسمى «جاميلان»، فهؤلاء ليسوا بشراً ، بل أشياء ، والمرء

لا يتفاهم مع الأشياء. تَنَاسَى . إذا اتبعتِ نصيحتى يا صديقتى فسأَموت
سعيداً بإنقاذ حياتكِ أجابت :

- سأطيعك ... ولا تتحدث عن الموت .

فهز كتفيه وقال

- لقد انتهت حياتى يا صغيرتى . فعيشى أنتِ وكونى سعيدة .

فتناولت يديه ووضعتهما على صدرها وقالت :

- اسمع يا صديقى أنا لم أَرَكَ سوى يومٍ واحدٍ، ومع ذلك فأنت
لست غريباً بالنسبة لى . وإذا كان ما سأقوله لك سوف يربطك مرة
أخرى بالحياة، فَصَدِّقْهُ . « سأكون لك.... كل ما تريده منى سأنفذه» .

وتبادلا قبلة بثغريهما من خلال الحاجز .

* * *

بينما كان «إيفاريست جاميلان» فى أثناء جلسة طويلة فى المحكمة
جالساً على مقعده، فى جو حار، أغلق عينيه وأخذ يفكر :

«الأوغاد أجبروا «مارات» على أن يختبئ فى الجصور، جعلوا منه
طائرًا من طيور الليل، طائر «مينيرفا» الذى تخترق عينيه المتأمرين فى
دياجير الظلام حيث يختفون .

والآن، إنها نظرة زرقاء فاترة هادئة، تخترق أعداء الدولة، وتُبلِّغ عن
الخونة بدقة خفية، حتى على صديق الشعب، النائب إلى الأبد فى حديقة

الكورديلية. المُنْقَذُ الجديد في حماس المنقذ الأول، وأحدٌ منه ذهناً، ورأى ما لم يره أحد من قبل، وأصبعه المرفوع ينشر الرعب.

فهو يُميّز الفروق الدقيقة التي لا تُدرَك بالحواس، والتي تفصل بين الخير والشر، وبين الرذيلة والفضيلة، ولولاه لا ختلط الصالح بالطالح في الوطن والحرية. ويرسم أمامه الخط الدقيق والعنيد، والذي لا يوجد على جانبه سوى الخطأ والجريمة والإثم. ويَعْلَمُ هذا النزيه كيف نستخدم الغريب بالمبالغة وبالضعف، وباضطهاد الديانات باسم العقل، ومقاومة قوانين الجمهورية باسم الدين. وليس أقلّ من الآثمين الذين أهلكوا «لوبيليتيه» و «مارات»، وهؤلاء الذين كافئوهم بأمجاد مقدسة من أجل تشويه ذكراهم، خدمة للغريب.

الjasوس - أيّ كان - يرفض أفكار التنظيم، والحكمة، والانتهازية .
الjasوس - كائنًا من كان - يُحَقِّرُ العادات ، ويُهين الفضيلة ، وفي فساد قلبه يُنكر الله. الكهنة المتعصبون يستحقون الموت، ولكن توجد طريقة مضادة للثورة لمحاربة التعصب، وتوجد ارتكاسات إجرامية، فبالعنف يُقَضَى على الجمهورية كما يُقَضَى عليها بالاعتدال .

« أوه ! يا لها من واجبات رهيبية على القاضي، أملاها أكثر الرجال حكمة ! ليس فقط الأرستقراطيون والفيديراليون والخُبّاء في حلف أورليانز هم أعداء الوطن المُعلن عنهم، والذين يجب ضربهم ، فالمتآمر، أو الجاسوس، هو ضفدع مبرقش يتلون بأشكال مختلفة، يظهر بمظهر الوطني أو الثورى، أو كعدو للملوك، ويتصنع مهارة قلب لا يخفق إلا من

أجل الحرية، يُضخّم صوته ليرعب أعداء الجمهورية : هذا «دانتون»، قسوته تسيء إلى إخفاء اعتداليته المخيفة، ويظهر فسادَه أخيراً .

المتآمر، أو الجاسوس، هو ذلك المتلجلج البليغ الذى يضع على قبعته أول شارة وطنية للثوريين، هو ذلك الهجاء الذى يهجو، والذى فى وطنيته الساحرة والقاسية يُسمّى نفسه «نائب المشنقة»، هذا هو «كامى ديمولان»^(١)، وهذا هو النذل «لاكروا»^(٢) المتآمر، الجاسوس، وهذا هو الأب «ويشينز»^(٣) يحط من قيمة الحرية بغوغائيتها الحقيرة، والتي منها الوشايات البذيئة جعلت «أنطوانيت» نفسها لها أهميتها .

وهذا هو «شوميت»^(٤)، والذى - رغماً عن ذلك - نراه مناسباً وشعبياً ومتعدلاً، ورجلاً طيباً، وفاضلاً فى إدارة مجلس العموم، ولكنه كان ملحدًا !

المتآمرون، والجواسيس، هم جميعهم هؤلاء السلامتسولون الذين يرددون على رءوسهم البونيه الأحمر، وكارمننيولا، وقباقيب، والذين يزايدون بالوطنية على اليعقوبيين بجنون.

هذا «أنارسييس كلوتس» (١٧٥٥ - ١٧٩٤) ويُسمى خطيب النوع البشرى، ألمانى ثرى، مواطن عالمى، فى عام ١٧٩٢ كان يُحرّض على الحرب والإرهاب فى عهد الجمعية الوطنية، حُكِم عليه بالإعدام من قِبَلِ

(١) من أعضاء مجلس العهد

(٢) رئيس مجلس العهد .

(٣) من رجال السياسة الفرنسيين

(٤) وكيل النيابة لدى الهيئة الثورية.

جميع مَلَكِيَّات العالم، ولكن كان لابد من خشيتِه لأنه كان بروسياً،
وانتهى إلى المقصلة بتهمة الإلحاد والخيانة (٢٤ مارس ١٧٩٤)

« والآن، عُنْفٌ ومُعْتَدِلون، كل هؤلاء الأشرار، جميع هؤلاء الخونة،
دانتون، ديمولان، هيبير، شوميت، هلكوا بالمقصلة .

أُنْقِذَت الجمهورية، وتساعدت من جميع اللجان جوقة مديح، ومن
جميع الجمعيات الشعبية نحو «ماكسميليان» و «مونتاني». المواطنون
الصالحون يصيحون : «ممثلون أفاضل لشعب حر، وأنه كان بلا جدوى
أَنَّ أبناء التيتان رفعوا رءوسهم شامخون، (مونتاني) فاعلة خير،
(سيناء) حامية، ومن نهدك الذى يغلى خرجت صاعقة الخلاص...». وفي
هذه الجوقة كان للمحكمة نصيبها من المدايح .

كم هو جميل أن يكون المرء فاضلاً، وكم أن العرفان الشعبى غالٍ
وعزيز، فى قلب قاضٍ نزيه !

« لذلك، من أجل قلب وطنى، يا له من موضوع يثير الدهشة، ويا لها
من قضايا قلق ! ماذا ؟! من أجل القضية الشعبية ؟ إذن لم يكن ذلك كافياً
من «ميرابو»، و «لافاييت»، و «بايى»، و «بيتيون»، و «بريسو» ؟ وكان
لابد أن يكون فيها هؤلاء الذين بَلَّغُوا عن هؤلاء الخونة وَوَشَّوْا بهم .

ماذا ؟! جميع الرجال الذين صنعوا الثورة، لم يصنعوها إلا لكى
يخسروها. ماذا ؟! هؤلاء الصانعون لأيام عظيمة، كانوا يجهزون مع
«بيت» و «كوبروج» ملكية أورليانز، أو وصاية لويس السابع عشر .

ماذا؟! «دانتون»، وهذا كان «مونك»! ماذا؟! «شوميت» و«الهويرتيون» أكثر ندالة من الفيدراليين الذين دفعوا بهم تحت المقصلة، لقد تأمروا على تدمير الإمبراطورية!

ولكن من بين هؤلاء الذين أسرعوا إلى الموت الغادرين. «دانتون» و«شوميت».. ألن تكتشف عين «روبسير» الزرقاء غداً غادرين آخرين؟ أين سيتوقف التسلسل الممقوت للخونة، والبصيرة النافذة للنزيه؟.....



كانت «جولى جاميلان» مرتدية «الريدينجوت» الأخضر اللون مثل لون القوارير. كانت تذهب يومياً إلى «لوكسيمبورج» وهناك - على أحد المقاعد، فى آخر أحد الممرات - تنتظر لحظة ظهور حبيبها فى إحدى نوافذ القصر الصغيرة.

كانا يتبادلان الإشارات والأفكار فى لغة صامتة تخيلاًها. وكانت تعرف بهذه الوسيلة أن السجين يشغل غرفة لا بأس بها، وينعم بصحبة مناسبة، ويحتاج إلى غطاء وغلاية صغيرة، وأنه يحب عشيقته بحنان.

لم تكن هى الوحيدة التى تنتظر رؤية وجه محبوب فى هذا القصر الذى تحوّل إلى سجن، فقد كان يوجد أمّ صغيرة بجانبها، لا تحوّل نظرها عن نافذة مغلقة، وبمجرد أن شاهدت النافذة تفتح، رفعت طفلها الصغير إلى أعلى بين ذراعيها على رأسها.

وسيدة عجوز مُحجبة بالدانتيل، جلست وقتاً طويلاً وهى ساكنة على

أحد المقاعد التي تَطْوِي . عبثًا تأمل في أن ترى ابنها ولو للحظة، والذي كان يلعب في فناء السجن حتى حان وقت إغلاق الحديقة .

وطوال فترة هذه الانتظارات الطويلة تحت سماء مُلبّدة أو صافية، كان يُرَى رجلٌ ناضج، ضخم قليلًا، نظيف جدًّا، يجلس على مقعد مجاور، ويتسلى بعلبة السعوط الخاصة به وبسلسلة بها حلّية ، ويطوى صحيفة لم يقرأها .

كان يرتدى ملابس حسب الموضة البورجوازية القديمة، يرتدى على رأسه قبعة مثلثة القرون بشريط ذهبي ، وثوبًا بنفسيًا، وصديريًا أزرق، مشغولًا بخيوط فضية. يبدو عليه مظهر النُبْل ، كان موسيقيًا ، ويُبرز ذلك طرف «الفلاوت» الذي يظهر من جيبيه .

كان يتابع الصبي الصغير بنظراته، ولم يحول عنه عينيه ، ولم ينقطع عن الابتسام له، وعندما يراه ينهض، ينهض هو أيضًا ويتابعه من بعيد.

تأثرت «جولي» في بؤسها ووحدتها بالعاطفة الخفية التي يبديها هذا الرجل الطيب . وذات يوم، عندما كانت خارجة من الحديقة، بدأ المطر يتساقط فاقترب الرجل الطيب منها، وفتح مظلته الحمراء الواقية من المطر، وطلب منها الموافقة على أن تحتوى تحتها. وأجابته بلطف - بصوتها المشرق - بأنها توافق على ذلك. ولكن مع رنة هذا الصوت نبهته رائحة لطيفة لامرأة، فابتعد فجأة، وعرّض السيدة الصغيرة للمطر المنهمر، وقد أدركت الفتاة مغزى ذلك بالرغم من همومها، ولم تستطع أن تمنع نفسها من الابتسام.

كانت «جولى» تقيم فى غرفة تحت سقيفة فى شارع «شيرش -ميدى»، واقتنعت المواطنة الأرملة «جاميلان» أخيراً بأن ابنتها فى جوارها، ولا تتعرض إلى خطر كبير، أبعدتها عن ميدان «ثيونفيل» وعن قطاع «لوبونت - نوف»، وتولت إعاشتها وكسوتها بقدر استطاعتها.

كنت «جولى» تقسوم ببعض أعمال المنزل، وكانت تذهب إلى «لوكسيمبورج» لترى عشيقها العزيز ثم تعود إلى كوخها القذر، هذه الرتبة فى حياتها تُهْذِئُ أحزانها، ولما كانت شابة وقوية فلإنها كانت تنام طوال الليل نومًا عميقًا .

ولما كانت حادة الطبع، وتعودت على المغامرات - وربما يدفعها إلى ذلك ملابسها التى ترتديها - فكانت تذهب أحيانًا فى الليل إلى بائع عصير الليمون فى شارع «فور»، بلافتة تحمل اسم «لاكروا روج»، والذى يرتاده أناس من جميع المسويات، ونساء أنيقات .

كانت تقرأ هناك صحف الجازيت، وتلعب النرد مع بعض صبيان الدكاكين أو مع جندى يدخن غليونته تحت أنفه. وهناك كانوا يشربون ويلعبون، ويقضون وقتًا فى الغرام، وكذلك كانت المشاجرات لها نصيب .

وذات مساء، عندما سمع أحد السكارى وَقَعَ حوافر أحد الخيول على بلاط الطريق عند مفترق الطرق، رفع الستارة، فتعرف على قائد الحرس الوطنى، المواطن «هانريوت» كان مارًا ممتطيًا جواده، يعدو مع أركان حربيه، فتمتم السكير من بين أسنانه مغتاضًا :

- ها هى ذى أتان ■ روبسبير !

وعندما سمعت «جولى» هذه الكلمة انفجرت ضاحكة. ولكن أحد المواطنين طويل الشاربين أثاره الكلام بشدة قائلاً :

- إن من يتحدث هكذا ما هو إلا أرسقراطى مجب.....، وأكون سعيداً لو رأيته يعطس فى عربة السجن إلى «سامسون». أتعرفون أن الجنرال «هانريوت» مواطن طيب، سيدافع عند الضرورة عن الجمعية الوطنية وعن باريس. وهذا ما لن يغفره الملكيون أبداً .

ثم استدار الوطنى ذو الشارب الطويل إلى «جولى» وتفحّس فى وجهها، وكانت لا تزال تضحك .

- صه، أيها الغلام الغرّ، احترس وإلا ركلتك بقدمى فى مؤخرتك، لأعلمك كيف تحترم الوطنيين .

عندئذ ارتفعت أصوات كثرة :

- « هانريوت » أبّله وسخيف !

- « هانريوت » يعقوبى طيب ! يعيش « هانريوت » !

ويتكوّن حزبان، وتقع مُصادمات، وتتوالى اللكمات على القبعات المنقوبة.. وانقلبت الطاولات، وتطايرت الأكواب مُحطمة، وانطفأت المصابيح، والسيدات أطلقن صرخات حادة ولما هاجم «جولى» كثير من الوطنيين احتمت بأحد المقاعد، دافعت وخربشت وعضت كل من يحاول أن يهاجمها. وتمزق «الريدينجوت» الذى كانت ترتديه، وكذلك الصدرية تمزقت، فأنكتشف صدرها اللاهث. وأقبلت داورية على صوت الضوضاء، وتسالت الأرسقراطية الصغيرة من بين أرجل شرطة الدرك.

كانت العربية يومياً تمتلئ بالمحكوم عليهم، وتقول «جولى» لأمها

– «ومع ذلك لا أستطيع أن أترك حبيبى يموت !» .

قررت أن تترجى، وأن تسعى، وأن تذهب إلى اللجان، وإلى المكاتب، وعند النُّواب والقضاة... سوف أطرق كل مكان يجب أن أطرقه .

لم يكن عندها أى ثوب، فاستعارت والدتها ثوباً ووشاحاً، وغطاء رأس من «الدانتيللا» من المواطنة «بليز». وتوجهت «جولى» بعد أن ارتدت كامراً ومواطنة إلى القاضى «رينودان» فى أحد منازل شارع «مازاران» الرطبة المظلمة. وصعدت الدَّرَج الخشب وهى ترتعد، واستقبلها القاضى فى حجرة مكتبه البائس، المؤثث بمنضدة من خشب الصنوبر، ومقعدين من القش – وورق الطنافس المعلق فى قصاصات.

«رينودان» شعره أسود ومُلَصَّق، وذقنه مُدْبَّب، وعيناه سوداوان، وشفته مقلوبتان أشار لها بأن تتحدث، وأصغى لها فى هدوء .

قالت له : إنها أخت المواطن «شاسانى» – سجين فى «لوكسيمبورج» – وفسرت له بمهارة فائقة الظروف التى أُلْقِى عليه القبض فيها، وقدمته على أنه برىء وبائس، وأظهرت له أن المسألة عاجلة.

ظل جامدا وفاترا .

وتبكى متضرعة عند قدميه ،

وبمجرد أن أرى دموعها تغير وجهه، واتقدت حدقتاه باللون الأسود

المائل للحمرة، وفكاه الكبيران الزرقاوان تحركا، كأنهما يُرسلان لعبه
إلى حلقه الجاف، وقال :

– أيتها المواطنة، سوف يُتخذ اللازم، لا تشغلي بالك .

وفتح أحد الأبواب، ودفع بالمبتهلة في صالون صغير وردى اللون،
حيث كانت توجد مرايا حائط ملونة، ومجمعات من الخزف المُبرغل
وساعة جدارية، وشمعدانات مذهبة، ومقاعد منجدة الظهر والمساند،
وكنبة بكسوة منقوشة برسومات رعوية للرسم بوشيه.

«جولى» كانت مستعده لأى شىء لتنفذ حبيبها. «رينودان» كان عنيقا
وسريعا، وعندما نهضت هى لتُهدم الثوب الجميل، ثوب «إيلودى»،
تلاقت نظراتها بنظرات هذا الرجل القاسية والساخرة، فأدركت فى الحال
أنها أقدمت على تضحية لا جدوى منها . قالت :

– لقد وعدتني بحرية أخى .

ضحك ضحكه ساخرة، وقال :

– قلت لك أيتها المواطنة سوف نُجرى اللازم، أى أن القانون سوف
يُطبق لا أكثر ولا أقل. وقلت لك ألا تقلقى، ولماذا تنشغلين؟ فالمحكمة
الثورية دائما عادلة .

فكرت «جولى» فى أن تنقض عليه لتعقره، وتنتزع عينيه. ولكن، عندما
شعرت أنها توشك أن تفقد «فورتينيه شاسانى» هربت، وأسرعت إلى

غرفتها الصغيرة لتخلع عنها الثوب المُدنَّس ، ثوب «إيلودى»، وهنا فقط قضت الليل كله فى عويل من الألم والغىظ .

وفى اليوم التالى، عندما آبت إلى «لوكسيمبورج»، وَجَدَت الحديقة يحتلها شرطة الدرك، وهم يطردون النساء والأطفال، وَوُضعت حراسات فى الممرات لمنع المارة من الاتصال بالمساجين. وقالت الأم الصغيرة التى كانت تأتى كل يوم حاملة طفلها فى حضنها لجولى . إن الحديث يُتناقل عن مؤامرة فى السجون، ومنسوب إلى الزوجات أنهن يجتمعن فى الحديقة ليثيروا الشعب لصالح الأرستقراطيين والخونة .

8



8

وفجأة ، ارتفع جبلٌ في حديقة «التويليرى» ، والسماء بلا سحب، ويسير «ماكسميليان» متقدماً زملاءه بزى أزرق اللون، وسروال أصفر اللون، وفي يده باقة من السنابل، ومن زهور الترنجان الزرقاء، وزهور الخشخاش الحمراء.

ارتقى الجبل، ودعا رب «جان جاك» من أجل الجمهورية الشفيقة.
 فيا للنعاء ! ويا للوفاء ! ويا للبساطة القديمة ويا للطل الخصب !
 ويا للرحمة ! ويا للإخاء الإنسانى !

وعبثاً ، لا زال وجه الإلحاد البغيض قائماً. ماكسميليان يحمل شعلة، والنيران تلتهم الوحش، و «الحكمة» تظهر، تشير إلى السماء بإحدى يديها، وبالأخرى تمسك تاجاً من النجوم. وعلى المنصة المنصوبة في مواجهة قصر «التويليرى» «إيفاريسست» في وسط الجمع الغفير المتأثر، يذرف دمعاً هادئاً ، ويحمد الله، فقد شاهدَ افتتاح عهد من السعادة .

وتنهّد قائلاً :

— أخيراً ، سوف نكون سعداء وأنقياء وأبرياء، إذا سمح الخبثاء بذلك.

يا للأسف ! الخبثاء لم يسمحوا بذلك. لابد من المزيد من التعذيب،
ولابد من المزيد من إهراق أنهارٍ من الدماء النجسة .

وبعد مُضى ثلاثة أيام من الاحتفال بالتحالف الجديد والمصالحة بين
السماء والأرض أصدرت الجمعية الوطنية قانون «بريريال» الذى ألغى
- بنوع من الطيبة المخيفة - جميع الأشكال التقليدية للقانون ، وكل ما
كان موضوعاً منذ عهد الرومان مُنْصَفاً من أجل حماية البراءة المُتَّهَمَة .
المزيد من التعليمات، المزيد من الاستجابات، المزيد من الشهود، والمزيد
من المدافعين، فُحِبَّ الوطن مطلوب من الجميع. والمتهم الذى يحبس فى
داخله جريمته أو براءته، يُمَثَّل أبكَمَ أمام القاضى الوطنى ، وأنه كان فى
ذلك الوقت يجب تمييز قضيته الصعبة أحياناً، والمثقلة الغامضة فى
الغالب .

كيف يدور التحقيق الآن ؟ كيف يتم التعرف فى لحظةٍ على الرجل
الشريف، وعلى الفاسق، وعلى مُحَبِّ الوطن من عدو الوطن ؟...

وفى لحظة ارتباك، فهم «جاميلان» واجباته الجديدة، وتواءم معها.
كان يتعرف باختصار على قضية الصفات الحقيقية لهذه العدالة الملائمة
والمخيفة، والتى لم يكن وزارؤها كالقطط المكسوة بالفراء، يَزِنُون فى
وقت الفراغ بين الدليل وعكسه بموازينهم القوطية، ولكن بعض
اللامتسرولين يحكمون بالتنوير الوطنى، وَيَرَوْنَ كل شىء كالوميض
الخاطف.

وبينما فقدت الضمانات والمحاذير كل شىء ، فإن حركات القلب

المستقيم تُنْقِذُ كل شيء . كان لابد من اتباع غرائز الطبيعة، هذه الأم
الطيبة التي لا تخطئ أبداً، كان لابد من تحكيم العاطفة، كان «جاميلان»
يبتهل من أجل أرواح موتى «جان جاك» بقوله .

– أيها الإنسان الفاضل، أَلْهَمْنِي بحب البشرية، بالقدرة على بعثهم من
جديد !

ومعظم زملائه كانوا يشعرون مثله، وكانوا – بصفة خاصة –
بُسطاء، وعندما أصبحت الأوضاع سهلة أَلْفَوْا أنفسهم على راحتهم.
العدالة المُجْمَلة تكفيهم، ولا شيء يُكَدِّرهم أبداً في وَقْعِها السريع، فهم
يتحرّون فقط آراء المتهمين، ولا يُدركون أنه من الممكن – دون أى أذى –
التفكير بعكسهم.

كما أنهم يؤمنون بمعرفتهم للحقيقة والحكمة، والحاكم الصالح،
ويُنسبون إلى خصومهم الشر والضلال، إنهم يشعرون بأنهم أقوىاء .
كانوا ينظرون إلى الرَّبِّ .

أَجَل ، كان هؤلاء المحلفون بالمحكمة الثورية ينظرون إلى الرب الخالق،
الذى عرفه «ماكسيميليان» بأنواره.. وكانوا يحبون ويؤمنون .

أما مقعد المتهم فقد تم استبداله بمنصة عريضة يمكن أن تستوعب
خمسین فرداً.. الإجراءات لم تكن تتم إلاً بالإجماع، المدعى العام كان
يجمع ويتهم في نفس القضية، أو يُجَرَّم – كمتواطئين – أناساً دائماً في
المحكمة يلتقون لأول مرة. وتأمّر المحكمة بالتحقيق، وبالتسهيلات
الدهشة لقانون بريرليال ، وتحكم في المؤامرات المزعومة بالسجون،

والتي أعقبت التحذيرات إلى أتباع «دانتون» ومجلس العموم، كانت ترتبط فيها ببراءة فكرة ثاقبة .

ومن أجل التعرف على صفتين جوهريتين لمؤامرة دُبّرت بأموالٍ من الخارج ضد الجمهورية - الاعتدال اللامتوافق، والمبالغة المحسوبة - ومن أجل أن نرى فيها أيضًا الجريمة الدانتونية، والجريمة الهيرتية، وكانت قد تحدد لها رأسان متعارضان، رَأَسَا سيدتين : أرملة «كامي» المحبوبة «لوسيل»، وأرملة «الهيرتي» «مومورو»، وهى امرأة غانية، رائعة الجمال.

والسيدتان قد تم إيداعهن سجنًا واحدًا، حيث إنهما كانتا تبكيان وهما جالستين على مقعد حجرى واحد ، ونظرًا للتشابه والتناسق بينهما فقد صعدتا معًا إلى المقصلة لهدف واحد، ويُعدُّ هذا رمزًا يتميز بعبقرية فذة. عمل فنى، تتخيله دون شك روح النائب، والذي يرجع فخر عمله إلى «ماكسميليان». وتُنسب إلى هذا الذى ينوب عن الشعب جميع الأحداث السعيدة أو البائسة التى كانت تتم فى الجمهورية : القوانين، والتقاليد، وتعاقب فصول السنة، والمحصولات، والأمراض. وهذا ظلم مُستأهل، لأن هذا الرجل دقيق التكوين، شديد النظافة حتى درجة الوسوسة، هزيل، له وجه كوجه القطة، كان متحكمًا فى الشعب...

فى هذا اليوم، أرسلت المحكمة جزءًا من مؤامرة السجون الكبيرة، أرسلت ما يقرب من ثلاثين مُتأمِرًا من لكسيمبورج أسرى طائعين، ولكنهم إمّا ملكيون أو فيدراليون أقوياء.

الاتهام برمته يقوم على أساس شهادة واشٍ واحد فقط .

المحلفون لا يعرفون شيئاً عن القضية، ويجهلون حتى أسماء المتآمرين. «جاميلان» عندما ألقى بنظراته على مقعد المتهمين، تعرف من بينهم على «فورتينيه شاسانى» عشيق «جولى»، وقد بدأ نحيقاً من طول الأسر، شاحباً، وقسماته قاسية بسبب الضوء الساطع الذى تسبح فيه القاعة، وما زال يحتفظ ببعض الأناقة والأنفة. تلاقت نظراته مع نظرات «جاميلان» مُحَمَّلة بالازدراء.

« جاميلان » تتملكه رهبة هادئة، نهض، وطلب الكلمة، وعيناه مثبتة على التمثال النصفى لبروتوس السابق، والذى كان يسود المحكمة، قال :

- الرئيس الوطنى، لما كان فى الإمكان أن أحد هؤلاء المتهمين، تربطنى به روابط، إذا صح الإفصاح عنها، فهى صلة نَسَب، وأُعلن عدم تَنَحُّيِّ مطلقاً، فإن «بروتوس» الأول والثانى لم يتنحيا، من أجل سلامة الجمهورية أو قضية الحرية، عندما كان لامناص لهما من أن يدينا أحد الأبناء وقد ضَرَبَ أحد الآباء بالتبنى. (جونىوس بروتوس، وماركوس بروتوس).

- تتمم «شاسانى» مغتاضاً : ها هو ذا فاسق جميل .

كان الجمهور فاتراً، سواء كان قد سَيِّمَ أخيراً من الأخلاق الرفيعة، أو أن «جاميلان» قد انتصر بسهولة بالغلة على العواطف الطبيعية.

قال الرئيس : أيها المواطن «جاميلان»، طبقاً لأحكام القانون، أُنِّى تَنَحُّ يجب أن يُصاغ كتابةً فى غضون أربع وعشرين ساعة قبل افتتاح

المناقشات. وعليه، فلا وقت لك لتتنحى : أى مُحلف وطنى هو فوق العواطف .

كل منهم تم استجوابه لمدة ثلاث أو أربع دقائق. وانتهى التحقيق بحكم الإعدام للجميع، صوّت عليه المحلفون بكلمة، أو بإيماءة من الرأس، أو بالهتاف.

وعندما جاء دور «جاميلان» ليبدى رأيه ، قال :

- المتهمون جميعهم مقتنعون، والقانون صريح .

وببما كان ينزل على سلم القصر اعرضه شاب يرتدى «ريدينجوت» أخضر اللون، ويبدو فى السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمره، وكان يرتدى قبعة مستديرة، ساقطة إلى الخلف قليلا، وحوافها تبدو على رأسه الجميل الشاحب كأنها إكليل أسود .

كان منتصباً أمام المحلف، وصاح فى وجهه بكّة من الغضب والبأس.

- فاجر ! متوحش ! قاتل ! اضربنى أيها الجبان ! أنا سيدة ! قبض علىّ، اعدمنى بالمقصلة، أنا اختك يا «قابيل» !

وبصقت «جولى» على وجهه

الجمع الغفير من الحائكات واللامتسرولين فترت يقطتهم الثورية، وخمدت حميتهم الوطنية، لم يوجد حول «جاميلان» الذى اعتدى عليه إلا بعض التصرفات المشوشة وغير المؤكدة .

اخترقت «جولى» التجمع، واختفت مع الشفق

كان «إيفاريست جاميلان» يشعر بملل شديد ولا يهناً له بال ،
عشرون مرة في الليل كان يستيقظ مذعوراً، بسبب الكوابيس التي كانت
تَوَرِّقُ نومه، كان فقط في الغرفة الزرقاء بين ذراعى «إيلودى» يستطيع أن
ينام بضع ساعات. كان يتحدث ويصيح وهو نائم ، وكان يوقظها،
ولكنها لم تكن تفهم كلماته.

وذات صباح، بعد نوم ليلة، حيث رأى «الأيمنيد»^(١)، فاستيقظ
مُحَطَّطاً من الخوف، وضعيفاً كالطفل. بزغ الفجر، واخترقت سهام
أشعته ستائر الغرفة .

كان شعر «إيفاريست» ينسدل على جبهته، ويغشى عينيه بغلالة
سوداء . «إيلودى» تجلس في مقدمة السرير، وتبعد برقة خصلات شعره.
كانت تنظر إليه، هذه المرة بحنان الأخت، وبمنديلها كانت تجفف العرق
البارد المتساقط على جبهة المسكين.

عندئذ تذكر المشهد الجميل في مسرحية «أوريست» التي كتبها
«يوريبيد» والذي رسم منها لوحة، وإذا استطاع أن يُنجزها فستُعتبر
عمله الفنى الكبير، وهو المشهد حيث كانت البائسة «إليكترا» تجفف الزبد
الذى يُلَوِّثُ قم أخيها .

وكان يعتقد أيضاً أنه يسمع صوت «إيلودى» تقول :

(١) الأيمنيد، أو الأنيمنيد - المتسامحات ، وهى قصة إغريقية قديمة ، وموضوعها فر
بعد قتل أمه ، ثم استغفاره وعفو الآلهة عنه ، وبرأته أمام المحكمة - كما جاء في الإ

- « اسمعنى يا أخى العزيز، عندما كانت الجَنِيَّاتُ تُسَيِّرُنَ لَكَ أَنْ تَكُونَ
حر نفسك... ».

وكان يفكر ، ويقول فى نفسه :

- « ومع ذلك فلم أكن قط قاتِلَ أُمِّى ، بل بالعكس ، - وذلك عن بُرِّ
بنوئى - أرقّت الدماء النجسة لأعداء وطنى ».

لم ينته الأمر بالنسبة إلى مؤامرة السجون . تسعة وأربعون متهماً
يملئون المقاعد داخل المدرج . كان «موريس بروتو» يشغل أعلى درجة على
اليمين، مقعد الشرف . وكان يرتدى «الريدينجوت» الأحمر الذى يميل إلى
السواد، والذى نظفه جيداً بالفرشاة فى اليوم السابق، مُرَتِّقاً من ناحية
الجيب الذى تسبب كتاب «لوكريس» فى تلفه .

وإلى جانبه السيدة «روشىمور» مُتَزِينَةٌ مُتَجَمِّلَةٌ، باهرة مُخِيفَةٌ . وكان
يجلس بينها وبين الفتاة «أثينايس» الأب «لونجيمار»، والذى كان يجد فى
سجن النساء نضارة الشباب .

وعلى مقاعد المدرج قامت شرطة الدرك بتكدس أناس لا يعرفونهم
هؤلاء، وربما لا يعرف بعضهم بعضاً . الجميع من المتواطئين، من
البرلمانيين، وعمال اليومية، والنبلاء السابقين، وبورجوازيين
وبورجوازيات .

المواطنة «روشىمور» لمحت «جاميلان» على مقعد المحلفين، بالرغم من

أنه لم يكن يرد على رسائلها العاجلة ورسائلها المتكررة، تعشمت في أن يُرسل إليها نظرة، راجية أن تكون بالنسبة إليه جميلة ومؤثرة، ولكن نظرة القاضي الشاب الباردة قد حرمتها من أى وهم .

قرأ كاتب الجلسة قرار الاتهام الذى كان مُختصرًا بالنسبة إلى كل متهم، ولكنه كان طويلًا بسبب عددهم. كان يستعرض المؤامرة بإسهاب، والتي كانت مُدبَّرة في السجون لإراقة دماء ممثلى الأمة وشعب باريس، وإغراق الجمهورية بها، والذى يُحدِّد مصير كل واحد منهم :

– من أكبر المفسدين الذين قاموا بهذه الدسيسة الكريهة هو المدعو «بروتو»، أحد أفراد الديزلييت السابقين، والذى كان مُحصلَ ضرائب في عهد الطاغية. هذا الشخص الذى عُرِفَ بوضوح – خاصة في عهد الطُغيان – بسلوكه المنحل، دليل مؤكد على أن الفجور والعادات السيئة هى من ألد أعداء الحرية وسعادة الشعوب، وفي الواقع أن هذا الشخص ، بعد أن بدَّد الأموال العامة، وأنفق جزءًا كبيرًا من قوت الشعب على المجون، اجتمع بمحظيته السابقة السيدة «روشيمور» ليرأسلَا المهاجرين ويُخبرَا الأجانب في الخارج بحالتنا المالية، وتحركات جيوشنا، وتقلبات الرأى .

« إن «بروتو» الذى كان يعيش في هذا الدور لهو شخص يستحق الازدراء ، فقد كان يعيش مع زوجة غير شرعية، عاهرة، التقطها من الوحل من شارع «فرومانتسو» – الفتاة «أثينايبس» – واستغلها بسهولة للتأمر ضد الثورة بصرخات سفيهة، وتحريضات وقحة. وبعض أحاديث هذا الرجل المشنوم، سوف توضح لكم هذه الأفكار الدنيئة

وهدفها الفاسد، فهو عندما كان يتحدث عن المحكمة الوطنية المعقودة اليوم لمعاقبته كان يقول بوقاحة. محكمة الثورة تشبه مسرحية من مسرحيات ولیم شكسبير، الذى يضيف إلى المشاهد الدامية مشاهد هزلية مُبتذلة .»

وكان دائماً يمتدح الإلحاد كأضمن وسيلة تذلل الشعب، وتلقى به في أحضان الفسق .

وفي سجن البوابة الرئيسية حيث كان مُحْتَجَزًا كان يرثى لحال الانتصارات العظيمة لجيوشنا كما يرثى لأسوأ الكوارث، ويجهد في إلقاء الشك حول أكثر قاداتنا وطنية، بأن ينسب إليهم أهداف خنق الحريات . وقد قال بلهجة قاسية .

اسمعوا تلك الكلمة القاسية، والتى يتردد القلم في أن ينسخها .
«انتظروا حتى يأتى يوم يبتلعكم فيه أحد هؤلاء الذين يحملون السيوف لحمايةكم، سوف يبتلعكم مثلما يبتلع طائر الكُرْكُى «الضفادع» كما جاء في الأسطورة» .

واستمر قرار الاتهام في السرد هكذا .

«إن السيدة «روشىمور» النبيلة السابقة، زوجة غير شرعية لبروتو، وليست أقل منه إثماً، وليست فقط لأنها كانت تتراسل مع الخارج، وكانت أجنبية لبيت نفسه، ولكن لأنها منضمة إلى رجال مرتشين، مثل «جوليان» (من تولوز) و «شابو»، وكانت أيضاً لها علاقات مع البارون

السابق «دى باتز»، فقد كانت تدبر مع هذا الفاجر شتى وسائل التدليس، ويعملان معًا على خفض قيمة أسهم شركة الهند، يشتريانها بأبخس الأسعار، ثم يرفعان أسعارها بوسائل تدليسية تتعارض مع الأولى، وبهذا تتبدد الثروة الخاصة والثروة العامة .

وَسُجِنَتْ فِي سَجْنٍ «بورت - ليبز»^(١)، وفي سجن النساء واستسلمت لمحاولات رشوة حيال القضاة والمحلفين .

«لويس لونجيمار» نبيل سابق، و «كابوشيني» سابق، ومنذ زمن طويل له تجارب في الأعمال المشينة وفي الجريمة قبل أن يرتكب أعمال الخيانة، وهو موجود هنا ليُجيب عليها. وعاش في مخالطة مُخْجَلَة مع الفتاة «جورسى» - وهى المُسماة «أثينايس» - تحت سقف واحد، ومعهم «بروتو»، فهو شريك هذه الفتاة وهذا النبيل السابق.

وطوال مدة حبسه في البوابة الرئيسية لم يتوقف يوماً واحداً عن كتابة أهّاجٍ عدائية للحرية وللسلام العام، ومن الصواب القول - بصدد «مارت جورس» المدعوة «أثينايس»: إن العاهرات هن أعظم خطراً على التقاليد العامة، حيث يُسْتَنْ لهذه التقاليد، وهن شَيْنٌ وَسُبَّةٌ للمجتمع الذى يفضّحه . ولكن ما الفائدة من الاسترسال في جرائم كريهة اعترفت بها المتهمه دون حياء ؟....».

وانتقل الاتهام بعد ذلك بعرض الخمسة والأربعين متهمًا الآخرين،

(١) كان يطلق عليه (بورت - رويال) سابقًا .

الذين لا يعرفهم «بروتو»، ولا الأب «لونجيمار»، ولا المواطنة «روشيمور»، إن لم يكونوا قد رأوا الكثيرين منهم في السجون، والذين كانوا مشمولين مع الأوائل في «هذه الدسياسة الدنيئة التي لم تتحدث حوليات الشعوب عن مثيلتها».

وينتهى الاتهام بالحكم بالإعدام لجميع الأثمين.

كان «بروتو» هو أول من تم استجوابه .

— هل تأمرت ؟

● كَلَّا، لم أتأمر ، كل ما ورد في قرار الاتهام الذي استمعت إليه الآن خطأ .

— هكذا ، إنك تتأمر الآن أيضًا على المحكمة .

ثم انتقل الرئيس بعد ذلك إلى السيدة «روشيمور» التي أجابت باعتراضات يائسة، وبدموع وجدلٍ فارغ .

أمَّا الأب «لونجيمار» فقد سلَّم أمره لله، ولم يكن معه حتى الدفاع المكتوب. وأجاب على الأسئلة التي وُجِّهَتْ إليه بروح الزاهد، ومع ذلك عندما سماه الرئيس «كابوشييني» احتد الرجل العجوز وقال له

— أنا لست «كابوشييني»، أنا راهب من المذهب «البارنابي»

أجاب الرئيس بلهجة طيبة .

— ليس هناك فرق .

نظر إليه الأب «لونجيمار» مُتَبَرِّما .

- لا يمكن إدراك خطأ غريب، بأن نخلط بين «كابوشيني» وبين راهب من المذهب البارنابي الذي يستمد دساتيره من المُبَشِّر «سان بول» نفسه .

وانفجرت ضحكات وهممة بين الجمهور .

واعتبر الأب «لونجيمار» هذه السخرية علامات إنكار، وأعلن أنه سوف يموت عضواً لهذا المذهب، مذهب «سان بارنابيه»، والذي ينطبع في قلبه .

سأله الرئيس أتعترف بأنك تأمرت مع الفتاة «أثينايس» والتي وهبتك علاقات حب حقيرة ؟

عندما سمع الأب «لونجيمار» هذا السؤال رفع بصره إلى السماء بنظرة مؤلمة، وأجاب بهدوء يُعبر عن دهشة روح بريئة، ووقار راهب . يخشى أن يتفوه بكلمات تافهة

ويسأل الرئيس الفتاة «جورسى» : أتعرفين بأنك تأمرت مع «بروتو» ؟

أجابت بلطف

«السيد «بروتو» - على ما أعلم - لم يصنع إلّا الخير، إنه رجل يجب أن يحذو حذوه الكثيرون، ولا يوجد من هو أفضل منه، ومن يقول عكس ذلك فهو مخطيء، وهذا كل ما عندى لأقوله

وسألها الرئيس عما إذا كانت تعترف بأنها عاشت مع «بروتو» في

علاقة غير شرعية، وكان لابد من تفسير هذا المصطلح لها، حيث إنها لم تسمعه من قبل، ولكنها بمجرد أن فهمت ما الذى يرمى إليه أجابته بأن الأمر لا يتوقف إلا عليه، ولكنه لم يطلب ذلك منها .

ضحك كل من فى المنصات، وهدد الرئيس الفتاة «جورسى» بأنه سوف يأمر بإخراجها من الجلسة إذا أجابت مرة أخرى بأى نوع من أنواع التهكم .

حينئذ وصفته بأنه صرصور شاحب الوجه، وزوج مخدوع، ثم أمطرته هو والقضاة والمحلفين بسيل من أقذر الشتائم، حتى أن شرطة الدرك قاموا بإخراجها من القاعة.

ثم استجوب الرئيس بعد ذلك بقية المتهمين، بالنظام الذى كانوا جالسين به على مقاعد المدرج. وأجاب أحد المتهمين ويسمى «نافيت» بأنه ما كان فى وسعه أن يتآمر فى سجن، نظرًا لأنه لم يقم فيه سوى أربعة أيام. وأخذ الرئيس فى الاعتبار هذه الملاحظة، وطلب من المواطنين المحلفين أن يأخذوها هم أيضًا فى اعتبارهم .

وأخر يسمى «بيلييه» أجاب نفس الإجابة، ووجه الرئيس نفس الملاحظة لصالحه إلى هيئة المحلفين. وفُسرت شهامة القاضى على أنها نتيجة لعدل يستحق المديح، أو كجزاء واجب على النميمة. وجاء الدور على نائب المدعى العام ليتحدث :

— هل من الثابت أن «موريس بروتو»، و «لويز روشيمور»، و «لويس لونجيمار»، و «مارت جورس» وشهرتها «أثينايس»، و «أوزيب

روشييه»، و «بليز جيتون فابيليه»، و «مارسيلين دى كورتيس»، إلخ.. قد
دبروا دسياسة وسائلها الاغتيال، والمجاعة، وتزييف الحوالات
الحكومية، وصنع نقود مزيفة، وإفساد الأخلاق والفكر العام، وإثارة
السجون، بهدف الحرب الأهلية، وتفكيك الإنابة العامة، وإعادة المَلَكِيَّة ؟
وانسحب المحلفون إلى غرفة المداولات، وأجمعوا على تأكيد كل ما
يخص جميع المتهمين، باستثناء كُلِّ مَنْ «نافيت» و «بيليه» اللّذَيْنِ
اعتبرهما الرئيسُ ثم المدعى العام خارجَ القضية.

وأصدر «جاميلان» قرار الاتهام بهذه الديباجة :

- إن الجُرْمَ الذى ارتكبه المتهمون أمرٌ جَلِيٌّ وأُوضِحَ من النهار،
وتقتضى سلامة الأُمَّة عقابهم، ويجب عليهم أن يتمنوا مَوْتَ أنفسهم، أو
عذابهم كوسيلة وحيدة للتكفير عن جرائمهم.

وينطق الرئيس بالحُكم فى غياب الذين يخصصهم. وفى هذه الأيام
العظيمة - على عكس ما يتطلبه القانون - لا يُنادَى على المتهمين لِنَقْرٍ
عليهم الحُكم، وذلك لأنه كان يُخْشَى بأس عدد كبير جداً من
خوف لا جدوى منه، طالما أن انقياد الضحايا كان
وعاماً! نزل كاتب المحكمة ليقْرأ قرار الاتهام الذى سُمِعَ
والصمت اللذين يجعلان من المتهمين - متهمى شهر برييا
حان قطعها .

المواطنة «روشيمور» صَرَحَتْ بأنها حامل. وكُلِّفَ أحد

وهو نفس الوقت مُحَلَّف - بالكشف عليها. ونُقلت إلى زنزانتها. وتنه
الآب «لونجيمار» وقال :

- آه ! هؤلاء القضاة، حقًا هم رجال جديرون بالشفقة، وحالته
النفسية يُرَتَّى لها. إنهم يخلطون كل شيء، ويخلطون بين البرنابيه
والفرنسيكان .

وكان حُكم الإعدام يجب أن ينفَّذ في نفس اليوم عند «لاباريير د
لاترون - رانفيرسيه». تم الإعداد لتنفيذ حكم الإعدام، قُضيت الحاج
وَقُورَ القميص، وقُصَّ الشَّعر، وكان المحكوم عليهم في انتظار الجلا
يقبع كالبهيمة في القاعة الصغيرة، ويفصله عن غرفة قلم الكُتَّاب حاج
زجاجي .

عند وصول الجلاذ ومساعديه كان «بروتو» يقرأ «لوكريس»
هدوء، فوضع علامة على الصفحة التي بدأها، وأغلق الكتاب، ووضع
جيب «الريدينجوت» وقال للراهب «البارنابيتي» :

- أجب المبجل ، هذا ما كنت أخشاه، ذلك ما لم أستطع أن أقنعك با
سوف ننام (نحن الاثنان) نومتنا الأخيرة، ولن أستطيع أن أسحبك م
كحك وأوقظك لأقول لك :

«أرأيت ؟ ليس عندك لا شعور ولا معرفة، فأنت فاقد الحياة. إن ه
يَعْقُبُ الحياة مثل ما يسبقها» .

أراد أن يبتسم، ولكنَّ أَلَمًا قاسيًّا استولى على قلبه وأحشائه، وأصيب
أقرب إلى أن تخور قواه. ومع ذلك فقد استطرد قائلاً .

- أبى، سترى ضعفى بسهولة، إننى أحب الحياة ولن أتركها أبداً بلا ندم.

أجاب الراهب بلطف : احترس، فأنت أشجع منى، ومع ذلك فالموت يزيد من اضطرابك. ماذا يعنى ذلك؟ إن لم أكن أرى الضوء فأنت لن تراه مرة أخرى !

قال « بروتو » :

- هذا احتمال قائم أيضاً ، فأنا أندم على الحياة لأننى تمتعتُ بها أفضل منك أنت الذى يساويها بالموت !

قال الأب «لونجيمار» وهو شاحب : هذه الساعة خطيرة، فليساعدنى الله ! من المؤكد أننا سوف نموت بدون إغاثة. كان يجب علىّ ألا أتلقى سِرَّ القربان بفقرور، وبقلب كَنُود^(١)، حتى تضمن السماء علىّ فى اليوم الذى أحتاج إليها فيه. إننى فى حاجة مُلحة إليها .

كانت العربات تنتظر، وتُكس فيها المُدانون وأيديهم مُقيدة. وتُرفع السيدة «روشيمور» - والتى لم يعرف الجراح حَمَلَهَا - على إحدى العجلات المزدوجة. كانت عندها بقية من جهد لتراقب الجمع الغفير من المتفرجين، وتتعشم حيث لا ينفع العشم، عسى أن تجد من بينهم منقذين، وكانت عيناها تتضرعان .

كان الحشد أقل عن ذى قبل ، والتصرفات الفكرية أقل عنفاً، فقط

(١) الكنود : العاصى ، والجاحد للنعمة

بعض النسوة يهتفن : «إلى الموت!»، أو يَسَخَرْنَ من المُسَاقِينَ إلى الموت.
والرجال يرفعون أكتافهم ، ويلفنون رءوسهم وهم صامتون، سواء عن
خوف أو عن احترام للقوانين.

وسرت رعشة بين الجماهير عندما مرت «أثينايس» أمام الشباك،
فكان لها مظهر طفلة .

انحنى أمام الراهب، وقالت :

- سيدي الراهب ، امنحني المغفرة .

تمتم الأب «لونجيمار» في وقار شديد بالحديث السري ، وقال :

- أى بُنيتى ! لقد هَوَيْتِ في قلاقل عظيمة، ولكن ليس في وسعى أن
أُقَدِّمَ إلى الله قلباً أصفى من قلبك !

وصعدت - في خفة - إلى عربة المحكوم عليهم، وهناك ينتصب
نصفها الأعلى ورأسها الطقولى أيضاً في كبرياء ، وصاحت .

- عاش الملك !

وأشارت إلى «بروتو» إشارة خفيفة بأنه يوجد مكان إلى جوارها.
وأعان «بروتو» الراهب البارناوى على الصعود، واتخذ مقعده بين الراهب
وبين الفتاة البريئة.

وقال الأب «لونجيمار» للفيلسوف الأبيقورى :

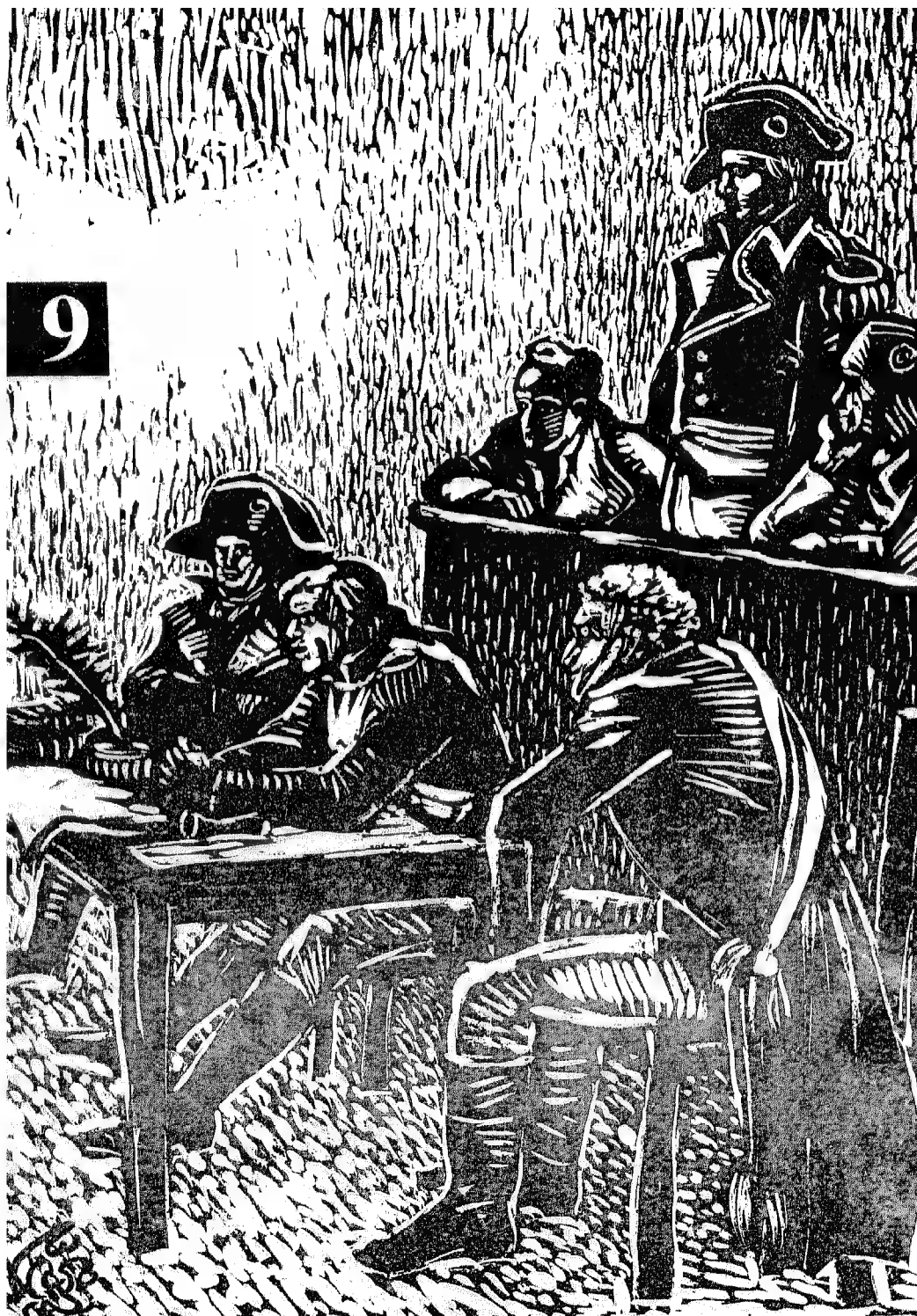
- سوف أطلب منك جميعاً . هذا الرب الذى لم تؤمن به بعد ، صلّ له

من أجل، فليس هناك ما يؤكد أنك لست قريباً منه أكثر مما كنته أنا
نفسى .. يمكن اتخاذ القرار فى لحظة من أجل أن تصبح الطفل المتميز عند
الله، ولا يحتاج ذلك إلا إلى لحظة.. سيدى ، صلّ من أجل .

وبينما كانت عجالات العربة تركض على بلاط الضاحية كان الراهب
يقرأ من قلبه وبشفتيه دعوات وصلوات المحتضرين عن ظهر قلب .

وكان « بروتو » يتذكر شعر الشاعر عن الطبيعة : « يحدث هذا عندما
لا نكون...». الكل مقيد ويهتز فى العربة الشائنة ، كان يحتفظ بمظهر
هادىء كأحد هموم رفاهيته. وإلى جانبه «أثينايس» فخورة بأنها
ستموت مثل ملكة فرنسا، وتنظر إلى هذا الجمع نظرة استعلاء ، ورجل
الأعمال العجوز يتأمل - كخير - عُرقوب السيدة الصغيرة الأبيض ،
ويندم على ضوء النهار .

9



9

بينما كانت عرباتُ المحكوم عليهم تسير نحو ميدان «لاترون - رانفيرسيه» - يحيط بها شرطة الدرك - وتصطحب إلى الموت كُلاً من «بروتو» والمتواطئين معه، كان «إيفاريست» جالساً على أحد المقاعد في حديقة «التويليري»، كان ينتظر «إيلودي». كانت الشمس تنحدر نحو الأفق، وتُغرق بسهامها المشتعلة أجمة القسطل .

وعند سور الحديقة ، تمثال الإلهة «رنومه»^(١) وهى على حصانها المُجَنَّح تنفخ في بوقها الأزلى. وبائعو الجرائد يصيحون : نصر «فلوروس»^(٢) العظيم .

نعم ، صدَّق «جاميلان» : « النصر لنا ، ونحن دفعنا ثمنه » .

كان يُشاهد القادة الأشرار يَجْرُونَ ظلالهم مذمومين في التراب الدامى لهذا الميدان، ميدان «لاريفوليسيون»، حيث هلكوا. وابتسم بفخر، ظاناً

(١) آلهة رمزية كما جاء في الأساطير .

(٢) فلوروس . من مدن بلجيكا ، انتصر فيها جوربان على النمسيين سنة ١٧٩٤ .

أنه دون القسوة التي كان له فيها نصيب لَقُضِمَت الخيول النمساوية
اليوم قشرة هذه الأشجار.

وكان يصيح في داخله :

«أيها الهول الشافي ، أيها الإرهاب المقدس ! في العام الماضي في عصر
مشابه، كان عندنا مدافعون عن أبطال مهزومين كالأسمال؛ أرض الوطن
كانت تحت الغزو، وثُلثنا الأقاليم في ثورة. والآن، جيوشنا جيدة التجهيز،
جيدة التثقيف، يقودها قادة مهرة، يُبادرون بالهجوم، وعلى أتم استعداد
لإحراز الحرية للناس.

ساد السلام جميع الأراضي بالجمهورية.... أيها الهول الشافي ! أيها
الإرهاب المقدس ! أيتها القصلة المحبوبة ! العام الماضي - في وقت مُشابه
- كانت الجمهورية مُمزقة بالأحزاب، وأُقعوان الفيدرالية يُهدد بالتهامها،
والآن الوحدة اليعقوبية تسيطر على الإمبراطورية قوتها وحكمتها....».

ومع هذه الحالة فقد كان مُغتَمًا، وظهرت تجعيدة عميقة على جبهته،
كان يشعر بمرارة فمه، كان يفكر : «كنا نقول : النصر أو الموت ، كنا
مُخطئين، لأنه كان يجب أن نقول : النصر والموت ..».

أخذ «جاميلان» ينظر حوله. الأطفال كانوا يعملون أكوامًا من الرمل.
والمواطنات جالسات على مقاعدهن الخشبية تحت الشجر، يُطرزن أو
يُحيكن. والمارة كانوا يرتدون سراويل بأناقة غريبة، يُفكرون في أعمالهم
أو في مسراتهم، وهم عائدون إلى مقار إقامتهم .

كان « جاميلان » يشعر بأنه وحيدٌ بينهم ، فهو ليس من مواطنهم ، ولا من مُعاصريهم . إذن ماذا كان يجرى ؟ كيف - بعد حماس السنوات الجميلة - تتعاقب اللامبالاة والإرهاق ، وربما الإشمئزاز ؟ من الواضح أن هؤلاء الناس لا يريدون أن يسمعوا شيئاً عن محكمة الثورة ، وأداروا ظهورهم للمقصلة ، وقد أصبحت مزعجة في ميدان « لاريفوليسيون » ، فنُقلت إلى ضاحية « أنطوان ».

ويتكرر نفس الوضع عند مرور العربات ، ونفس التمتمة ، ويُقال : إن بعض الأصوات تصيح قائلة : « كَفَى ! » ، كفى ، عندما يكون هناك مزيد من الخونة والمتآمرين ! كَفَى ، عندما يكون لابد من تجديد اللجان ، وتصفية الجمعية الوطنية ! كفى ، عندما يُدَنِّسُ الفاسقون السمعة الوطنية ! كفى ، عندما نتأمل فقدان العدل في المحكمة الثورية ! لأنه أمر رهيب أن نفكر فيه ، وإفراط حقيقى ! « فوكييه » نفسه دبر مؤامرات ، وكان ذلك من أجل تدمير « ماكسميليان » الذى ضحى من أجله ببذخ ، بسبع وخمسين ضحية سيقوا إلى الموت بالقميص الأحمر ، قميص قتلة آبائهم .

إلى أى شفقة إجرامية كانت تستسلم فرنسا ؟ إذن يجب إنقاذها رغماً عنها ، وإذا صاحت بطلب العفو تُصم الآذان وتُضرب . يا للأسف ! إن المصائر قضت بهذا : « الوطن يَلْعَنُ مُنْقِذيه ، فَلْيَلْعَنَّا ، وَلْيُنْقِذْهُ هو ! » .

« من النادر التضحية بضحايا مغمورين ، وأرستقراطيين ، وماليين ، وصحفيين ، وشعراء ، أو يُقضى على رجال مثل « لافوازييه » ، و « روشيه » ،

و «أندريه شينييه».. يجب ضرب هؤلاء الفَجَرة من ذوى السطوة..
وهؤلاء أيديهم ممتلئة ذهبًا، وملوثة بالدماء، كانوا يعدُّون العُدَّة لتخريب
«لامونتاني» وعائلات «فوشيه»، و «تاليان»، و «روفير»، و «كاريه»،
و«بوردون».

لابد من تخليص الدولة من هؤلاء الأعداء . ولو انتصر «هيير»
لانتقلت الجمعية الوطنية، ولاندفعت الجمهورية نحو الهلاك، ولو انتصر
كل من «دانتون» و «ديمولان» لسَلَّمت الجمعية الوطنية – دون امتيازات
– الجمهورية إلى الأرستقراطيين، وإلى المضاربين بالأسم، وإلى القادة .

وإذا كان «تاليان» أو «فوشيه» وغيرهما وحوشًا متعطشة للدماء
والسلب والنهب أو أفلحوا لغرقت فرنسا في الجريمة والرديلة ... أنت
يا «روبسبير» نائم، وهناك مجرمون سكارى من الفزع والرعب يفكرون
في موتك، ودفن الحرية.

يا «كوثون» ، ويا «سان جوست»، كم توانيتما في الإبلاغ عن
المؤامرات.

«ماذا ! الدولة القديمة، الوحش الملكى يُؤمَّن إمبراطوريته بأن يلقى في
السجن في كل عام أربعمائة ألف رجل، ويشنق منهم خمسة عشر ألفًا،
ويُعذب منهم ثلاثة آلاف، وعلى الجمهورية كذلك أن تُضْحى ببضعة
مئات من الرؤوس لأمنها، وسلطانها !

فلنغرق في الدماء، ولننقذ الوطن ...».

وبينما كان ساجًا هكذا في تخيلاته ، إذا بإيلودي تجرى نحوه شاحبة ومنهوكة :

– «إيفاريست» ، ماذا عندك لتقوله لى ؟ لماذا لم تأتِ إلى «لاموربانتر» فى الغرفة الزرقاء ؟ لماذا طلبت منى الحضور هنا ؟

● لأودعك الوداع الأخير

فتمتت بأنه ليس فى وعيه ، ولا تستطيع أن تفهم ...

أوقفها بحركة صغيرة من يده ، وقال :

– « إيلودي » ، لا أستطيع أبدا أن أقبل حبك .

● صَهْ يا « إيفاريست » ، اسكت !

وطلبت أن يذهب بعيدًا ، فهنا الناس يراقبونهما ويسمعونهما . سارا حوالى عشرين خطوة ، ثم استطرد بهدوء شديد :

– لقد دسحت للوطن بحياتى ، وبشرفى ، وسوف أموت دنيئًا ، ولن أترك لك أيتها البائسة سوى ذكرى كريهة

أجيبوننى ؟ هل يمكن أن يحبنى امرء بعد ذلك ؟ ... وهل أستطيع أن أُحِبَّ ؟

وتقول له إنه مجنون ، وإنها تحبه ، وستحبه دائماً ، وإنها أصبحت محتدمة مخلصه ، ولكنها كانت تشعر بأنها مثله على ما يرام ، وتشعر أكثر منه ، بأنه على حق فيما يقول ، وأنها كانت تصارع الحقيقة .

واستطرد .

– أنا لا ألوم نفسي على شيء ، ما فعلته سأفعله ثانية. لقد جعلت من نفسي لعنة من أجل وطني، إنني ملعون. لقد أقصيت نفسي عن الإنسانية، ولن أعود إليها أبدًا . لا ! المهمة الكبرى لم تنته . آه ! الغفران ، السماح هل الخونة يُسامحون ؟ المتآمرون، هل هم من الغافرين؟ الفاسقون قتلوا الآباء يتزايدون بلا توقف، وهم يخرجون من تحت الأرض، ومنهم من يهرع من كل حدودنا، ومنهم شباب، من أفضل ما هلكوا في جيوشنا، وشيوخ، وأطفال، ونساء بأقنعة البراءة والطهارة والعفو. وعندما راحوا ضحية لم يوجد مثلهم . ترين جيدًا أنني لا بد أن أعيدَ عن الحب، وعن كل بهجة، وعن كل ملذات الحياة، بل عن الحياة نفسها.

كانت «إيلودي» معتادة على تذوق اللذات الهادئة منذ أكثر من يوم ، وكانت تخشى أن تمزج – تحت تأثير قبيلات عاشق محزون إلى الإحساسات الشهوانية – صورًا دامية، فلم تُجب عن شيء قط، و«إيفاريست» ارتشف صمت السيدة الصغيرة كأنه كأس مُر المذاق .

– أنتِ تدركين ذلك جيدًا يا «إيلودي»، نحن أهلكنا أنفسنا، عمَلْنَا يَلْتَهْمنا، أيامنا وساعاتنا عبارة عن سنين. أخالني عشت قرناً من الزمان . انظري إلى هذه الجبهة .. هل هي جبهة حبيب يحب ؟!.....

● «إيفاريست»، أنتَ أسيرى، سأحتفظ بك، لن أرد لك حريتك .

كانت تعبر عن نفسها بلهجة الضحية. أَحَسَّ بها ، وهى نفسها تشعر به .

- «إيلودى»، هل فى إمكانك أن تشهدى - ذات يوم - بأنى عشتُ مخلصًا لواجبى، وأن قلبى كان مستقيمًا، ونفسى طاهرة، وأنى لا أملك أى عاطفة أخرى سوى الخير العام، وأننى وُلدت حساسًا وحنونًا؟ ستقولين : «لقد أدى واجبه»؟ بل لا لن تقولىه . ولن أطلب منك أن تقولى ذلك .

فلتُذمِّرى ذكراى ! إن مجدى فى قلبى، والجبل يحيط بى .
إن أُحِبَّتَنِى فاحتفظى باسمى فى صمت أزل .

وفى هذا الوقت كان هناك طفل فى الثامنة أو التاسعة من عمره يلعب بطوق، وارتقى فى هذه اللحظة بين ساقى «جاميلان»، فرفعه بين ذراعيه وقال :

- أيها الطفل الصغير، ستكبر وتترعرع حرًا ، سعيدًا، وستدين بذلك إلى الحقير «جاميلان». إنى كنت كاسرًا من أجل أن تكون سعيدًا ، وكنتُ قاسيًا من أجل أن تكون أنت طيبًا، وكنتُ بلا شفقة ولا رحمة من أجل أن يأتى غدٌ يتعانق فيه الفرنسيون ويذرفون دموع الفرح .
وضمه إلى صدره وهو يقول له .

- أيها الصغير « عندما تصبح رجلًا ستدين لى بسعادتك وبراءتك، وإن سمعت اسمى دومًا فسوف تمقتّه. ثم أنزلَ الطفل على الأرض،

فانطلق ليحتمى بتنورة أمه التي هرعت إليه لتخلصه. هذه الأم الصغيرة، كانت جميلة، ولها رقة أرستقراطية بثوبها الأبيض، فاصطحبت طفلها وتظاهرت بالاستعلاء .

رمى « جاميلان » « إيلودى » بنظرة شرسة وقال :

- لقد قبّلتُ هذا الطفل، وربما أمرُّ غدا بإعدام أمه بالمقصلة . وابتعد بخطى سريعة .

ظلت « إيلودى » بلا حراك لبعض الوقت، نظراتها ثابتة ومسبلة، ثم اندفعت فجأة تتبع خطى عشيقها، عاضبة، صاخبة، كأنها إحدى كاهنات باكوس (إله الخمر)، أمسكت به كأنها تريد تمزيقه، وصاحت بصوت خافت مختنق بالدم والدموع :

- حسناً ! أنا أيضاً يا حبيبى، أرسلنى إلى المقصلة، أنا أيضاً، مُرّ بفصل رأسى عن جسدى !

وعند تمثّلها فكرة السكين على رقبتها، امتزكيانها رهبة وشهوة .



بينما كانت شمس شهر تيرميدور^(١) تغرب في لون أرجوانى دام كان «إيفاريست» شاردا، مغتماً ومهموماً، يطوف في حدائق «ماربوف» التى أصبحت ملكية وطنية، ويرتاها الفرنسيون في أوقات فراغهم، وكان

(١) الشهر الحادى عشر من السنة الجمهورية

يُتَنَاوَلُ فيها الليمونادة والمثلجات، وكانت توجد خيول خشبية، وأماكن
للمماية من أجل الشباب الوطنى .

وكان تحت إحدى الأشجار أحد «السافوبارد»، ولدٌ صغير يلبس
ثوبًا رثًا، ويرتدى على رأسه قبعة سوداء، يُرْقَصُ يربوعًا (حيوان من
القوارض)، على الأنغام الحادة لقيثارته .

وكان هناك شاب ما زال فى مقتبل العمر، رشيق، يرتدى زيًا أزرق
اللون، مُعْفَر الشعر، وبصحبته كلب كبير، توقف ليستمع إلى هذه
الموسيقى الريفية .

«إيفاريست» تعرف على «روبسبير»، رآه شاحبًا، نحيفًا، ووجهه
متصلبًا، تملؤه التجاعيد المؤلة، فجال بخاطره :

« يا له من إعياء ! وكم من الآلام تركت بصماتها على جبهته ! كم هو
شاق أن تعمل من أجل سعادة البشر ! فيم هو يفكر فى هذا الوقت ؟ نعمة
الأرغول الريفية هل تلهى فكره عن هموم الأعمال ؟ هل يفكر فى أنه تعاقد
مع الموت، وأن الساعة قد قربت لتأخذه ؟ هل يتأمل فى أن يعود إلى لجنة
الخلاص العام منتصرًا وقد انسحب منها متضجرًا من الفشل فيها مع
«كوثون»، و «سان جوست»، بأغلبية عاصية ؟ خلف هذا الوجه الغامض
ما هى الآمال التى تضطرب ؟ أو ما هى المخاوف ؟ ».

ومع ذلك، ابتسم «ماكسيمليان» للطفل، وقال له بصوت رقيق،
وبشهامة، بعض الأسئلة عن الوادى، والكوخ، وعن الأبوين اللذين

تركهما الصغير المسكين، ألقى إليه بقطعة نقد فضية، وواصل نزّهته، وبعد عدة خطوات، عاد لينادى على كلبه الذى عندما شم رائحة اليربوع، كَشَّرَ عن أنيابه أمام اليربوع الذى انتصب شعره .

- بروننت ! بروننت !

ثم اختفى في الممرات المظلمة .

لم يقترب «جاميلان» من المتنزه المنفرد احترامًا . ولكنه عندما تأمل هذه الهيئة الرقيقة التى كانت تتلاشى في جنح الظلام، وجه إليها هذا الرثاء العقلى.

«لقد رأيتُ حزنك يا ماكسيمليان»، وأدركت فكرك، كأبتك وإرهاقك، وحتى هذا التعبير عن الخوف المطبوع في نظراتك... «كل ما فيك يقول . «فَلْيَنْتَهِ الإرهاب، وليبدأ الإخاء ! أيها الفرنسيون ، كونوا متحدين وفاضلين وطيبين، وأحبوا بعضكم ...».

« إيه ، حسنًا ! سوف أساعدك في أهدافك، من أجل أن تستطيع بحكمته وطيبته، إنهاء الخلافات الأهلية، وإطفاء جذوة الحقد بين الإخوة، وأن تجعل الجُلاد بُسْتَانِيًّا لا يقطع إلا رءوس الكرنب والخس، وسوف أمهد أنا وزملائي في المحكمة طرق الغفران، باستئصال شأفة المتآمرين والخونة .

سوف نضاعف من اليقظة والقسوة، لن يفلت منا أى أثم، وعندما يسقط آخر رأس من رءوس أعداء الجمهورية تحت السكين سوف

تستطيع أن تكون متسامحاً دون جريمة، وأن تعمل على سيادة البراءة والفضيلة على فرنسا، يا أبا الوطن !».

ابتعد النزيه ، ويلقيه رجالان بقبعتين مستديرتين وسروال من «المانكان»، أحدهما مظهره شرس ، طويل ونحيف، له عين التنين، ويشبه «تاليان»، تلاقيا معه عند منعطف الممر، رمقاه بنظرة عابرة، وتظاهرا بأنهما لا يعرفانه، ومضيا في طريقهما، وعندما أصبحا على مسافة بعيدة بحيث لا يسمعهما أحد، تمثما بصوت منخفض . إذن ها هو ذا، الملك، والبابا، والإله . و «كاترين تيون»^(١) هي نبيته .

— ديكتاتور خائن ، طاغية^١ وهو يائساً من عائلة بروتس .

— ارتعد أيها الفاجر ! صخرة «طاربيان»^(٢) قريبة من «الكابيتول»^(٣).
الكلب بروننت اقترب منهما ، فالتزما الصمت ، وحنَّ الحُطَى .

* * *

أنت نائم يا «روبسبير»^١ الساعة تمر والوقت الثمين ينساب ...

أخيراً ، في الثامن من «الثيرميدور»، في الجمعية الوطنية، نهض النزيه ليتحدث. أو تطلعين مرّة أخرى يا شمس يوم ٣١ مايو؟ «جاميلان» ينتظر ويتعشم. إذن «روبسبير» سوف ينتزع مقاعد يزدريها هؤلاء

(١) كاترين تيون عَرَّافة فرنسية (١٧٩٤) .

(٢) طاربيان : صخرة في روما كان يُزَمَّى المجرمون من فوقها .

(٣) الكابيتول : معبد وقلعة في روما

المشرعون المذنبون أكثر من الفيدراليين، وأكثر خطراً من دانتون ... لا !
ليس بعد . قال : « لا أستطيع أن أقرر تمزيق الحجاب الذى يغطى هذا
السر الخفى العميق للظلم، تمزيقاً كاملاً » .

والصاعقة انتشرت دون أن تصيب أى أحد من المتآمرين، أخافتهم
جميعاً، ونذكر منهم حوالى ستين - منذ خمسة عشر يوماً - لم يجرءوا
على النوم فى فراشهم .

«مارات» عَيْنُ الخونة، أمّا هو فكان يشير إليهم البنان. النزيه يتردد،
ومنذئذ، هو المتهم....

وفى المساء، فى ردهة نادى، كانوا يتزاحمون فى القاعة، وفى الممرات، وفى
الفناء. جميعهم هنا، الأصدقاء المرموقون، والأعداء الصامتون. قرأ عليهم
«روبسبير» الحديث الذى استمعت إليه الجمعية الوطنية فى صمت رهيب،
وصفق له اليعقوبيون تصفيقاً حاداً .

قال الرجل : تلك هى وصيتى بعد مماتى، وسوف تشاهدوننى وأنا
أشرب سم الشوكران^(١)، أشربه فى هدوء .

أجاب «دافيد» : أنا سأشربه معك .

- «الجميع ، الجميع» هكذا صاح اليعقوبيون الذين افترقوا دون أن
يقولوا شيئاً .

وبينما كان موت العادل يُعدُّ ، كان «إيفاريست» ينام نومًا كنوم الطلبة

(١) نوع من النباتات السامة، وبه قُتل سقراط

في حديقة الزيتون. وفي اليوم التالي، توجه إلى المحكمة حيث عُقدت الجلسة في قطاعين، وكان القطاع الذي هو عضو فيه، يُحاكم أحدًا وعشرين متهمًا بالتواطؤ في مؤامرة «لازار»، وأثناء هذا الوقت وصلت الأخبار: «الجمعية الوطنية - بعد جلسة استمرت ست ساعات - أصدرت مرسومًا باتهام «ماكسيميليان روبسبير»، و «كوثون»، و «سان جوست»، مع «أوجيستان روبسبير» و «لوباس»، الذين طالبوا المشاطرة في مصير المتهمين. نزل المنفيون الخمسة إلى حرم المحكمة».

وعُلم أن رئيس القطاع الذي يعمل في القاعة المجاورة، المواطن «دوماس» ألقى القبض عليه وهو على مقعده، وبينما استمرت الجلسة، سُمِعَتْ دقة الإنذار، ورن ناقوس الخطر.

تلقى «إيفاريست» وهو على مقعده من مجلس العموم أمرًا بالتوجه إلى دار البلدية ليشترك في المجلس العام، وعند دق النواقيس والطبول أصدر قراره مع زملائه، وجرى إلى مسكنه يُقبِّل والدته ويأخذ وشاحها.

كان ميدان «ثيونفيل» خاليًا، والقطاع لم يجرؤ على أن يعلن نفسه لا ضد ولا مع الجمعية الوطنية. كان الناس يُلامسون الأسوار، وينسابون في الممرات، ويعودون إلى مساكنهم.

وعلى رنة ناقوس الخطر ودقة الإنذار، أجابت ضلف الشبابيك تتخبط مع صرير المصاريع.

المواطن «ديبون إينيه» اختبأ في دكانه، والبواب «ريماكل» احتفى في غرفته، و«جوزفين» الصغيرة تحتضن في خوفٍ قلبها «موتون». المواطنة

الأرملة «جاميلان» تئن من غلاء المواد الغذائية، سبب كل سوء. وعند نهاية السلم، التقى «إيفاريست» بإيلودي لاهتة، وخلاصتها السوداء ملتصقة على جيدها الندي

- بحثتُ عنك في المحكمة ولم أجِدْكَ لانصرافك قبلي بلحظات. إلى أين أنت ذاهب ؟

● إلى دار البلدية .

- لا تذهب هناك ، ستهلك نفسك ! ألقى القبض على «هنريوت» ..
والقطاعات متعطلة، وقطاع «البيك»، وقطاع «روبسبير» قابع في هدوء ،
وأعرف ذلك لأن أبي عضو فيها ، وإذا ذهبَ إلى دار البلدية فإنك ستهلك
بلا داع .

● أتودين أن أكون جباناً ؟

- بالعكس، بل الشجاعة أن تكون مخلصاً للجمعية الوطنية، وأن
تطيع القانون .

● القانون يموت عندما ينتصر الفاسقون .

- «إيفاريست»، استمع إلى «إيلودي»، استمع إلى أختك، تعالِ اجلس
بجوارها، لتُهدِّئك .

نظر إليها ، لم تَبْدُ له مشتهاةً مثلما تبدو له الآن، وهذا الصوت لم يكن
له وقع شهوانى ومقنع مثلما هو في هذه المرة .

- خطوتان ، خطوتان فقط يا صديقى !

فاستدرجته نحو السطح الذى يحمل قاعدة تمثال مقلوب (تمثال هنرى الرابع). تحيط به مقاعد يجلس عليها المتنزهون والمتنزهات. إحدى بائعات الأشياء الثقافية تعرض «الدانتيلاً»، وبائع المشروب الساخن يحمل على ظهره إناءً بصنيسور ، ويُحرك الجرس، وبنات صغيرات يمرحن .

وعلى الضفة صيادون يجلسون لا يتحركون وصناراتهم في أيديهم. كان الجو عاصفًا، والسماء مُلبدة. و«جاميلان» منحنيًا على الحاجز، شاخصًا ببصره نحو الجزيرة المدببة، والتي تشبه مقدمة المركب، كان يُنصت إلى حفيف قمم الأشجار مع الريح، وكان يشعر في نفسه برغبة جامحة في الهدوء والعزلة .

وكصدى صوت حلو من فكرها تَنَهَّدَ صوت « إيلودى » :

— هل تتذكر عندما كُنْتُ ترى الحقول ؟ كُنْتُ أتمنى أن تكون قاضيًا للسلام في قرية صغيرة، تلك في نظرك هى السعادة .

ولكن من خلال حفيف الأشجار، وصوت السيدة ، سمع رنين الإنذار ودقات الناقوس، والمعمعة البعيدة للخيول والمدافع على البلاط .

وعلى بعد خطوتين منه كان شاب يتحدث مع مواطنة أنيقة ، يقول :

— هل تعرفين الخبر ؟.... دار الأوبرا أقيمت بشارع «لالوا».

عندئذ كان الهمس يدور حول اسم «روبسبير»، ولكن برهبة، لأنه ما

زال يُخْشَى جَانِبُهُ . وتُخْفَى النسوة شائعات سقوطه كما يُخْفَيْن
الابتسامة .

تناول « جاميلان » يد « إيلودى » ولكن يتركها فجأة ويقول
- الوداع ! لقد أشركتكِ في مصائرى الرهيبة، وأذويتُ حياتكِ إلى الأبد.
الوداع . هل في وسعك أن تنسينى !
قالت له . هذه الليلة لا تُعَدُّ إلى مسكنك، تعالَ إلى متجر «لامور بانتر».
لا ترن الجرس، اقذف الشباك بحصوة، وسوف أفتح لك الباب بنفسى،
سألاقيك في المخزن .

- سوف تَرَيْنِى منتصراً، أو لن تَرَيْنِى إلى الأبد . وداعاً ! وعندما اقترب
من دار البلدية سمع ضجة ثقيلة تتصاعد إلى السماء لأيام الأعياد في
ميدان «لاجريف» يسمع قعقة أسلحة، ويرى تلالؤ الإشارات
والأزياء، ومدافع «هنريوت» رابضة .

ارتقى سلم الشرف، وعند دخوله إلى قاعة المجلس، وَقَّعَ في كشف
الحضور . والمجلس العام لمجلس العموم بإجماع ٤٩١ عضواً حاضرين
أعلنوا أنهم إلى جانب المُبعدين .

أمر العمدة بإحضار لائحة حقوق الإنسان، وقرأ المادة التى تقول .
«عندما تغتصب الحكومة حقوق الشعب، فالثورة من أجل الشعب هى
من أقدس الواجبات التى لا غنى عنها»، وكبير قضاة باريس يعلن أنه فى
الانقلاب السياسى للجمعية الوطنية، مجلس العموم يُعارض الثورة

الشعبية. أعضاء المجلس العام أقسموا اليمين على أن يموتوا في مكانهم. اثنان من ضباط البلدية كُلِّفَا بالتوجه إلى ميدان «لاجريف» لِيَدْعُوا الشعب إلى الانضمام إلى قضاة حتى يُنقذوا الوطن والحرية.

والتقى بعضهم ببعض، وتبادلوا الأنباء، وأبدت الآراء، ومن بين هؤلاء القضاة قليل من الحرفيين. مجلس العموم المجتمع هنا كما أسفر عنه التطهير اليعقوبي مؤلف من : قضاة، ومحلفين من المحكمة الثورية، وفنانين مثل «بوفاليه» و «جاميلان»، ومن ذوى الدخول (وهم من لا عمل لهم)، ومدرسين، وبورجوازيين موسرين، وتجار كبار، ورءوس مُغْتَرِبَة، وبطون تتدلى منها حُلَى بسلاسل، قليل من القباقيب، وبنطالونات، وكارمانبولات، وأغطية رأس، وقبعات حمراء .

هؤلاء البورجوازيون عددهم كبير، عندهم إصرار، ولكن إذا فكرنا في الأمر تقريبًا كل من تحتويه باريس من جمهوريين حقيقيين واقفين في مقر البلدية، كما لو كانوا على صخرة الحرية، يحتويهم محيط من اللامبالاة .

ومع ذلك، فقد وصلت أنباء طيبة : جميع السجون - حيث كان المبعدون مسجونين - فتحت أبوابها وأطلقوا ضحاياهم .

وصل «أوجيستان روبسبير» من الحبس، وكان أول من دخل دار البلدية، مُحْتَفًى به .

وفي الساعة الثامنة، عَلِمَ أن «ماكسيمليان» - بعد أن قَاوَمَ طويلاً - توجه إلى مجلس العموم. كان مُنْتَظَرًا، وسوف يَأْتِي، وجاء : دَوَى هتاف

هائل زلزل قباب قصر البلدية القديم، دخل محمولاً على عشرين ذراعاً. هذا الرجل النحيف، شديد النظافة إلى درجة الوسوسة، يرتدى زياً أزرق، وسروالاً أصفر، كان قد اتخذ مقعده وتحدث.

وعند وصوله أمر المجلس بإضاءة واجهة مجلس العموم في الحال، فهو رمز الجمهورية. تحدث بصوتٍ رفيع وبتأنٍ. تحدث بنقاء وبإسهاب، هؤلاء الحاضرون هناك الذين جازقوا بحياتهم من أجله تبينوا - في هيئة - أن هذا رجل صادق الوعد، ورجل لجان، ومنبر، لا يتسرع في اتخاذ أى قرار، ورجل عملٍ ثورى. اصطحبوه إلى غرفة المداولات. والآن جميعهم هناك. هؤلاء المبعدون المرموقون: «لوبياس»، «سان جوست»، «كوثون». «روبسير» تكلم. الوقت الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل، ويتكلم أكثر. وفي ذلك الوقت كان «جاميلان» في قاعة المجلس، يلصق جبهته إلى إحدى النوافذ، ينظر بقلق، يرى المصابيح يتصاعد دخانها في الليل المظلم.

ومدافع «هانريوت» رابضة أمام دار البلدية. وفي الميدان الذى يسبح في ظلام دامس، جَمْعٌ غفير مضطرب، قلق، مرتاب، وفي منتصف الليل وقد مضت ثلاثون دقيقة، انطلقت مشاعل من أحد أركان شارع «لافانيرى»، تحيط بمفوض من الجمعية الوطنية، متقلداً شاراته، ويُمسك بين يديه ورقة ويقرأ في ضوء أحمر قرار الجمعية الوطنية الذى يعتبر خارج حماية القانون أعضاء من مجلس العموم المتمرد، وأعضاء من المجلس العام الذين يساعدونه، أو المواطنين الذى يلبون نداه.

الخروج على القانون يعنى الموت دون محاكمة ! وهذا الأمر كفيل بتثبيط همّة أصحاب العزيمة القوية وتوهينها. شعر «جاميلان» بجبهته أثلجت، شاهد الجمع الغفير يغادر الميدان . وعندما أدار رأسه رأت عيناه أن القاعة التى كانت تموج بالمستشارين منذ برهة قد خلت تقريباً، لكنهم فى الواقع هربوا، وقد وقّعوا .

الساعة الآن الثانية. النزى يتداول فى القاعة المجاورة مع مجلس العموم والنواب المُبعدين .

«جاميلان» جابَ بعينه اليائستين أرجاء الميدان المظلم. شاهد على ضوء الشموع الركائز الخشبية تتلاحم على إفريز البقالة مع ضوضاء العوارض، والفوانيس تتوازن وتتأرجح هبّت ريح قوية، وبعد لحظة هطل سيل، وأصبح الميدان مُقفزاً، وهؤلاء الذين لم يطردهم القرار الصعب، شتتهم بضع قطرات من الماء. وهُجرت مدافع «هانريوت». وعندما ظهرت على ضوء البرق تنطلق فرق الجمعية الوطنية فى شارع «أنطوان» وبالشارع الرئيسى، أصبحت ضواحي مجلس العموم خالية تماماً .

أخيراً قرر «ماكسيميليان» أن يستعيد قرار الجمعية الوطنية من قطاع «لى بيك» .

المجلس العام تسلح بالسيوف والمسدسات والبنادق، ولكن صلصلة السلاح، ووقع الخطوات والنواقد المحطمة ملأت المجلس، وفرق الجمعية

الوطنية مرت من خلال قاعة المداولات مندفة كالجرف الهارى.
واندفعت إلى قاعة المجلس وانطلقت رصاصة ، ويرى «جاميلان»
«روبسبير» يقع مُحطَّم الفك .

ويمسك «جاميلان» بمديته، المدية التى تساوى ستة فلسات، والذي
فى يوم مَحْمَصَة قطع بها خبزًا من أجل أم مُعْصِرة، وأنه فى مزرعة
«أورانجيس» فى ليلة جميلة، «إيلودى» حفظتها على ركبتيه، وهى تسحب
الرهانات، فتحها يريد أن يغمدها فى قلبه: ولكنها اصطدمت بنتوء وانثنت
على الحلقة التى انفتحت وانجرح أصبعين من أصابعه. وسقط
«جاميلان» وهو يُدْمى، وبلا حراك، ولكنه كان يتألم من البرودة
القارصة، وفى خِصَم الصخب لصراعٍ مخيف ، وبازدراء ، استمع بكل
تمييز صوت الجندى الفارس « هنرى » يصيح :

– الطاغية لم يعد له وجود ، وتحطمت نجومه . الثورة سوف
تستأنف مجراها المتعاضم والمخيف .

« جاميلان » فقد وعيه .

وفى الساعة السابعة صباحًا ، أرسلت الجمعية الوطنية طبيبًا إليه
ليعالجه . الجمعية كانت ممثلة بالعناية من أجل شركاء «روبسبير» فهى
لا تريد أن يفلس أى واحد منهم من المقصلة، فتنقل الفنان الرسام،
والمحلف السابق ، وعضو المجلس العام السابق لمجلس العموم، نُقِلُوا إلى
البوابة الرئيسية .



10

وفي اليوم العاشر ، بينما كان «إيفاريست» ينام على سرير قذر في زنزانة نومًا محمومًا ، استيقظ مذعورًا ، وكان خائفًا خوفًا لا يوصف. باريس كانت في أبْهتها وبراحتها تبتمس للشمس ، ويُعث الأمل من جديد في قلوب المساجين. افتتح التجار متاجرهم، ويرى البورجوازيون أنفسهم أكثر ثراءً، والشباب أسعد حالًا، والنساء أكثر جمالًا ، بسقوط «روبسيير» .

عدد قليل فقط من اليعقوبيين، وبعض الرهبان الدستوريين، وبعض السيدات كبار السن كانوا يرتعدون خوفًا من رؤية الإمبراطورية تنتقل إلى الأشرار وإلى الفاسدين. وقد من محكمة الثورة يتكون من المدعى العام وقاضيين توجه إلى الجمعية الوطنية لتهنئتها بإحباط المامرات .

قررت الجمعية أن المقصلة سوف تُنقل من جديد إلى ميدان «لاريفوليسيون»، وكان الهدف من ذلك أن الأغنياء والمُرفَّهين والنساء الجميلات كلهم يستطيعون أن يروا - دون مضايقات - تعذيب «روبسيير» وموعده في نفس اليوم. الديكتاتور وشركاؤه كانوا خارجين

على القانون، ويكفى أن تثبت هويتهم عن طريق ضابطين من البلدية حتى تُسَلِّمهم المحكمة إلى الجَلَّاد، ولكن ظهرت إحدى الصعوبات : الإثباتات لا يمكن إجراؤها على الشكل، نظرًا لأن مجلس العموم بأسره خارج على القانون . صرحت المحكمة بإجراء الإثبات للهوية عن طريق شهود عاديين.

وأُقْتِيدَ الحكام الثلاثة إلى الموت مع شركائهم الأساسيين، في وسط صيحات الفرح والخوف، واللعنات والضحكات، والرقص .

وفي اليوم التالي أُخرج « إيفساريست » - الذي استرد بعض قواه ، وتقريبًا استطاع أن يقف على ساقيه - أُخرج من زنزانته، واقتيد إلى المحكمة، وُضِعَ على مقعد المدرج حيث رآه مرات عديدة مشغولاً بالمتهمين، وحيث كان الضحايا من المشاهير أو من المغمورين يجلسون منتظرين دورهم. والآن يثن المدرج تحت وطأة سبعين فردًا، ومعظمهم أعضاء في مجلس العموم، والبعض الآخر من المحلفين، مثل «جاميلان»، واعتبروه هو أيضًا خارجًا على القانون. شاهد مقعده، والمسند الذي كان من عادته أن يتكىء عليه، الموضع الذي كان يُرْهَب منه المساكين، الموضع الذي كان عليه أن يعاني فيه من نظرات «جاك موبيل»، و «فورتونيه شاساني»، و «موريس بروتو»، ونظرات الاستعطاف من المواطنة «روشيمور»، والتي كانت قد ساعدت في تعيينه مطلقًا، والتي كانت مكافأتها على ذلك قرارًا بقتلها .

ورأى مرة أخرى - متصدرًا المدرج، حيث يجلس القضاة على ثلاثة مقاعد كبيرة من خشب الأكاجو المبطنة بالقطيفة الحمراء - التماثيل

النصفية لكل من «كالييه» و «مارات»، وكذلك تمثال «بروطس» النصفى الذى شاهده ذات يوم.

لا شىء تغير، لا الفتوس ولا شعارات الفاشية، ولا القلانس الحمراء وقصاصات الورق، ولا الشتائم التى تقذف بها الحائكات من المنصات على هؤلاء الذين حُكِم عليهم بالموت، ولا روح «فوكييه - تانفيل» العنيد، المجتهد فى عمله، يُقَلَّب أوراقه بحماس، أوراق قتل الإنسان، ويُرسَل كقاضٍ متكاملٍ أصدقاء الأمس إلى المقصلة.

المواطن «ريماكل» بواب وترزى، و «دييون إينييه» نجار فى ميدان ثيونفيل، وعضو لجنة المراقبة لقطاع لوبون - نوف، يعرفان «جاميلان إيفاريست»، كفنّان ورسام، ومحلف سابق فى محكمة الثورة، وعضو سابق بالمجلس العام لمجلس العموم. وكانا قد شهدا من أجل الحصول على حوالة حكومية بمبلغ مائة فلس، على حساب القطاع، ولكن نظرًا لما كان بينهما من علاقة جوار وصداقة من المتهم، فقد أبديا المضايقة من تلاقى نظراتهما مع نظراته، باختصار، كان الجو حارًا، وكانوا عطشى، وكانوا مضطرين إلى الانصراف لشرب كوب من النبيذ .

بذل «جاميلان» مجهودًا لكى يصعد إلى العربة، لقد فقد دماء كثيرة، وجرحه يسبب له آلامًا شديدة. سَاطَ الحوذى فرسه النحيل، وبدأ الركب يتحرك فى وسط الهمهمات الساخرة .

بعض النسوة اللاتى يعرفن «جاميلان» قذفنه بهذه الكلمات :

– هيا إذن ! يا سفاك الدماء ! أيها القاتل بثمانية عشر فرنكاً في اليوم!....

لم يبتسم فقلن . انظرن إليه ، كم هو شاحب ، الجبان !
كانت هؤلاء النسوة هن أنفسهن اللائى سَبَبْنَ – منذ عهد قريب –
المتآمرين والأرستقراطيين، والساخطين، والمتسامحين الذين أرسلهم
«جاميلان» وزملاؤه إلى المقصلة .

انعطقت العربية إلى الشارع الرئيسى، شارع «مورفونديس»، وصلت
ببطء إلى «البون – نوف» وشارع «لامونيه» وتوجهوا إلى ميدان الثورة،
إلى منصة إعدام «روبسبير». كان الجواد يتعثر، والحدوئى يلهب أذنيه
بالسوط فى كل لحظة .

كان جمع المتفرجين الغفير يؤخر الموكب، مبتهجين متزاحمين،
الجمهور يُهنئ شرطة الدَّرك الذين يمتطون جيادهم ، وعلى ناصية
شارع « هوتوريه » تتزايد الشتائم والسباب .

وبعض الشباب فى مطعم جالسون إلى الطاولات فى قاعات المطعم ،
حسب ذوق العصر ، ووقفوا فى النوافذ يطلون منها وفى أيديهم المناشف،
وصاحوا :

– أيها المتوحشون، ها هم أكَلُوا لحوم البشر الدماء !
وعندما اصطدمت العربية بكوم من القمامة لم يُرَفَع خلال هذين
اليومين الأخيرين، حيث وقعت الاضطرابات، انفجر أولاد الذوات قائلين
وهم يضحكون :

– العربية المتوحلة !... اليعقوبيون في القمامة !

كان «جاميلان» يفكر ، واعتقد أنه فهم :

– «سأموت لا محالة، أعتقد ذلك. من المنصف أننا نتلقى هذه الإهانات الموجهة إلى الجمهورية، والتي يجب علينا أن ندافع عنها .

كنا ضعفاء ، وجعلنا من أنفسنا آثمين بالغفران، وخُناُ الجمهورية نحن نستحق مصيرنا. «روبسبير» نفسه الطاهر القديس أخطأ بالتى هى أحسن، وبدمائة خلقه، ومُحييت أخطاؤه باستشهاده، وبالاقتداء به أنا خُنْتُ الجمهورية، فَهَلَكْتُ ، ومن الإنصاف أن أموت معها . لقد حافظتُ على دمائى، فيُهرق دُمى ! وأَهْلِك ! فأنا أستحق ذلك...» .

وبينما كان يفكر هكذا إذ شاهد لافتة «لامور بانتر»، فانهمرت في قلبه سيول من الماراة والعدوبة. كان المتجر مغلقاً، كذلك النوافذ الثلاث الخاصة بالمطعم جميعها كانت مغلقة .

وعندما مرت العربية أمام النافذة اليسرى – نافذة الغرفة الزرقاء – امتدت يد امرأة، في بنصرها خاتم من الفضة، أبعدت مشربية النافذة، وألقت نحو «جاميلان» زهرة قرنفل حمراء، لم تستطع يداها المقيدتان أن تتلقاها، ولكنه كان يحبها كرمز وصورة لشفتيها الحمراء المعطرتين، كانتا تُنَعشان شفتيه .

واغرورقت عيناه بالدموع، متأثراً تأثراً عميقاً بهذا الوداع الجميل الذى رآه يرتفع في ميدان الثورة، ألا وهى المقصلة الدامية .

* * *

كان نهر السين يجحف بثلوج نيفوس^(١) (أى بعد ستة شهور ، نهاية ديسمبر ١٧٩٤ أو يناير ١٧٩٥). وأحواض التسويليرى، والجداول، والينابيع، كانت متجمدة. وكانت ريح الشمال تهب فى الشوارع بموجات من الصقيع، وكانت أنفاس الجياد تصبح بالبخار الأبيض؛ وكان الأهالى وهم يمرون عند باب صانعى النظارات ينظرون إلى مقياس درجة حرارة الجو .

كان أحد العاملين يمسح القطرات المتكثفة على زجاج متجر «لامور بانتر»، والفضوليون يلقون نظرة على الصور المطبوعة التى تلاثم ذوق الوقت. ومن هذه الصور صورة «روبسبير» وهو يعتصر قلباً مثل الليمونة فى كأس ليشرب منه الدم، ومنها قطع رمزية كبيرة مثل التيجروقراطية (حكم النمر)، وذلك لم يكن سوى أفعوانات، وثعابين، ووحوش مخيفة أطلقها الطاغية على فرنسا.

ومنها أيضاً، مؤامرة «روبسبير» المروعة، واعتقال «روبسبير»، وموت «روبسبير» .

وفى ذلك اليوم - بعد طعام الظهر - دخل «فيليب ديماهيس» متجر «لامور بانتر» يحمل تحت إبطه لوحاته، وأحضر إلى المواطن «جان بليز» لوحة قد حفرها حديثاً بالتنقيط : «انتحار روبسبير». الإزميل القاسى فى يد النحات صَنَعَ من «روبسبير» شخصاً مُقَرَّرًا إلى أقصى درجة .

(١) نيفوس : الشهر الرابع من السنة الجُمهوية، ما بين ٢١ ديسمبر - ١٩ يناير . ويجحف يُلْقَى ويرمى ويجرف .

لم يكن الشعب الفرنسى بعد منتشيًا بجميع هذه الأعمال التى تختص بالخزى والرعب لهذا الرجل الذى يتحمل عبء جميع جرائم الثورة، ومع ذلك فلإن بائع الرسم والصور الذى يعرف الجمهور طلب من «ديماهيس» أن يحفر له من الآن فصاعدًا موضوعات عسكرية.

— لابد لنا من انتصارات وفتوحات، وسيوف، وقبعات بالريش الملون، وقادة. نحن ذهبنا من أجل المجد. أشعر بذلك بداخلى، قلبى يخفق لقصة مغامرات جيوشنا الباسلة.

وعندما أحس بأى شعور فمن النادر ألا تحس به الناس جميعًا فى نفس الوقت. كل ما نحتاج إليه، هم الغزاة المحاربون، والنساء، أى: مارس^(١) وفينوس^(٢).

— أيها المواطن «بليز»، عندى أيضًا لوحتان أو ثلاث لوحات لجاميلان، والتى أعطيتنى إياها لأحفرها، أهى مطلوبة؟
● كلا، مطلقًا.

— وبصدد «جاميلان»، فبالأمس، عندما مررتُ فى شارع «لوتميل» وجدت عند بائع «روباييكا»، الذى يقع حانوته أمام دار «بوماشييه» جميع لوحات هذا البائس. كانت توجد هناك لوحة «أوريست وإليكترا». رأس «أوريست» التى تشبه رأى «جاميلان» جميلة حقًا،ؤكد لك ذلك...

(١) مارس: إله الحرب كما جاء فى الأساطير.

(٢) فينوس إلهة الجمال عند الإغريق.

الراس والذراع غاية في الروعة... وقال لي بائع «الروبائيكيا» إنه لم يكن مترددًا في بيع هذه اللوحات إلى فنانين يرسمون عليها هذا المسكين «جاميلان» ! كان يمكنه أن يكون نابغة من الطراز الأول لو لم يعمل في السياسة .

● كان له روح المجرم! أجاب بذلك المواطن «بليز». لقد أَمَطْتُ عنه اللثام في هذا المكان نفسه، في حين كانت غرائزه دموية، وأيضًا كانت مكبوتة، لم يكن يسامحني قط...! كان وغدًا جميعًا .

– الصبى المسكين ! كان مخلصًا . المتعنتون هم الذين تسببوا في هلاكه .

● أعتقد أنك لا تدافع عنه يا «ديماهيس»!... فهو لا يستحق الدفاع عنه .

– كَلَّا أيها المواطن «بليز»، لا يمكن الدفاع عنه .

ويربُّتُ المواطن «بليز» كتفَ «ديماهيس» الجميل ويقول :

● الزمان تغير ، ويمكن أن ندعوك «بارباو» الآن، إن الجمعية الوطنية تذكر المبعدين... فيمكنك يا «ديماهيس» أن تنقش لى صورة لشارلوت كورداى .

دخلت المتجر سيدة سمراء، تلتف في فراء، وتبدو عليها العظمة، وحيث المواطن «بليز» بإيماءة خفيفة، إيماءة ودية ورزينة. كانت «جولى جاميلان»، ولكنها لم تعد تحمل هذا الاسم المشين، أطلقت على نفسها

اسم «المواطنة أرملة شاسانى»، وكانت ترتدى تحت معطفها عباءة حمراء، إكراما لقمصان الإرهاب الحمراء.

كانت «جولى» فى بداية الأمر تشعر بالنفور من عشيقه «إيفاريست»، وكان كل ما كان يتعلق بأخيها يُعتبر كريهاً بالنسبة لها.

ولكن المواطنة «بليز» - بعد وفاة «إيفاريست» - استقبلت الأم الثكلى عندها فوق سطوح المتجر «لاموربانتر». و «جولى» أيضاً كانت لاجئة إليه، ثم عثرت على مكان لها فى محل لبيع الملابس فى شارع «لومبارد». وشعرها القصير، «على طريقة الضحية»، ومظهرها الأرستقراطى، وجدّادها، كل ذلك كان يجذب إليها تعاطف أولاد الذوات. و «جان بليز» الذى هجرته «روز تيفينان» نصف هجر قدّم إليها خدمات قبلتها منه. فى ذلك الوقت كانت «جولى» تحب أن ترتدى ملابس رجال، مثلما كانت تفعل فى الأيام المأساوية، وأوصت بتفصيل ملابس جميلة تليق بشاب أنيق، وكانت تذهب دائماً حاملة عصاً غليظة فى يدها، وتتناول طعام العشاء فى بعض «كباريات سيفر أو مودون» مع فتاة عاملة فى محل أزياء. لا يُعوّض حزنها أى عزاء عن موت زوجها الشاب الذى تحمل اسمه، هذه الأنثى «جولى» لا تجد أى راحة فى حزنها إلا فى خوفها، وعندما كانت تقابل أى يعاقبة كانت تُؤلّب ضدهم المارة بإطلاق صرخات الموت. كان يتبقى لها بعض الوقت لتقضيه مع أمها، التى كانت بمفردها فى غرفتها تتمتع على سبحتها أدعية طوال اليوم. لقد أصبحت ثكلى فى ابنها الذى انتهت حياته نهاية مأساوية، وتشعر بالألم لذلك.

لقد أصبحت «روز» الصديقة المستديمة لإيلودي، والتي كانت
تأكيد تنسجم مع حمواتها .

سألت المواطنة «شاساني» .

- أين إيلودي ؟

ويُظهر «جان بليز» بأنه لا يعرف مطلقاً .

كان يهدف من ذلك إلى رسم خطة . جاءت «جولي» لتصطحبها
«لاتيفينان» في شارع «مونصو»، حيث الكوميديانة تقيم في منزل
بحديقة إنجليزية

في البداية الرئيس، بة كانت «لاتيفينان» قد تعرفت على مَورَّ
للجيوش ، هو الموان «مونفورت» . كانت أول من خرجوا
السجن بتوسل من «جان بليز»، وحصلت على الإفراج للمد
«مونفورت»، الذي لم يكذب يتحرر حتى زود الفِرَق بالمواد الغذ
وضارَبَ على أرض «حى المشتل» .. وقد شَيَّد المهندسون : له
وأوليفين، وويلي، فيها منازل جميلة، في ظرف ثلاثة أشهر، و
ارتفعت قيمة الأرض فيها إلى ثلاثة أمثال .

كان «مونتنفورت» منذ أن سُجن في «لوكسيمبورج»
«لاتيفينان»، أهدى إليها فندقاً صغيراً يقع بالقرب من «تيفولي» و
«دي روشيه»، كانت قيمته عالية، ولم يكلفها شيئاً ، وبيعت
المجاورة، واسترد قيمتها عدة مرات .

كان «جان بليز» رجلاً شهماً، وكان يعتقد أنه لا بد للمرء أن يتحمل ما لا يستطيع منعه، فترك «لاتيفينان» إلى «مونتفورت» دون أن يختلف معها.

وبعد وقت قصير من وصول «جولى» إلى «لامور بانتر» نزلت «إيلودى» إلى المتجر وهى فى كامل زينتها، وبالرغم من قسوة الطقس، فإنها كانت تتردى تحت معطفها ثوبها الأبيض العارى، كانت تبدو شاحبة الوجه، ناحلة القوام، ونظراتها تسرى واهنة، وكل كيانها كان ينطق بالشهوة. ذهبت المرأتان عند «لاتيفينان» حيث كانت تنتظرهما. اصطحبهما «ديماهيس»، والممثلة كانت تستشيره من أجل زخرفة فندقها، وهو كان يحب «إيلودى»، والتي كانت فى هذا الوقت أكثر من شبه مصممة على ألا تتركه يعانى أكثر.

وعندما مرت السيدتان عند «مونصو»، حيث دُفن تحت طبقة من الجير، هؤلاء الذين نُكِّل بهم فى ميدان «لاريفوليسيون»، قالت «جولى» :
- هذا حسن أثناء البرد ، ولكن فى الربيع فإن الراوائح الذى تنبعث من هذه الأرض تتسبب فى تسمم نصف المدينة .

استقبلت «لاتيفينان» صديقتها فى غرفة استقبال أثرية، حيث كانت مقاعدها الوثيرة وكنباتها مرسومة بريشة «دافيد»، وبحفر بارز روماني، وكانت منسوخة بالطريقة التدريجية (طريقة كان يستخدمها الفنانون فى القرن الثامن عشر فى فرنسا، يستخدم فيها الفنان لوناً واحداً،

متدرجاً من الغامض إلى الفاتح، أو بالعكس)، ويسود ذلك كل الحوائط، وفوق التماثيل، والتماثيل النصفية، وشمعدانات مدهونة بالبرونز .

وكانت تضع باروكة مُجَعَّدة في لون القش الأصفر ... في هذا العصر كانت الباروكات منتشرة جداً ، كان يُقَدَّم منها اثنتا عشرة، أو ثمانى عشرة كهدية من الخطيب إلى خطيبته . وكانت ترتدى ثوباً ضيقاً (على الطريقة الفينوسية) يحبس جسدها كأنه غلاف .

ثم أُلقت بمعطف على كتفها ، واصطحبت صديقتها وفنانَ الحفر إلى الحديقة التى يرسمها «لودو»، والتى لم تكن سوى مجموعة فوضوية من الأشجار العارية، وبقايا مواد بناء. وكانت تعرض فيها - رغماً عن هذا - كهفَ فينيال^(١)، وكنيسة صغيرة قوطية بناقوس ، ومعبدًا ، وحامولة .

وتقول مشيرة إلى باقة من الصنوبريات : أريد أن أقيم نصباً تذكاريًا للمسكين «بروتو ديزيليت». لم أكن أتجاهله، كان ودودًا. لقد دَبَحَهُ الوحوش، فبكيتُه كثيرًا . «ديماهيس»، أريدك أن ترسم لى جِرَّةً فوق عمود.

وأضافت فى الحال .

- شىء مؤسف ... كنت أريد أن أقيم حفلً باليه هذا الأسبوع، ولكنَّ جميعَ عازفى الكمان محجوزون لمدة ثلاثة أسابيع مقدماً. المواطنه

(١) كهف مشهور بإسكتلندا

«تاليان» تقيم كل مساء حفلة رقص. وبعد تناول العشاء، اصطحبت
عربة «لاتيفينان» الصديقات الثلاث «و «ديماهيس» إلى مسرح «فايدو»،
وكان كل ما هو أنيق في باريس مجتمعاً فيه. النساء، وتسريحاتهن «على
الطريقة القديمة»، أو «على طريقة الضحية»، وبأثواب مفتوحة أرجوانية
أو بيضاء، أو باللون الذهبي، والرجال يرتدون «ياقات» سوداء مرتفعة
جداً، وتختفى ذقونهم في أربطة عنق بيضاء عريضة.

كان الإعلان عن مسرحية «فيدر»^(١) و «كلب الجنائى». كانت الصالة
بأكملها تقول النشيد المُحَبَّب إلى الشباب الأنيق وأولاد الذوات، وهو
«صحة الشعب».

فُتح الستار، وظهر على المسرح رجل ضخم وقصير: كان هو «لايس»
الشهير، وشَداً بصوته الجميل الصداح:

— أيها الشعب الفرنسى، شعب الإخوان!.....

ودَوَّى تصفيق هائل، حتى أن كريستال الثريا سمع رنينه. ثم تتناقل
بعض الهمهمة، وأجاب أحد المواطنين بقبعة مستديرة، أجاب من ردهة
المسرح بالنشيد الوطنى الفرنسى:

— هيا يا أبناء الوطن!.....

واختنق هذا الصوت وسط الهتافات، ودوت الصيحات:

— ليسقط الإرهابيون! الموت لليعقوبيين.

(١) رواية لراسين.

ثم طلبوا من «لايس» أن يصدق مرة أخرى بالنشيد «الثيرميدورى» .

– أيها الشعب الفرنسى ، شعب الإخوان !....

وفى جميع صالات العرض كان يوجد تمثال نصفى لمارات على عمود
أو على قاعدة ، وفى مسرح «فايدو» كان هذا التمثال النصفى قائمًا على
قاعدة صغيرة ، من ناحية «يمين الممثل» ، على إطار البناء الذى يُغلق
المسرح.

وبينما كان «الأوركسترا» يعزف افتتاحية «فيدر» و«هيوليت» ، أشار
شاب أنيق بعصاه الغيظة إلى التمثال النصفى لمارات، وصاح :

– ليسقط «مارات» !

وصاح كل من فى القاعة مُرددin :

– ليسقط «مارات» ! ليسقط «مارات» !

وساد الجمع أصواتٌ بليغة تقول :

– إنه لمن العار أن يظل هذا التمثال النصفى قائمًا !

– «مارات» الفاجر يسود فى كل مكان خزيًا لنا ! إن عدد هذه التماثيل
النصفية له تساوى عدد الرؤوس التى أراد قطعها .

– أيها الضفدع السام !

– أيها النمر ! أيها الثعبان الأسود !

وفجأة صعد أحد المتفرجين على حافة «اللوج» الذى يجلس فيه، ودَفَعَ بالتمثال، وقلَّبَهُ. وهوى الرأس المصنوع من الجبس وتناثر قطعاً على رءوس الموسيقيين، وسط تصفيق جميع من فى القاعة، ثاروا، ونهضوا وهتفوا بنشيد «صحة الشعب» :

– أيها الشعب الفرنسى، شعب الإخوان !....

ومن بين المغنيين المتحمسين، تعرفت «إيلودى» على الجندى الفارس الجميل، كاتب المدعى الصغير «هنرى»، حبها الأول .

وبعد العرض استدعى «ديما هيس» الجميل عربية، واصطحب المواطنة «بليز» إلى متجر «لاموربانتر». وفى العربية أمسك الفنان بيد «إيلودى» بين راحتيه قائلاً :

– هل تُصدقين يا «إيلودى» أننى أحبك ؟

● اصدقك ما دُمْتَ تحب كل النساء .

– أحبهن فى شخصكِ أنتِ .

ابتسمت «إيلودى» وقالت :

● قد اضطلع بمهمة عظيمة، بالرغم من الباروكات السوداء اللون والشقراء والصهباء الواسعة الانتشار، إذنْ فلأتهياً لكى أكون – من أجلك – جميع أنواع السيدات .

– «إيلودى» أقسم لكِ

● ماذا ! قَسَمَ أيها المواطن «ديماهيس» ؟ إِمَّا أَنْكَ حَسَنَ الطوية، أو
أَنْكَ تَظُنُّنِي ساذجة.

لم يجد «ديماهيس» شيئاً يجيبها به . واعتبرت نفسها هي المنتصرة،
بأنها انتزعت منه روحه .

وعلى ناصية شارع «لالوا» سمعوا أغنائى وصياحاً، ورأوا أشباحاً
تتحرك حول جمرات نيران، كانت مجموعة من الشباب المتأنق الذين بعد
أن خرجوا من المسرح الفرنسى قد أحرقوا تمثالاً يمثل صديق الشعب.
وبشارع «هونورية» اصطدمت قبعة الحوذى المقرنة بتمثال مضحك
لمارات معلق على المشنقة.

عَبَّرَ الحوذى عن سروره بهذا اللقاء ، واستدار نحو البورجوازيين،
وقص عليهم كيف أنه فى مساء اليوم السابق لطَّخَ بائع الكرشة فى شارع
«مونتورجاي» رأس «مارات» بالدماء وهو يقول : «هذا ما يحبه»، وكيف
أن بعض الصبية فى سن العاشرة قد قذفوا تمثاله النصفى بالقاذورات،
وبأى الألفاظ كان المواطنون يصيحون : «ها هو ذا مُسْتَقَرَّةُ!».

وبعد ذلك سُمِعَت الأغنية عند جميع المطاعم وبائعى الليمونادة :

— أيها الشعب الفرنسى ، شعب الإخوان !.....

وصلت «إيلودى» إلى متجر «لاموربانتر»، وقفزت من العربة وهى
تقول :

— وداعاً، مع السلامة !

ولكن «ديما هيس» توسل إليها بلطف، وتذلل لها بمنتهى الرقة، قائلاً بأنها لا تواتيها الشجاعة لتتركه على الباب .

قالت : الوقت متأخر ، ولن تبقى إلا لحظة .

وفي الغرفة الزرقاء فزعَّت عنها معطفها ، وظهرت في ثوبها الأبيض على طريقة القدماء، ممثلة ودافئة ، وقالت له :

— ربما تشعر البرودة، سأوقد النار ، إنها مُعدَّة .

أشعلت القداحة، وأشعلت نيران المدفأة. احتضنها «فيليب» بتلك الرقة التي تظهر القوة، وشعرت بعذوبة غريبة . ولما شعرت بأنها استجابت تحت تأثير القبلات، فتملصت منه قائلة :

— دعنى .

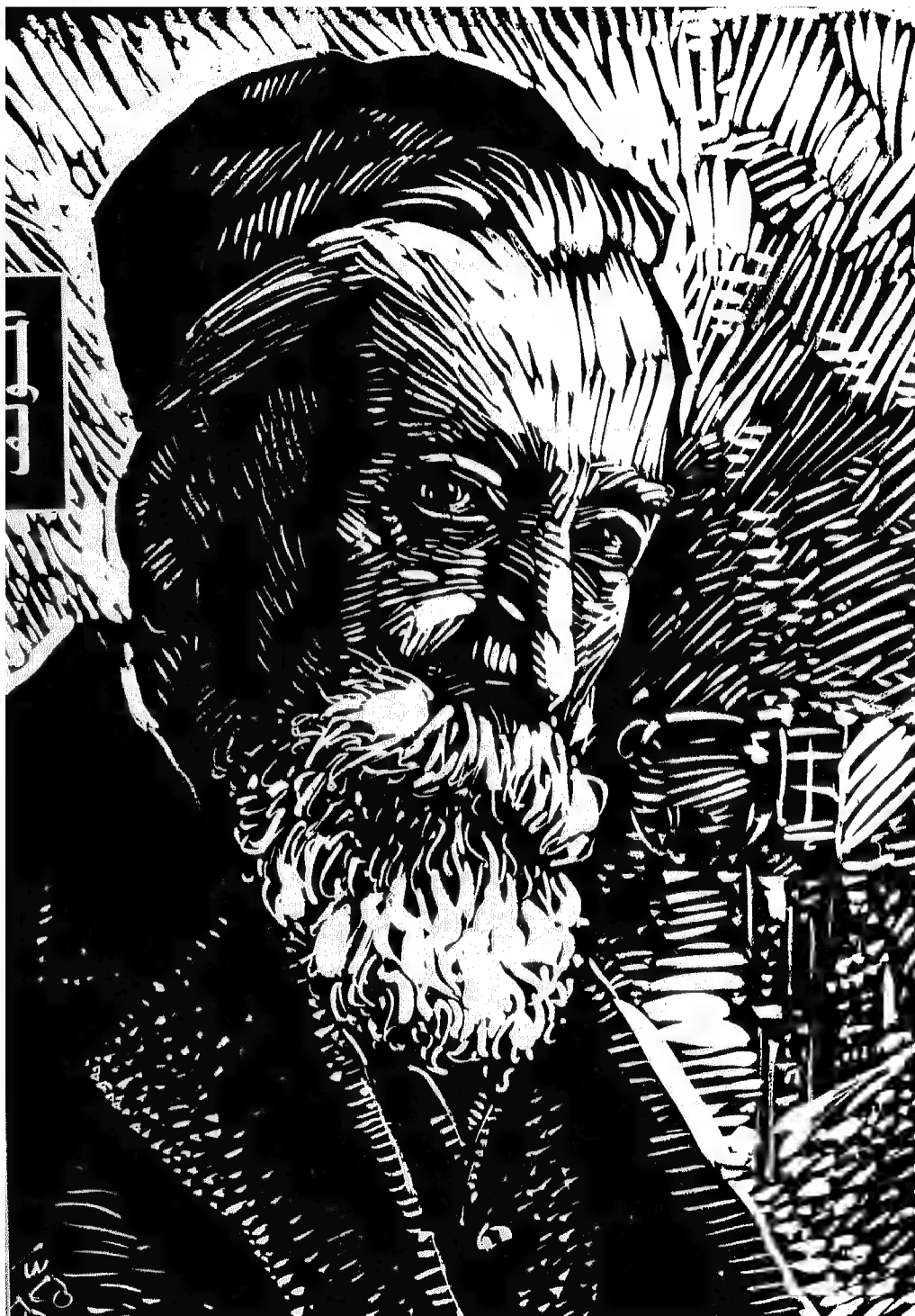
ثم خلعت غطاء رأسها ببطء أمام المدفأة، ثم نظرت بكآبة إلى الخاتم الذى كانت تضعه فى بنصر يدها اليسرى، خاتم صغير من الفضة، حيث صورة «مارات» كانت متلاشية، واختفت معالمها .

أخذت تنظر إليه حتى اغرورقت عيناها بالدموع، وحجبت نظرها ، فخلعته بهدوء وألقت به فى النار .

حينئذ تألقت بالدموع والابتسامة، وزاد الحب والحنان من جمالها، فألقت بنفسها بين أحضان «فيليب».

كان الوقت متأخراً عندما فتحت المواطنة «إيلودى» باب الشقة لعشيقتها، وهمست إليه فى الظلام :

- وداعًا يا حبيبى ... حان وقت عودة أبى، إذا سمعت جلبة على السلم
فاصعدُ بسرعة إلى الطابق العلوى، ولا تنزل إلا بعد ما يزول الخطر في أن
يراك أحد . ومن أجل أن أفتح لك باب الشارع، نُقِّ ثلاث دقائق على نافذة
البوابة . وداعًا يا حياتى ! وداعًا يا روحى !
ومَضَتْ آخر جَذْوَةٍ في المدفأة. وتترك «إيلودى» رأسها يهبط مرة
أخرى على الوسادة ، وهى سعيدة ومتعبة .



أناتول فرانسى

- ولد أناتول فرانس فى السادس عشر من

أبريل ١٨٤٤، والده فرانسوا - نويل تيبو

(١٨٠٥ - ١٨٩٠)، صاحب مكتبة «فرانس».

وهى مكتبة زاخرة بالكتب والوثائق ذات الطابع الخاص عن الثورة .

- تلقى دراسته الثانوية فى : «كولليج ستانيسلاس»، حصل على

البكالوريا فى ١٨٦٤ - فى عام ١٨٧٣، أصبح فرانس شاعرًا بارناسيًا

مرموقًا، وأصدر «قصائد ذهبية».

- أمين لمكتبة مجلس الشيوخ فى عام ١٩٧٦. كتب «الأفراح

الكوارثية».

- تزوج من مارى - فاليرى جيران دى سوفيل فى عام ١٨٧٧، وكان

فى ذلك الوقت صحفيًا وناقداً أدبيًا .

- فى عام ١٨٧٩، أصدر أول رواية نثرية (جوكاست والقطة

العجفاء) .

- فى عام ١٨٨٤، أصدر (كنائس الخوف) على شكل حلقات فى

صحيفة، (من الثانى من مارس إلى السادس عشر منه)، كما أصدر رواية

مناهضة للثورة، مُستلهمة من حياة «أندريه شينييه».

- فى عام ١٨٩٢، انفصل عن زوجته، واستمر فى إصدار سلسلة من

الروايات الناجحة، مثل «الزنبقة الحمراء»، والتي حققت نجاحًا مرموقًا،

وفى ١٨٩٦ تم انتخابه للأكاديمية. ثم اندمج فى مجموعة سياسية وأدبية

جديدة فى عام ١٨٩٨.

- في عام ١٩١٢ ، أصدر رواية « الآلهة عَطُشَى » .

- في عام ١٩١٤ ، أصدر «ثورة الملائكة» ، وهى تعبر عن حبه للسلام ونبذه للحروب ، وكانت بداية الحرب العالمية الأولى، وعاش منعزلاً .

- في عام ١٩٢١ ، حصل على جائزة نوبل في الآداب .

- في عام ١٩٢٤ ، توفى أناتول فرانس بعد حياة مليئة بالإنتاج الأدبي والسياسى، وكان الفضل يرجع إلى مكتبة والده التى ساعدته على تغذية ميوله، أدبية كانت أم سياسية .

ظهرت رواية « الآلهة عَطُشَى » فى الفترة ما بين الخامس عشر من نوفمبر ١٩١١ إلى الخامس عشر من يناير ١٩١٢ فى مجلة باريس، وفى شهر يونية رأت النور فى المكتبات .

ورواية «الآلهة عَطُشَى» عبارة عن لوحة فنية رائعة تعبر عن الموقف الذى اتخذه كاتبنا حيال الثورة الفرنسية، فهى ليست مجرد عمل أدبى فحسب ، بل هى أيضاً تاريخ ومناقشات حول الثورة، من رجل محب للسلام، ينبذ العنف ويمقتة، ولا يميل إلى إراقة الدماء وسفكها، ولا إلى الثورات التى تُراق فيها الدماء .

ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد ، بل هى تصوير وتحليل للطبقات والشخصيات التى ظهرت أثناء وبعد الثورة، وتجسيد للشعور والأحاسيس التى كانت مدفونة وكامنة فى أعماق نفوس بعض فئات

الشعب، والتي كانت مفعمة بالحقد والكراهية للملك والعائلة المالكة، خاصة «مارى أنطوانيت»، والتي تسمى في الرواية على لسان الشعب: «النمساوية».

انفجرت هذه الأحاسيس الدفينة وانطلقت من مكانها تقتل وتذبح، وتريق الدماء، وتقطف الرءوس، ليس فقط من أفراد العائلة المالكة، بل أيضًا من النبلاء والأثرياء، وكبار الشخصيات، بتوجيه التهم الملفة إليهم، وإدانتهم باللائثورية، واللاوطنية، والعداء للجمهورية، والخيانة، لذلك هرع الكثيرون بالهجرة إلى الخارج.

ومن ثم، كانت هذه اللوحة القاسية عن التزمّت الثوري، بالرغم من أن اليسار الفرنسي كان يوقر ويحترم اسم «أناتول فرانس».

ومن أجل أن يتسنى لنا تفهم تأثير هذه الرواية في عام ١٩١٢، يجدر بنا العودة إلى الانطباع الذي كان يسود فرنسا عن الثورة الفرنسية، ومن أجل تفسير المهارة العجيبة، والعبقرية الفذة للمؤلف، ودرجة استيعاب وتركيز كاتب يبلغ من العمر ثمانية وستين عامًا، وقدرته على التعبير القوي والسليم لكل صور البلاغة في الفكر والأسلوب، وكيف أن شاعرًا بارناسيًا (أى يتبع مدرسة شعرية معينة)، يتحول إلى رجل شعب يهتم به، ويشعر بما يكابده من جُور واضطهاد وجوع.

ومن أهم ما كان له تأثير في ذلك الوقت في إثارة الإحساسات السياسية والدينية، وقسمَ فرنسا إلى معسكرين، القضية الشهيرة، قضية الضابط «درايفوس»، وهو ضابط فرنسي من أصل يهودي، وُلد

في مولهوز (١٨٩٥ - ١٩٣٥)، وكان قد أُدين ظلماً في قضية تجسس، وفي عام ١٨٩٩ صدر حكمٌ بالعفو عنه، ورد اعتباره سنة ١٩٠٦ بعد إعادة النظر في الحكم ١٨٩٧ - ١٨٩٩، ومن ثم كان الانقسام إلى معسكرين : معسكر يمثل أنصار «درايفوس»، وهم مناهضون للروح العسكرية، ومعسكر للأكليروس، ويتجمعون حول رابطة حقوق الإنسان، أمّا المناهضون لدرايفوس فهم مناهضون للسامية، ومناصرون للروح العسكرية، وأنصار الأكليروس يتجمعون حول رابطة الوطن الفرنسي، ثم بعدها للجنة العمل الفرنسي .

كما قدم أناطول فرانس (خاصة فيما بين عامي ١٩٠٠ - ١٩٠٥) ضمانات للآداب الفرنسية، والكلاسيكية، والمعارف.

كما قدم لنا فرانس توازناً مرهفًا لفكرٍ رفيع، والتمتع بالحياة، والتبحر في العلم .

وكاشتراكي، نشرَ فرانس كتاب «آراء اشتراكية». وكان يُلقى خطاباً في كثير من المناسبات الخاصة، (في نوفمبر سنة ١٩٠٤) لإشهار الحزب الاشتراكي الذي يوجد حديثاً .

إن رواية «الآلهة عطشى» تُعد متزامنة للحب الذي يُكنّه المؤلف للماضي، والنفور من التاريخ .

في ذلك العصر كانت وجهات النظر مختلفة بين الفلاسفة والمؤرخين، والأدباء والشعراء، من أمثال روسو، وتين، وروبسيير، ودانتون،

ولامارتين، وهوجو، وديدرو، فمنهم من يرى أن الثورة مُناهضة للكلاسيكية، وجوهرها رومانتيكى ودينى، وهى وليدة روسو «الديكتاتور الكاهن»، و«ضلال الفكر» .

ومن هنا ، فمنهم من يرى أن رواية «الآلهة عَطُشَى» ما هى إلا رواية عن الثورة، وليست قصة ضد الثورة، أو مناهضة للثورية، ولكن عندما قرءوها عرفوا ما يُسبب احتدام أناتول فرانس تجاه الثورة، وأن ما يُسبب الخوف هو «جان جاك روسو» .

صدرت رواية «الآلهة عَطُشَى» معاصرة لنظريات عالم الاجتماع «جوستاف لوبون» فى علم نفس الشعوب سنة ١٨٤٩، و«علم نفس الثورات»، فى زمن كان فيه رؤساء الأحزاب مُحاطين بهالة دينية فى الجمعيات، وبين الجماهير، والمُحلفين، حيث تنتصر دائماً المواهب الروتينية، مما أدى إلى تفاقم الحالة فى فرنسا، حتى أنها بعد الثورة - فى سنة ١٧٨٩ - كانت تخوض حرباً ضد الحلفاء .

ويمكن اعتبار «الآلهة عَطُشَى» هجاء ضد رجال الكنيسة يثير القلق، بسبب الإدانات، وأحكام الإعدام، وعمليات الإبعاد، والتُّهم المُلقَّقة، واللعنات التى يُطلقها كل من المتزمتين، والمتعصبين، والمتعطشين إلى الدماء، ضد اللامباليين السلبيين، والمستضعفين، وذلك سوف يقابلنا فى شخصيات الرواية، من أمثال «دييون إينيه» الذى يعمل نجاراً، وفى شخصية البواب، والفتاة «أثينايس» و«بلين» والدإيلودى، و«جولى» شقيقة إيفاريس، التى سلَّمت نفسها لأحد القضاة الانتهازيين، و«بروتو»، والراهب «لونجيمار» .

وبالرغم من العنوان التراجيدي لهذا الكتاب، فهو ليس كذلك، ولكنه جدير بأن يقدم التراجيديا كشكل مؤثر للوهم المتكبر والمشتوم عند البشر.

وأنا تول فرانس، أديب حاذق، يجيد استخدام أسلوب الطباقي .

إن فلسفة فرانس تنبع من الشكل الكامل للشعور بالوحدة والوسيلة للتغلب عليها، فمن جهة الزمن وشكل الحياة أمر الإنسان لا يعنى شيئاً، فالإنسان لا حول له ولا قوة، ولا يملك شيئاً تجاه نفسه، فهو لا يحتفظ بشيء ولا يُغيّر شيئاً، ولكنه من عبيد التغيير الكوني.

ومن جهة أخرى فإن مصدر اليأس عند فرانس هو مصدر الشفقة والسخرية، وإن الحماس العاطفي المريض بين «فكي المفصلة» يُشعل جذوة غموض الحياة، الذي يوجه الموت نفسه بتحريض الحواس، لأن الحواس هي الحياة بأسرها.. وفي نظره أن الحب صار سادياً.

كانت الثورة الفرنسية بالنسبة لفرانس مرجعاً دائماً، ولكنه لم يستخرج منها إلا أعمالاً صغيرة، فيما سدا «الآلهة عطشى»، الرواية الثورية العظيمة المنتظرة .

إن لم تكن نتاجاً ظرفياً، بل على العكس إنها نتاج فني جوهري، حيث تظهر ثوابت فكر وثوابت فن. ولكن من أجل تعريفها لم يكن فرانس يجهل الظروف، فهو لم يكن يجهل شيئاً عن المجازفة التي تمثلها صورة الثورة الفرنسية إلى عام ١٩١١ تقريباً .

وإيفاريست - بطل الرواية - كان مُخلصًا وأمينا إلى درجة أدت به أخيرًا إلى المقصلة، وذاق ما أذاقته للعشرات.. لم يكن يُجارى التيار الذى يعيشه، وقد أدى به ذلك إلى التزمّت والتعصّب ضد كل من يجده ضد الثورة، حتى ولو كانت أخته «جولى» نفسها، فقد حَكَم على أصدقائه بالإعدام، وفي النهاية استيقظ ضميره، وكان يؤنب نفسه ويلومها على ما فعله وما يفعله، ولكنه كان في نفس الوقت يُبرّر أن ما يفعله ضد الإنسانية هو واجب لكى يعيش الوطن وتحيا الجمهورية : « نريق دماءنا، في سبيل الوطن ».. و« الموت أو النصر ».

على العكس من إيلودى - بطلة الرواية - فبالرغم من صغر سنها فإنها تبدو مُحَنّكة، كأنها تبلغ من العمر عتياً، فهي لا تُقيم وزناً إلا لمصاحبتها الشخصية وإرضاء شهوتها، بدليل أنها بعد أن أُعِدِمَ عشيقها «جاميلان» ألقت شباكها على «ديماهيس»، وأقامت معه علاقة كالتي كانت قائمة بينها وبين «إيفاريست». ومن قبلهما كان جندي الخيالة الجميل «هنرى»، والذي كان يعمل حارسًا تحت إمرة السيدة «روشيمور» التى كانت لها اتصالات هامة، وهى التى توسطت لإيفاريست لتعيينه مُحلفًا، وكانت مكافأتها منه، «فكى المقصلة».

ويرى «أناطول فرانس» أن زعم الثورة بالتحكم في الزمان والمكان، وتغيير الفنون والأفكار، والعادات، وأسماء الشهور والشوارع، وصور القصاص، أمر صبيانى وخطير، فالثورة تفرض علامات ورموزًا، فهي غير قادرة على تغيير الحياة، وأشد أنواع الجرائم خطورة هى الجرائم

الفعلية. فباسم الحرية «كم من الجرائم قد ارتُكبت!»، وكرهية الطغيان تم اعتقال الكوميديين الفرنسيين من أجل كلمة تسامح. هذا الهياج البليغ الذى كدّر الواقع والحقيقة، وألهب الحواس، واستدعى ثأر الطبيعة.

ونجد عنصرًا مشتركًا بين كل من الثلاثي : «بروتو»، والأب «لونجيمار»، والفتاة «أثينايس»، وهو الجُبْن، يجعل من الشجاعة عنصرًا لا طائلَ منه.. أدانهم الإرهاب، فكانوا يثيرون القلق، أو يُضحكون أصحابهم فى السجن .

هكذا، وباختصار شديد ، يقدم لنا «أناطول فرانس» لوحة شاملة لفرنسا فى عهد الثورة، وفترة الحرب، وقيام الجمهورية.. «الآلهة عطشى» تناولت الحالة السياسية والاجتماعية والعسكرية. وكذلك تناولت الفن، سواء فن التصوير والنقش الذى كان سائدًا حسب ذوق العصر، وكذلك فن المسرح، حيث كان فى عصره الذهبى فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، ولم يسلم من الإرهاب الثورى .

مصطفى كامل خليفة



● ليسانس آداب قسم اللغة الفرنسية

وآداب - كلية الآداب - جامعة القاهرة

. ١٩٧٣

مصطفى كامل خليفة

● دبلوم عال في الترجمة التحريرية والفورية من كلية الآداب - جامعة

القاهرة بدرجة جيد جداً ١٩٨٢ .

● مترجم بوزارة الداخلية من ١٩٦٦ إلى ١٩٧٣ .

● مدرس لغة فرنسية من ١٩٧٣ إلى ١٩٨٢ بالمدارس الثانوية .

● عمل مترجماً بوزارة الدفاع والطيران بالمملكة العربية السعودية .



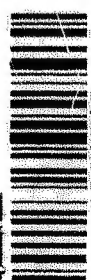
عربية للطباعة والنشر

7 & 10 شارع السلام أرض اللواء المهندسين

تليفون : 3256098 - 3251043 .



Bibliotheca Alexandrina



0281310